لورنس لغز الجزيرة العربية

انتوني ناتنغ

لويل ثوماس

١٤٠٧ هـ - ١٩٨٧

بيروت

مقدمة

ولد توماس ادوارد لورنس في اليوم السادس عشر من شهر آب، عـام ١٨٨٨. وكـان الابـن الثـاني غيـر الشرعي للسير توماس روبرت تشابمان من السيدة سارة مادن، التي كانت تعمل في منزله كمربية لبناته الأربـع، فأحبها وهجر زوجته الشرعية من أجلها. ثم رحلوا جميعاً من ايرلندا واسـتقروا فـي مقاطعـة ويلـز. وهنـاك عاشرها معاشرة الأزواج. وما لبث أن بدل اسم أسرته من تشابمان إلى لورنس.

هذا، وقد أنجب السير لورنس من زوجته الجديدة، سارة خمسة أولاد، هم: بوب، الابن البكـر، الـذي التحـق بإحدى البعثات الطبية التي كانت تعمل في الصين.

وبقي فيها لغاية عام ١٩٣٥، إذ عاد إلى بريطانيا، وكرس حياته لخدمة والدته. وتوماس، الابـن الثـاني، وهـو الذي غدا تلك الشخصية الأسطورية المعروفة باسم "لورنس العرب".

وويل وفرانك، اللذان قتلا في الحرب العالمية الأولى. وأخيراً. ارنولد، الذي أصبح أُستاذاً في جامعة كمبريـدج يدرس مادة علم الآثار. وقد اختاره لورنس ليكون وصياً شرعياً يرعى حقوقه في مؤلفاته ومنشوراته بعد وفاته.

والجدير بالذكر أنه لم يبق في قيد الحياة من أبناء السير لورنس، سوى اثنين، وهمـا: بـوب، الابـن الأكبـر، وأرنولد، الابن الأصغر. أما ويل وفرانك، فانهما قد قتلا كما ذكرنا آنفاً في الحرب العالمية الأولى.

وتوفي الوالد - أي السير لورنس - في عام ١٩١٩، وذلك أثر إصابته بوباء الانفلونزا، بينما تـوفي لـورنس الأسطورة في عام ١٩٣٥، وذلك على أثر إصابته في اصطدام حدث لدراجته النارية. أما الوالدة فقد توفيت عـام ١٩٥٩ بعد أن عاشت حياة طويلة امتدت إلى ثمان وتسعين سنة.

ومما يذكر أن لورنس كان في السنة الأولى من عمره عندما قرر والده أن يرحل من ايرلندا. وكان أن توجـه منها أولاً إلى اسكتلندا.

ثم عاد وانتقل منها إلى جزيرة "مان"، ليعود ويهاجر منها إلى منطقة جوسي ثم إلى فرنسا. وأخيراً، عـاد مـن فرنسا إلى بريطانيا حيث استقر نهائياً في مقاطعة اوكسفورد. وهنا ألحق أولاده بإحدى المـدارس الثانويـة، ثـم الجامعة.

لقد ظهرت معالم النبوغ على لورنس، منذ نعومة أظفاره، فقد كان شديد الميل إلى الدرس والمطالعة.

وكان منذ حداثته يبدي اهتماماً بالغاً بعلوم الآثار وبالمواضيع المختلفة التي تتفـرع عنهـا، وهـي: الهندسـة المعماريّة القديمة والأسلحة والمخطوطات والأواني الخزفية القديمة، وما إلى غير ذلك من الفنون. ونتيجة لـذلك بدأ يركّز اهتمامه على دراسة الحصون والقلاع المتبقية من القرون الوسطى.

هذا ويذكر لورانس في مذكراته الشخصية أنه كان في العاشرة من عمره عندما اعترف له والده بواقـع حياتـه الزوجية وقصة فراره مع والدته من ايرلندا.

ويذكر أيضاً أن والده كان يرغب الزواج من والدته بصورة شرعية، لو أن زوجته الشرعية السابقة ـ الليـدي تشابمان ـ رضيت بالطلاق منه.

والظاهر أن لورانس تأثر جداً بما عرفه عن ماضي أُسرته. ذلك الماضي الذي جعـل رفاقـه فـي المدرسـة يعرضون عنه وعن مخالطته ومعاشرته كغيره من الطلاب.

من هنا كان أن تولدت في نفسيته نزعة جامحة هي التي كانت تدفعه نحو المعالي، وهي التي كانت تحثّـه علـى القيام بمثل تلك الأعمال الخارقة التي تمكن بها من التفوق على جميع أقرانه الطلاب، الذين كانوا ينظـرون إليـه من زاوية القيم الأخلاقية السائدة في ذلك العصر يقيناً منهم بأن ذلك كان كافياً لتجريده مـن جميـع الاعتبـارات الاجتماعية. وكأنه كان يريد بذلك أن يقول لهم بلسان الشاعر القائل:

لا تقل أصلي وفصل أبداً إنما أصل الفتى ما قد حصل

ومما كان يزيد في اعتباره الاجتماعي حرص والديه على تمسكهما بالمبادئ والقيم الأخلاقية، وحرصهما علـى بقاء أواصر عائلتهما القوية، متينة، مترابطة.

وأهم من كل ذلك أن والدته قضت حياتها شريفة بين الناس، تقية، مخلصة لزوجهـا، عطوفـاً علـى أولادهـا، حريصة كل الحرص على أن تربيهم تربية صالحة وشريفة. وذلك ما جعلها قريبة من أفئدة جميع الذين عرفوهـا وعاشروها، وجعلهم بالتالي يتناسون ماضيها.

كذلك كانت والدة لورانس ذات إرادة قوية، كأنما توقدت من صخور البال في اسكوتلندا، موطنهـا الأصـيل، والذي يبدو لي هو أن لورانس كان ولدها الوحيد الذي ورث عنها إرادتها الصامدة التي لا تلين.

وهناك من يقول إن انصراف والدة لورانس إلى تربية أولادها تربية حسنة لائقـة، وانـصرافها إلـى الـصلاة وأعمال البر والإحسان، إنما كان بدافع ما كانت تشعر به من وطأة تلك الجريمة التي اقترفتها بحـق مخـدومتها الليدي تشابمان، على تفكيرها وضميرها.

وعلى أية حال، فليس هناك من ينكر أن والدة لورانس عاشت حياة صالحة مفعمة بالرشاد والصلاح.

أما والده فكان على الرغم من ثقافته المرموقة لا يشعر بأي ميل نحو العمل أو طلب الوظيفة. وربما كان مردّ ذلك إلى نزعته الأرستقراطية التي تولّدت في نفسه من واقع انحداره من أُسرة غنية تملك الأطيان الـشاسعة فـي ايرلندا.

حتى أنه كان لا يتصور بأن واجباته الأساسية في الحياة تعدو نطاق إدارة شـؤون الأسـرة وممارسـة بعـض أنواع الرياضة.

والواقع أنه كان يملك زورقاً للسباق، ويكثر من الذهاب إلى رحلات الصيد. ومع مرور الأيـام أخـذ يهـوى ركوب الدراجات الهوائية.

فكان يحاول أن يشبع رغباته منها بالإكثار من النزهات والرحلات البعيدة. ومما يقدر أن لورانس كان يرافقـه في أغلب الأحيان. وكثيراً ما كان يذهبان في رحلات بعيدة إلى بعض المناطق النائية مـن الجـزر البريطانيـة، وبنوع خاص، إلى مقاطعة ويلز، وهناك شاهد لورانس لأول مرة الأثرية. وفي عام ١٩٠٦ ذهب لورانس برفقـة والده في رحلة إلى فرنسا.

وفي شهر تشرين الأول من عام ١٩٠٧، التحق لورانس بكلية يسوع في أكسفورد. وهناك سـجل لنفـسه عـدة اكتشافات رائعة عندما كان يقوم بأعمال التنقيب عن الآثار تحت مياه البحر.

وأبدع في المحاولات البارعة التي برهن بها عن رشاقته وخفته في التنقل من فوق سطوح الأبنية أناء الليل.

كما انه اشتهر بروحه المرحة، وعمق تفكيره ، وسعيه الدائب في طلب العلـم والمعرفـة، واهتمامـه الزائـد بدراسة أحداث ووقائع القرون الوسطى، وتعشّقه لمطالعة القصص الروسية والمؤلفات العـسكرية فـي التكتيـك والاستراتيجية الحربية.

وهكذا استطاع لورانس في غضون فترة قصيرة أن يسترعي انتباه بعض مشاهير علماء الآثار، أمثال ليونـارد وولي وهو غارث.

ولا عجب إذا ما أصبح العالم هو غارث يحدب عليه حدب الوالد على ولده، ويحاول مـا اسـتطاع أن يعـزّز ثقافته في شؤون الشرق الأوسط ودراسة آثاره والتعمق في دراسة تقاليد شعوبه.

وقد بلغ اهتمامه بالحصون والقلاع القديمة المنتشرة في إنجلترا وفرنسا حداً كبيراً دفعه للـسفر إلـى سـورية وفلسطين سعياً لدراسة القلاع الصليبية هناك والاطلاع عليها عن كثب. وبالفعل فقد توجه إلى الـشرق الأوسـط في صيف عام ١٩٠٩ غير متزود إلاّ بالعلم والمعرفة والجرأة ونكران الذات والإرادة الصلبة التي لا تلين حتـى بوجه الكوارث الطبيعية وأقسى الأحوال الجوية، وحب المغامرة والمخاطرة.

وما أن وطأت قدماه أرض الشرق حتى راح يطوح في مناطقه سيراً على الأقدام. فكان إذا جن الليل لا يتـردد عن طرق أبواب بيوت البدو ليقضي ليله بينهم.

والمدهش في لورانس أنه كان لا يتوقف ولا يكف البتة عن السفر والتنقل حتى في أشـد حـالات الإرهـاق أو تعرضه للمرض.

وطبيعي أنه وجد في سحر الشرق وروعته، ولطف شعبه وكرمه، وشهامته، وحسن ضيافته، مـا كـان ينـسيه مرضه ويخفف عن نفسه شدّة النوبات التي كانت تنتابه أثناء جولاته وتنقلاته.

وثمة سبب آخر دفع لورانس للشخوص إلى بلاد الشرق. وهو أنه كان يستعد لتقديم أطروحته الجامعيـة، فجـاء يستوحي موضوعها من سحر الشرق وروعة القلاع الأثرية القائمة فيه.

والحقيقة أنه وضع تلك الأطروحة ونال بها درجة بكالوريوس في العلوم. ثم نـشرها تحـت عنـوان "القـلاع الصليبية". وقد ضمنها العديد من الصور والرسوم والخرائط التي التقطها ووضعها بنفسه.

وعلى أثر ذلك، وبإيعاز من الدكتور هو غارث وتوصياته بلورانس وهب منحة دراسية ليتـسنى لـه أن يتـابع دراساته وأبحاثه الأثرية.

وعلى الرغم من إلمام لورانس باللغة العربية، فقد التحق بمدرسة تابعة للإرسالية الأميركية فـي مدينـة جبيـل اللبنانية، حيث انضم إليه الدكتور فيما بعد.

وبعد مدة غادرا تلك المدرسة وسافرا من لبنان إلى إحدى المناطق السورية للقيام بأعمال التنقيب عـن الآثـار فيها.

وفي شهر آذار من عام ١٩١٣، وصلا إلى مدينة جرابلس "كركميش" فبقي لورانس هناك مدة ثـلاث سـنوات يقوم بأعمال التنقيب والبحث وجمع الأواني الخزفية وتصنيفها حسب عهودها. والجدير بالملاحظـة أن لـورانس أبى إلاّ أن يعيش بين العمال والأكراد الذين كانوا يساعدونه في أعمال الحفر، فـتعلّم مـنهم لغـاتهم ولهجـاتهم المختلفة إلى حدّ الإتقان، وتعمّق في دراسة تاريخ أسرهم وطبائعهم.

وفضلاً عن ذلك، كان ينظر في مشاكلهم وخلافاتهم ويعمل على حلّها بمنتهى التجرد والإنصاف والإخلاص.

وحدث أن بلغ القيظ أشده في عام ١٩١٩، فتضايق لورانس لشدة ما كان يـسببه لـه مـن الإرهـاق. فـأوقف عمليات الحفر والتنقيب عن الآثار، وقفل عائداً إلى سورية مشياً على الأقدام. ولم يكن نصيبه مـن رحلتـه هـذه سوى المشقة والإرهاق والمرض.

ومن سورية سافر إلى بريطانيا فأمضى فيها فترة نقاهة استعاد فيها نشاطه وعافيته. ثـم غادرهـا عائـداً إلـى كركميش حيث تابع أعمال التنقيب.

وقد كان للتجارب التي مر بها لورانس واختبرها في سورية أثرها العميق في نفسه. وكان إلى جانب هـذا كلـه يكره الأتراك كرهاً شديداً كما لو أن هذا الكره كان متأصلاً في ذاته. وأشد ما كان يحز في نفسه رؤية الأتـراك يتحكمون بمصير الشعب العربي العظيم في سورية.

ومن هنا آلي على نفسه أن يشترك في النضال مع الشعب السوري بغية طرد الأتراك مـن سـورية وتخليـصه من طغيانهم وإرهابهم وتسلطهم حتى تعود إليه حريته، وتتاح له الفرصة كي يعمل من أجل بـلاده وازدهارهـا، فتعود إلى تبوء المركز الذي يليق بها، وتستعيد سابق عهدها، دولة عربية حرة أصيلة.

في هذه الأثناء، كانت دول أوروبا الوسطى منهمكة في استعدادها لخوض غمار حرب بدت وشيكة الوقوع بعد التوتر الذي ساد العالم. ومن الجهة الأخرى، كان اللورد كيتشنر في مصر بصفته المقيم البريطاني هناك يحـصن مداخل قناة السويس لأنه كان يتوقع أن تنضم ألمانيا إلى تركيا في أية حرب قد تقع.

والسويس، كما هو معلوم، كانت بمثابة العمود الفقري للمواصلات البريطانية. أما صـحراء سـيناء، فكانـت الحصن الطبيعي الذي يحمي مصر من الخلف.

وكانت سيناء في تلك الأيام خاضعة لحكم الأتراك، وليس لدى الإنجليز غير خرائط تدل عليها. وإذ ذاك شـكّل الإنجليز فرقة من السادة: وولي ولورانس والقائد نيوكومب عهدوا إليهم مهمة القيام بوضع خـرائط علـى شـبه جزيرة سيناء بعد أن يتوغلوا متخفين. وبالفعل، قام أُولئك بالمهمة على خير وجه، ووضعوا تقريراً عـن حملـتهم بعنوان "صحاري زن".

ثم نقحوه ووسعوه في اوكسفورد، ونشروه بكتاب يحمل نفس الاسم. وكانوا ما يزالون منهمكين في وضع خرائط هذا الكتاب عندما اندلعت نار الحرب العالمية الأولى.

ولنصرف لورانس في السنة التالية، إلى كتابة دليل عن منطقة سيناء بأسرها كي تستعمله الجيوش أثناء تنقلاتها وتحركاتها في المنطقة.

وفي أواخر العام نقل لورانس ونيوكومب وولي إلى مكتب الاستعلامات البريطاني في القاهرة.

هناك كان لورانس يتولى رسم الخرائط فضلاً عن استجواب أسرى الأتراك توصلاً إلى معرفة أماكن قواتهم وعددها.

والمعلوم أن الإمبراطورية العثمانية كانت يومئذ تسيطر على شبه الجزيرة العربية وغيرها من الدول العربية التي غدت الآن مستقلة وهي: العراق، سورية، لبنان، المملكة الأردنية الهاشمية، المملكة العربية السعودية، اليمن، بالإضافة إلى فلسطين.

وفي ذلك الحين، كانت المنظمات العربية السرية الموجودة في العراق وسورية متحدة دوماً للعمل ضد الأتراك، ومتأهبة لشن ثورة عارمة حالما يتراءى لها أن الفرصة مؤاتية لذلك.

وكان الشريف حسين وأولاده الأربعة: علي وعبد الله وفيصل وزيد، بين أولئك القادة العرب الذين كانت قلوبهم تخفق بحمى النضال والحماسة والاندفاع في سبيل القضية العربية ونصرتها.

وكان الشريف حسين الذي ينتسب إلى سلالة النبي محمد (صلعم)، رئيساً على بني هاشم.

وهي عشيرة دعيت باسم رائدها الأول هاشم الذي كان زعيماً عظيماً في القرن السابع. وكان أيضاً الجد الأكبر للنبي محمد (صلعم).

فمنذ أيام النبي محمد (صلعم) كان يجري تعيين أمير مكة من إحدى الأسر التي تنتسب إلى النبي (صلعم) بصلة القربى والدم.

وقد ظل هذا التقليد شائعاً ومعمولاً به حتى في الفترة التي حكم فيه الأتراك المقدسات الإسلامية في الحجاز، مع فارق واحد وهو أن ذلك الأمير كان من وقت إلى آخر يتلقى أوامره من الحاكمين في استنابول.

وفي الفترة القصيرة التي سبقت اندلاع ثورة عام ١٩١٩، تلك الثورة التي قام بها زعماء منظمة تركية كانت تطلق على نفسها اسم "جمعية الإصلاح والترقي"، ونجح القائمون بها في خلع السلطان عبد الحميد عن عرشه، قام الأتراك بنقل عدد من أفراد أشراف الهاشميين من الحجاز إلى استنابول.

وطبيعي أن يكون الشريف حسين وأولاده الأربعة من بين الذين نقلوا. غير ن ذلك الانتقال كانت له بعض الحسنات بالنسبة إلى الشريف حسين وأولاده، إذ أنه أتاح لهم أن ينهلوا المعارف من كليات استانبول ومعاهدها العلمية، فتعززت ثقافتهم وتوسعت آفاق معارفهم ومعلوماتهم الأمر الذي مكنهم في المستقبل من أن يقودوا الجيوش العربية ضد الأتراك ويحققوا أعظم الانتصارات.

وفي عام ١٩١٤، أي عندما اندلعت الحرب العالمية الأولى، حاول الأتراك أن يستميلوا العرب إلى جانبهم لمعاونتهم في شن حرب مقدسة ضد البريطانيين والفرنسيين بغية طردهم نهائياً من كافة الأراضي الإسلامية.

إلاّ أن الشريف حسين رأى ألا يورط نفسه في مثل هذه المغامرة التي كانت فوائدها ستعود ولا ريب على الأتراك وحدهم.

ولذا فقد أبدى معارضته للفكرة، وخاصة بعد أن أدرك أن هدف الأتراك من وراء ذلك لا يرمي إلى تطهير الأراضي الإسلامية المقدسة من الأجانب، وإنما لتعزيز نفوذ الأتراك في المواقع التي كانوا يسيطرون عليها.

ومن الأسباب الأخرى التي دفعت الشريف حسين إلى معارضة الفكرة وخوض غمار مثل تلك الحرب، أنه كان يستعد للقيام بثورة شاملة ضد الأتراك، بالتعاون مع المجاهدين العرب في الولايات المتحدة الأخرى حالما تسنح لهم الظروف.

وعليه فلم يجد الشريف حسين إلاّ أن يخفي مظاهر الاستعداد للثورة التي كان يزمع القيام بها ضد الأتراك بإظهار الولاء لهم عندما فاتحوه بموضوع إعلان الحرب المقدسة ضد الأجانب.

والدليل على ذلك أن الشريف يوم أوفد ابنه الأمير فيصل للتفاوض مع الأتراك في كيفية خوض مثل تلك الحرب، كان قد شدد عليه بضرورة الاتصال سراً بالزعماء العرب في سورية بغية الاتفاق معهم بخصوص الثورة العربية المتوقعة والوقوف على مدى الاستعدادات والمساعدات التي يمكنهم تقديمها لتحقيق مثل تلك الثورة.

وفي نفس الوقت أوفد ابنه الأمير علي إلى المدينة المنورة للقيام بمساع سرية لدى شيوخ القبائل هناك بغية تشكيل جيش عربي قوامه الفلاحون ورجال القبائل في الحجاز.

كذلك أوفد ابنه الأمير عبد الله إلى القاهرة بغية الاتصال بالإنجليز للحصول منهم على ضمانات وتأكيدات بمساعدة الثورة في حالة إعلانها.

ويومئذ، كانت القيادة البريطانية ترى أن وجهة الحرب تسير في اتجاه معاكس لمصالحها وأمانيها، وذلك على الرغم من أن جميع الدلائل كانت تبشر بإمكانية نجاح الثورة العربية.

وعلى ذلك فقد أبدى الإنجليز تحفّظهم بالنسبة إلى المساعدات التي تطلب منهم تقديمها لمساندة الثورة العربية.

وفي تلك الأثناء، كانت القوات البريطانية مثخنة بالجراح إثر اندحارها في معركتي الدردنيل وكوت العمارة. كذلك كانت القبائل السنوسية في صحراء ليبيا تهدد من الخلف مواقع القوات البريطانية الموجودة في مصر ومع ذلك، لم يكف الشريف حسين عن متابعة استعداداته ووضع خططه لإعلان ثورته ضد الأتراك.

أما الأمير فيصل فيوجد نفسه في دمشق في مركز حرج للغاية. فقد بث الأتراك العيون حلوله، وراحوا يحصون عليه حركاته وسكناته.

وأشدّ ما كان يحز في نفسه رؤية الطاغية جمال باشا يلجأ إلى التنكيل بالمجاهدين العرب هناك ويعذبهم أشد العذاب، ظناً منه أن ذلك يكفي لتجريد سورية من قدرتها على الثورة.

وأدهى من كل ذلك، أن فيصل وجد أن الفلاحين الذين يعتبرون عصب الثورة وعمودها الفقري، ينخرطون في صفوف الجيش التركي بسبب كساد المواسم الزراعية وتفشي المجاعة في صفوفهم.

وبناء عليه بعث فيصل إلى والده الشريف حسين برسالة نصحه فيها أن يتريث في إعلان الثورة ريثما تميل كفّة الحرب إلى صالح الإنجليز.

هذا ما ذكره الكاتب انتوني نانتنغ عن حياة لورانس ونشأته. وهانحن الآن نسرد عليكم بعضاً مما دونه المؤلـف لويل توماس في هذا الصدد.

يقول توماس في كتابه أن لورانس ولد في مقاطعة غالدواي الواقعة على الشاطئ الغربي من ايرلندا.

كان لورانس يتحلى بقوة جسدية خارقة، شأنه في ذلك شأن جميع أهال مقاطعـة غالـدواي المـشهورين بقـوة بأسهم واحتمالهم للمشقات إلى حد يفوق مقدرة الشعوب الأخرى.

وكان يجري في شرايينه دم هو مزيج من الدم الايرلندي والاسكتلندي والإنجليزي والأسباني وغيره.

كذلك كان لورانس ينتسب بصلة القربى إلى السير روبرت لورانس الذي كان قد رافق الملـك ريـشارد قلـب الأسد إلى الأراضي المقدسة قبل سبعمائة وثلاثين سنة، والذي كان قد حقق لنفسه شهرة واسعة أثنـاء اشـتراكه في الحصار الذي ضربه الملك قلب الأسد على مدينة عكا، تماماً كما حدث للورانس إذ رافق اللورد اللنبي إلـى الأراضي المقدسة وحقق لنفسه الشهرة والسمعة البعيدة المدى إذ ساهم مساهمة فعّالة في تخليصها من الأتراك.

وكان من سلالته أيضاً الأخوان السير هنري والسيرجون لورانس اللذان يعتبران مـن الـرّوّاد الـذين شـيّدوا صرح الإمبراطورية في الهند.

وكان والده، وهو السير توماس لورانس، أحد الملاكين الكبار في ايرلندا فضلاً عن كونه رياضياً بارزاً.

ولكن حدث أن خسر جميع أملاكه إبان الفترة التي كان غلادستون خلالها رئيـساً للـوزارة البريطانيـة، فنقـل أسرته من ايرلندا إلى مقاطعة ويلز.

لقد صرف لورانس السنوات الخمس الأولى من عمره في جزيرة شانيل. وما إن بلغ العاشرة من عمـره حتـى عاد والده وهاجر من تلك الجزيرة إلى شمالي اسكوتلندا حيث بقي وأسرته هناك مدة ثلاث سنوات.

ثم انتقل إلى فرنسا حيث ألحق لورانس بإحدى المدارس التابعة للآباء اليسوعيين.

وأخيراً عاد الأب وانتقل وأسرته من فرنسا إلى مقاطعة اوكسفورد في بريطانيا.

وطبيعي أن يترك الجو الثقافي الرفيع في اوكسفورد أثره في نفسية لورانس، وعلى مستقبله.

فقد وصفه أحد أصدقائه في المدرسة الثانوية باكسفورد بقوله: كان لورانس رغم تحول جسمه وضـعف بنيتـه يتحلى بإرادة جبارة وميل كبير إلى المغامرات.

كذلك كان لورانس في حداثته محباً لتسلق الأشجار والمرتفعات وأسطحة الأبنية، كما لم يجرؤ على ذلـك أحـد سواه.

ومما يؤسف له انه كسرت إحدى ساقيه عندما كان يقوم بمحاولة لتسلق سطح إحدى الأبنيـة. ويعـزو أقاربـه قصر قامته إلى هذا الحادث فيقولون إنه قد أثّر على نمو جسمه فيما بعد.

والغريب أن جسمه لم يكتسب نموه الكافي منذ ذلك الحين، الأمر الذي يعزز حقيقة قول أقاربه في هذا الصدد.

ومما يذكر أن لورانس كان يسلك في حياته السبل التي هي أقرب إلى الحياة في الـصحاري منهـا إلـى حيـاة المدن.

كان غريب الأطوار في سلوكه، حاد الذكاء، ثاقب البصيرة، قوي الإرادة، صلب العود، عميق التفكير وقد اكتشفت بأنه أنهى استعداده لشهادة بكالوريوس علوم قبل الفترة المطلوبة منه بسنة واحدة وبدون أن يحضر محاضرة واحدة من المحاضرات الخاصة بها.

فكان في بعض الأحيان يشترك في النقاش مع الأساتذة، بينما كان يقضي معظم أوقاته في التنقل والسفر مشياً على الأقدام، أو كان يغرق نفسه بمطالعة آداب القرون الوسطى. وحتى يضمن لنفسه الوحدة، كان ينام سحابة النهار ويستيقظ آناء الليل.

ومن المؤلفات الأخرى التي شغف لورانس حباً بمطالعتها والتعمق في دراستها واستيعابها، كتب الدراسات العسكرية ووقائع الحروب.

فطالع في هذا الموضوع كتباً تروي وقائع سنحاريب وحروب نحو تمس ورمسيس ونابليون وولنجتون وجاكسون وفون مولتكي. ومن الكتب المفضّلة لديه كتابه "مبادئ الحرب" بقلم المارشال فوش.

إلاّ أنه أخبرني عندما كنت أُرافقه في الشرق أن كتاب يوليوس قيصر والمؤرخ اليوناني كسينفون كانا أكثر أهمية بالنسبة إلى حملته في الصحراء من أي كتاب آخر.

وذلك لأنه كان يتحتم عليه أن يطبق في حملاته وهجوماته التي قام بها في الصحراء ضد الأتراك مثل ذلك التكتيك الذي كان مناقضاً تماماً لما ضمّنه المارشال فوش مؤلفه عن مبادئ الحرب.

هذا، وقد اختار لورانس موضوع الهندسة المعمارية العسكرية التي شيد الصليبيون قلاعهم بموجبها موضوعاً لأطروحته الجامعية.

وعليه، فاه ألحّ على ذويه أن يسمحوا له بالذهاب إلى الشرق الأوسط بغية الحصول على معلوماته من مصادرها الأساسية، وليدرس عن كثب الجهود الهندسية التي بذلها الصليبيون في إشادة قلاعهم وحصونهم.

وحدث أن شجعه على ذلك أستاذ مشهور في جامعة أوكسفورد هو الدكتور دافيد جورج هو غارث. وقد كان لهذا الأستاذ تأثير كبير على مجرى حياة لورانس. ويذكر أنه - أي الدكتور هوغارث - دفعه إعجابه بلورانس إلى أن يذهب إلى مصر أبان الحرب العالمية الأولى ليقوم بصفة مستشار خاص له أثناء حملاته البارعة ضد الأتراك.

وتردّدت والدته في السماح له بالسفر إلى الشرق، ولكنها ما لبثت أن سمحت له بالسفر إلى سورية وزودته بمبلغ مائتي جنيه لتغطية نفقات سفره وإيابه ومصروفه.

أما أن والديه قد سمحا له بالسفر إلى سورية فلأنهما كان واثقين من أن لورانس سيعود إلى بلاده ويستقر فيها نهائياً بعد أن يختبر قسوة الحياة في الشرق وخشونتها، وحرارة الطقس.

ولا مندوحة عن القول إن لورانس شعر بالقرف من الراحة التي يستظل بها المسافرون فور أن وطأت قدماه ارض بيروت.

فتوجه لتوه منها إلى دمشق مشياً على الأقدام. وأغرب ما في ذلك أنه كان يسير حافي القدمين في الطريق دون أن تراوده أية فكرة في ركوب العربة إلى هناك.

وفي سورية راح يطوف في الصحراء بنفسه، ويدرس بدهشة ولهفة عادات وتقاليـد الجماعـات القاطنـة فـي الممرّ القديم الواقع بين بلاد ما بين النهرين ووادي النيل.

ولما عاد إلى اوكسفورد لتقديم أطروحته، بعد مرور حوالي عامين، كان لديه مائة جنيـه اسـتطاع أن يوفّرهـا من المبلغ الذي زودته به والدته.

وقبل عدة سنوات من اندلاع نار الحرب العالمية الأولى، نظمت جامعة اوكـسفورد بعثـة برئاسـة صـديق لورانس الأستاذ هو غارث، عالم الآثار المشهور، أوفدتها إلى الشرق للقيام بأعمال البحث والتنقيب عـن الآثـار في وادي الفرات، وذلك سعياً منها لكشف النقاب عما تبقّى من آثار الحثيين هناك.

وقد عيّن لورانس في هذه البعثة رئيساً على فرق العمل التي كانت تتألف من الأكـراد والتركمـان والأرمـن والعرب.

والجدير بالملاحظة أن النجاح كان حليف البعثة إذ عثرت على بقايا مدينة كركميش التي كانت قـديماً عاصـمة الإمبراطورية الحثية.

ويمكن القول بأن لورانس ورفيقه الدكتور وولي توصلا بالفعل إلى إزاحة النقاب عن آثار أثبتـت أنهـا كانـت الحلقة المفقودة في سلسلة الحقائق التي تربط ما بين الحضارات التـي ازدهـرت فـي نينـوى وبابـل، وبدايـة الحضارة اليونانية في جزر البحر المتوسط.

تلك الآثار التي يعود عهدها إلى خمسة آلاف سنة مضت. هذا ويضم متحف اشمولين في اوكسفورد الكثير مـن الآثار التي وهبها لورانس له لعرضها فيه قبل أن يبلغ العشرين من عمره.

وعندما اجتمع ممثل بريطانيا وألمانيا وفرنسا وروسيا وتركيا في عام ١٩١٢ واتفقوا على إعطاء الألمـان حـق الإشراف على ميناء الإسكندريون، ذلك الميناء الاستراتيجي المهم، وسمحوا لهم أيضاً - أي للألمان - بمتابعـة بناء الخط الحديدي الذي كان سيربط بين بغداد وبرلين، اشتم لورانس من ذلك تهديـداً جريئـاً يوجهـه الألمـان لسلطة الإنجليز ونفوذهم في آسيا.

وما أن سمع عن ذلك الاتفاق حتى أسرع في الذهاب إلى القاهرة وطلب على الفور مقابلة اللورد كيتشر.

وأثناء المقابلة سأله لورانس عن الأسباب التي دفعت الإنجليز إلى السماح للألمـان بالإشـراف علـى مينـاء الإسكندريون، وهو الميناء "إن الذي يسيطر على مرفأ الإسكندريون يستطيع في يوم من الأيام أن يقـرر مجـرى السلام في العالم".

فرد عليه كيتشنر قائلاً: "لقد حذرت الحاكمين في لندن المرة تلو المرة دون جدوى. وأغلـب الظـن أن حربـاً ستقع بعد سنتين من الآن. وما حيلتنا أيها الشاب المتحمس طالما ليس هناك من يصغي إلينا؟"

ويروي لنا لورانس قصة طريفة مثل حوادثها بنفسه أثناء مغادرته القاهرة وعودته إلى مركـزه فـي سـورية لمتابعة أعمال التنقيب هناك، فقد قال انه لم يطق رؤية الألمان يشرفون على أعمال بناء الخـط الحديـدي الـذي كان من شأنه أن يهدد نفوذ الإنجليز في منطقة الشرق الأوسط دون أن يدبر ضدهم مقلبـاً يقلقهـم ولـو لفتـرة قصيرة، فينتقم منهم لنفسه التي استبد بها اليأس من الخطوة التي أقدمت عليها حكومته في لندن، وكانـت مخالفـة لتيار تفكيره، ومناقضة لأحكام التاريخ كما خبرها وسبر غور معارفها.

يذكر لنا لورانس أنه عاد إلى مقر عمله وأمر بعضاً من عماله بنقل بعض الأنابيب الضخمة على ظهور البغال والجمال من مكان التنقيب إلى التلال الرملية القريبة من منشآت الألمان، تلك التلال التي كانت تطل على المنشآت كأحد المراكز الاستراتيجية والمهمة التي أرادت الطبيعة أن تتوج بها قلب الصحراء المنبسط.

وما إن وصلت الأنابيب إلى هناك حتى بادر لورانس إلى تركيز فوهاتها صوب منشآت الألمان ليدخل في روعهم أن هناك من يقوم بتحصين التلال لتهديد أعمالهم فيها.

وبالفعل، فقد تصور الألمان أن الإنجليز كانوا يحصنون التلال بتركيب مدافعهم فوقها، واستولى عليهم الذعر، وعلت الجلبة بين صفوفهم، فأوقفوا سير الأعمال، ثم أبرقوا إلى استانبول وبرلين قائلين للحاكمين فيها أن الإنجليز يقومون بتحصين التلال المطلوبة على منشآت الخط الحديدي.

أجل، لقد حدث كل ذلك بمعرفة لورانس ورفيقه وولي. وبينما دب الذعر في صفوف المهندس الألمان، غمر الفرح قلب لورانس وطفق هو ورفيقه الدكتور وولي والعمال العرب يضحكون ويسخرون منهم.

وقد روى لنا لورانس أيضاً حكاية طريفة من نوعها، ولكنها تدل على مدى حنكته وكياسته في التغلب على الأزمات إذا ما اشتدت وتعقّدت.

فهو يحدثنا أن الألمان كانوا سيستخدمون في أعمال الخط الحديدي ذاك عدداً كبيراً من الشبان المحليين. غير أنهم لم يكترثوا بمعرفة أسماء أولئك العمال بل اكتفوا بدمغ أرقام على سترهم من الخلف للتمييز بينهم وبين أي غريب قد يندس بينهم لسبب من الأسباب.

وكانوا ـ أي الألمان ـ بدافع تحمسهم لإنهاء العمل بأقصى سرعة ممكنة لا يهمهم من أمر العمال أو مشاكلهم المحلية شئ.

من هنا بدأت المشاكل تبرز في وجههم، إذ وجد بعض العمال الفرصة سانحة للثأر من بعضهم البعض، بدلاً من الانهماك في حفر الخنادق وغيرها من مستلزمات العمل.

وتوالت أعمال الثأر إلى درجة أن الألمان لم يعرفوا كيف يضعون حداً لها.

وأدهى من ذلك أن الألمان وجدوا أنفسهم بعد فترة قصيرة، هدفاً لهجوم من العمال الأكراد للفتك بهم. وكم كان حظ الألمان وافراً إذ هرع لورانس وزميله وولي إلى نجتهم في الوقت المناسب فاستطاعا أن يحولا دون حدوث مذبحة رهيبة كانت على وشك أن تقع بين لحظة وأخرى.

ونتيجة لأعمالهما البطولية فقد انعم عليهما السلطان بوسام المجيدية الرفيع. وقد حدث ذلك في أوائل عام ١٩١٤، أي قبل اندلاع نار الحرب العالمية الأولى وبروز شخصية لورانس فيها.

ولا بد أخيراً من الإشارة، في ختام هذه الكلمة، إلى قصة حقيقية ضمنها الدكتور وولي كتابه، عن لورانس. يروي لنا الدكتور وولي أن خادمهما أحمد عاد ذات مرة إلى المنزل مغموماً.

وسأله لورانس عن سر بكائه فأخبره بأن أحد المهندسين الألمان أمسك به ثم أمر أحد رجاله بجلده جلداً مبرحاً.

وذكر أحمد بأنه عندما أمسك به ذلك المهندس الألماني كان يتحدث إلى أحد العمال ويطلب منه أن يرد إليه مبلغاً من المال استدانه منه قبل مدة طويلة.

وإذا بالمهندس الألماني ينتهره دون أن يسأله عن سر تحدثه مع ذلك الرجل، وأمر أحد رجاله بجلده.

وما إن انتهى أحمد من سرد حكايته حتى نهض لورانس عن مقعده وتوجه لتوه إلى مركز ذلك المهندس وقد صمم على ألا يعود إلاّ وقد أرغم ذلك الألماني على القدوم إلى القرية والاعتذار لأحمد أمام الناس.

أما إذا رفض فقد صمم لورانس على أن يثأر لأحمد من ذلك المهندس بإحضاره إلى القرية وجلده أمام جميع سكان القرية.

وصل لورانس إلى منشآت الألمان وتوجه على الفور إلى مكتب رئيس بالمهندسين، فقص على مسامعه ما حدث لأحمد على يد أحد مهندسيه وطلب منه إما أن يأمر هذا المهندس بتقديم الاعتذار علناً أمام سكان القرية وإلاّ فسيرى نفسه مضطراً لسوقه إلى القرية وجلده هناك.

وحاول رئيس المهندسين أن يدخل في روع لورانس أن مهندسه لم يوجه أية إساءة لأحمد، كل ما في الأمر أنه جلده.

وهنا اغتاظ لورانس وقال بحدة:

ـ وماذا تسمي ذلك إذا كنت لا تعتبر عملية الجلد إهانة؟

ـ لا شئ ! فنحن نضطّر في معظم الأحيان أن نجلد السكان المحليين لردعهم عن القيام بأعمال تخلّ بأنظمتنا العملية وأوامرنا... وليس هناك من سبيل إلى ذلك سوى هذا الأسلوب.

وضحك لورانس ساخراً، ثم ردّ عليه بتهكم ظاهر يقول:

ـ يبدو أنك تجهل كيف يجب أن تعامل سكان البلاد الأصليين. لقد مضى على وجودنا هنا فترة أطول بكثير من الفترة التي قضيتموها أنتم.... ومع ذلك لم نجلد أحداً، وليس في نيتنا أن نحكم على أحد بالجلد في المستقبل.

وخلاصة القول أنه ينبغي على مهندسكم الذهاب إلى القرية والاعتذار لأحمد هناك أمام جميع سكان القرية...

هنا ضحك رئيس المهندسين وقال له:

ـ هكذا؟...

ـ أعتقد بأن القضية انتهت عند هذا الحدّ.

وردّ لورانس عليه: هكذا! ثم أشاح بوجهه وهو يقول:

ـ بل العكس هو الصحيح... فإذا لم تفعل كما قلت فسأتولى معالجة القضية بنفسي.

وتطلع إليه رئيس المهندسين وقال بجدية:

ـ ماذا تعني؟

ـ سترى! إنني سأنقل المهندس إلى القرية رغماً عنه وأجلده هناك.

عندئذ صرخ رئيس المهندسين الألماني بغيظ وقال:

ـ لن يكون بوسعك أن تفعل ذلك.

فردّ لورانس يقول:

ـ سترى بأم عينيك! سترى ما إذا كنت أجرؤ على القيام بمثل هذا العمل أم لا.

وهنا أدرك رئيس المهندسين أن لورانس كان يعني ما يقول، وانه مصمم على تنفيذ تهديده. فما كـان منـه إلاّ أنه طلب من مهندسه أن يذهب مع لورانس إلى القرية ويقدم اعتذاره لأحمد هناك بصورة علنية.

الفصل الأول

ثورة في بلاد العرب

حدد الأتراك اليوم الأول من شهر تموز عام ١٩١٦ موعداً لتنفيذ حكم الإعدام بدفعة جديـدة مـن المجاهـدين العرب.

فما إن ألقت الشمس خيوط أشعتها الذهبية على ساحة مدينة دمشق الكبـرى، حتـى شـوهد الجنـود الأتـراك يسوقون أمامهم بعض المجاهدين العرب الذين طغت على معالم شهامتهم وبسالتهم مظاهر ثيابهم المهلهلة، حتـى كادت تلك المظاهر أن تقضي على مآثرهم الخالدة.

وفي وسط الساحة، وقف الجلاد الطاغية ينتظر وصولهم لكي ينفذ فيهم حكم الإعدام الواحد بعـد الآخـر بـلا رحمة أو شفقة.

وقد سبق ذلك عملية نصب أعواد المشانق في وسط الساحة، ووضعت الآن عربة خيل عسكرية تحت منـصتها تماماً.

وفي تلك الأيام، كان حكم الإعدام ينفذ بالمحكوم عليهم بمنتهى البساطة والفظاعة. فقد كـان المحكومـة عليـه بالإعدام يؤمر بالصعود إلى العربة والوقوف تحت عود المشنقة تماماً، ومن ثم، كان الجلاد يدفع جبـل المـشنقة بيده في عنقه.

ومتى تم ذلك بادر إلى دفع العربة إلى الوراء تاركاً ذلك الإنسان أمانة لحبل المشنقة الذي كان لا يحسن سـوى بتر الوريد وقبض الأنفاس.

وفي ذلك اليوم المشهود، وقف ثمانية رجال فوق منصة قريبة من المشنقة يشهدون عملية إزهاق أرواح أولئـك المجاهدين البررة. كانوا ثمانية رجال: سبعة منهم من الأتراك بينهم جمال باشا، حـاكم سـوريا يومئـذ، وقائـد السجن، والثامن كان عربياً كما دلت عليه مظاهره.

انه الأمير فيصل يقف برباطة جأش، يقف صامتاً لا يبالي لما راح يطلقه هؤلاء القادة الأتـراك مـن الـشتائم بحق العرب، وكلمات الاستفزاز التي تنال من كرامتهم.

كان أُولئك المحكومون بالإعدام والذين جئ بهم إلى ساحة دمشق الكبرى لملاقات الموت، دفعـة جديـدة مـن السوريين الذين هم أصدقاء للأمير فيصل، وقد اتهمهم الأتراك بالتآمر ضد الإمبراطورية العثمانية.

لقد كان هؤلاء المحكومون من الثوار الذين ناضلوا في سبيل حرية العرب، والمثل العليا التي يؤمنـون بهـا، حتى أن أحدهم كان ابن عم الأمير فيصل بالذات. وقد أعتقله الأتراك بعد أن جاء من أنبأهم باجتماعه سـراً مـع الأمير فيصل قبل بضعة أسابيع.

ورب قائل يقول: كيف يمكن تفسير وجود الأمير فيصل بين الأتراك بينما يحتفظ لنفسه بلقـب أميـر العـرب؟ والحقيقة أن الأمير فيصل كان يأتي مرغماً إلى ساحة الإعدام تحت ضغط جمال باشا وأوامره.

والواقع أن جمال باشا كان يرغم الأمير فيصل على أن يشهد بنفسه عملية تنفيذ أحكام الإعدام، وأن يقـف إلـى جانبه. وغايته من ذلك ثلاثة أهداف:

(١) تثبيط عزائم الثوار العرب ممن عجزت السلطات التركية عن القبض عليهم.

(٢) إيهام المحكومين بالإعدام بأن الأمير فيصل كان صديقاً للأتراك وحليفهم الأكبر.

(٣) إيقاف فيصل وجهاً لوجه أمام المحكومين على مظهره يثير أحد المحكومين بالإعدام فيوجه إليـه في فورة غضبه تهمة كونه الدافع الحقيقي والمحرك الرئيسي والعقل المدبر لحركة الوطنيين العرب فـي سورية فيتخذ جمال باشا من هذا القول ـ إذا حدث ـ ذريعة للقبض على فيصل فيتخلص منه نهائياً.

والذي يبدو أن الأمير فيصل وجميع أعضاء حركة الوطنيين العرب كانوا مدركين غاية جمال باشا مـن إرغام الأمير على حضور تنفيذ أحكام الإعدام بالمجاهدين، ولذا كـان المحكومـون يواجهـون المـوت بشجاعة ورباطة جأش وهم يدركون حقيقة الدور الذي كان فيصل يقوم به سراً دون معرفة الأتراك.

فما كان فيصل يجهش بالبكاء أو يغضب لرؤية إخوانه في الجهاد يموتون على أعواد المـشانق حرصـاً على قضية أعظم وأهم، كما لم يكن المحكومون ينبسون ببنت شفة أو يوجهون اللوم لفيـصل وهـو ماثـل أمامهم كأنه يحصي أنفاسهم وهم يجابهون الموت بكل شجاعة وصلابة.

غير أن فيصل المشهور برسوخ إيمانه، وصلابة عوده، وقوة أعصابه، لم يـستطع أن يكـتم غيظـه أو يسيطر على أعصابه عندما شاهد الجنود الأتراك يسوقون إلى المشنقة صبياً في الثانية عشرة من عمره.

وأشد ما حز في نفسه من الألم والحسرة في تلك الساعة، وإزاء ذلك المشهد المؤلم، أن ذلك الصبي لـم يكن مجرد ابن لصديق من أعز أصدقائه فحسب، بل كان يقوم بواجب وطني مقدس سـاعة قـبض عليـه الأتراك.

فقد كان الصبي في طريقه إلى مكة يحمل رسالة إلى الشريف حسين مـن رئـيس جمعيـة المجاهـدين العرب في سورية.

فلما جئ به في صبيحة ذلك اليوم لتنفيذ حكم الإعدام به كغيره من المجاهدين الكبار، حـاول فيـصل أن يضبط أعصابه.

ولكن عندما علق الصبي على حبل المشنقة وظل يترنح في الهواء لفترة طويلة دون أن يمـوت بـسبب خفة جسمه، ثارت ثائرة فيصل.

ومع ذلك فقد حاول إخفاء مظاهر عصبيته المتعاظمة في نفسه. وأخيراً، لم يعد بوسعه أن يتحمـل أكثـر من ذلك خاصة بعد أن شاهد الصبي يعاني نزاعاً طويلاً مريراً يكفي لأن يثير حتى عديم الشعور.

وبعد أن شاهد جمال باشا وقد تضايق من دول نزاع الصبي وحاول مغادرة ساحة الإعدام لـئلا يفـوت الموعد المضروب لتناول طعام فطوره، التفت إليه فيصل وصاح بوجهه غاضباً:

ـ "إن أعمالكم الوحشية هذه سوف تكلفكم غالياً... وإن العدالة الإلهية قادرة على أن تقتص منكم وتنـزل بكم أقسى العقوبات وأضرمها".

فرد عليه جمال باشا مستغرباً:

"لقد نسيت بأنك مرتد بزة عسكرية تركية وبحت تتفوه بمثل هذا الكلام الذي يقابل بعقوبة الإعدام؟"

ولم يضيع جمال الفرصة فأمر جنوده بإلقاء القبض على فيصل ووضعه في زنزانة انفرادية.

وبقي فيصل مسجوناً بضعة أسابيع دون أن يعلم متى يحين موعد إعدامه أو إطلاق سراحه.

إلاّ أن حكام استانبول ارتأوا بعد مشاورات طويلة بينهم وبين جمال باشا، أن يطلقوا سراح فيصل من السجن وإبقاءه على قيد الحياة. فقد وجدوا أن م الخير لقضيتهم إبقاء فيصل على قيد الحياة وبالتالي إبقاءه في دمشق تحت مراقبة جمال باشا.

والذي لا ريب فيه أن السجن ترك أثراً عميقاً في نفسية فيصل. وقد زاد في تعاسته أن أخبار الحرب كانت مقلقة للغاية.

فقد وردت أخبار مفادها أن الحلفاء قد عدلوا عن تنفيذ خطتهم الرامية إلى إنزال قواتهم على الشاطئ القريب من الاسكندرون مما أدخل الغبطة والبهجة إلى نفوس الأتراك، والتعاسة إلى نفس فيصل.

ذلك لأن عملية الإنزال في الاسكندرون كانت ولا مشاحة ستخلق متاعب جمة بوجه الأتراك، وتفتح ثغرة واسعة يستطيع الإنجليز أن ينطلقوا فيها يحاربون في الأراضي الخاضعة لحكم الأتراك.

أضف إلى ذلك أن القوات البريطانية كانت قد تكبّدت خسائر فادحة في معركة نشبت بالقرب من الدردنيل، وأوشكت أن تستسلم للقوات التركية في منطقة كوت العمارة.

أما في سورية، فقد ضاع كل أمل يراود الأمير فيصل بإمكانية إشعال ثورة وطنية ضد الأتراك، نظراً لأعمال القمع الوحشية التي كان جمال باشا يقوم بها هناك.

في هذه الأثناء وصلت معلومات إلى فيصل مفادها أن الاستعدادات جارية على قدم وساق في الحجاز للقيام بثورة ضد الأتراك.

وأفادت المعلومات الخاصة التي كانت ترد إلى فيصل بأن الشريف حسين كان يجمع رجاله موهماً الأتراك انه يفعل ذلك لشد أزرهم في الحرب المقدسة التي يزمعون القيام بها ضد الأجانب، بينما كان في الواقع يجمعهم لإضرام نار الثورة ضد الأتراك بالذات.

غير أن فيصل لم يكن يؤمن بنجاح مثل هذه الثورة التي تشتعل من الحجاز بينما يجد نفسه أسيراً في دمشق بيد الأتراك، وبينما يرى الأتراك يحصدون رؤوس رجالات العرب بتعليقهم على أعواد المشانق.

ومن هنا بات الأمير فيصل يخشى من النتائج الوخيمة التي ستنجم عن إعلان الثورة في الحجاز، لأن ذلك يعني بكل بساطة القضاء عليه وعلى البقية الباقية من أُولئك المجاهدين العرب الذين لم يتمكن الأتراك من القضاء عليهم بعد.

والحل الوحيد الذي تراءى له فيما كان يراقب مجرى الأحداث العارمة هو أن يلوذ بالفرار إلى المدينة المنورة مدخلاً في روع جمال باشا أنه ذاهب لتفقد أوضاع القوات العربية هناك قبل مغادرتها أراضي الحجاز لمساندة القوات التركية في هجومها على مصر.

غير أن جمال - وكأنه أدرك الحيلة التي لجأ إليها فيصل - رفض أن يسمح له بالذهاب إلى الحجاز، ولم يرض بذلك إلاّ إذا رافقه أنور باشا، القائد العام للقوات التركية، إلى هناك.

وقبل فيصل بذلك لئلا تنكشف خطته للأتراك.

وفي الطريق، فكر أفراد حاشية الأمير فيصل بالقضاء على جمال باشا وصديقه أنـور باشـا، ومتابعـة سفرهم إلى الحجاز رافعين بأيديهم علم الثورة العربية.

غير أن التقاليد العربية منعت فيصل من الموافقة على الخطة التي اعتزم موافقوه تنفيـذها ضـد جمـال باشا ورفيقه أنور باشا التركي.

ورد على رجاله قائلاً: ليس من شيم العرب أن يقتلوا أناساً يعتبرون ضيوفهم الآن!"

وعبثاً ذهبت محاولات الرجال إقناع فيصل الموافقة على قتلهما حتى يخلصوا العـرب مـن شـرورهما وطغيانهما.

وظل الأمير فيصل متمسكا برأيه رغم كل المصائب التي أنزلها هذان الرجلان بالمجاهدين العرب فـي سورية حتى أنه رفض العمل بخطة سلمية كانت تقضي فقط بإعادة ذينك التركيين إلى دمشق برفقة بعـض الخدم العرب.

وبعد أن رجع فيصل من دمشق، وجد العديد من رجالات العرب يوجهون له اللـوم للمعارضـة التـي أبداها ضد تنفيذ خطة قتل جمال باشا، ووجد بالتالي أن جمال باشا لم يكن راضياً عما شاهده فـي الحجـاز من الاحتجاجات ضد الأعمال التعسفية التي كان الأتراك يمارسونها بحق العرب.

إلاّ أن الأتراك راحوا الآن يردون على احتجاجات العرب بتدابير عملية من شأنها أن تعزز موقفهم فـي الحجاز، فقد عززوا حاميتهم في المدينة المنورة وعينوا لها قائداً جديداً، هو فخري باشا.

وعلى الرغم من كل ذلك، لم يفكر فيصل بقطع اتصالاته مع والده في مكة المكرمة. بل انه ظل مثـابراً على اتصاله به ولكنه كان دائماً ينصحه بالتروي والتزام جانب الحيطة والحذر بينما كان الـشريف حـسين يرد عليه بقوله بأنه ليس بوسعه أن يتريث أكثر مما فعل.

وتشاء الصدف أن تصل رسالة إلى فيصل من والده في ذات اليوم الذي شهد فيه تنفيذ حكم الإعدام بـابن عم له في دمشق.

وقد قال الشريف فيها أن صبره قد نفذ ولم يعد بوسعه الانتظار أكثر مما انتظر.

وأخبره كذلك بأنه سيعلن الثورة العربية من مكة بعد مرور أربعة أيام من وصول رسالته إليـه. وحثـه فيها كذلك على الهرب من دمشق والتوجه إلى الحجاز بمنتهى السرعة، والانضمام إلـى أفـراد أسـرته هناك.

وختم الشريف حسين رسالته بقوله: سنصبح أحراراً عما قريب بإذن الله. من هنا أدرك فيـصل أن والـده بات مصمماً على إشعال الثورة وألا فائدة ترجى من نصحه بعد الآن. ولأنا أظن أن الـشريف حـسين أراد أن. يذكر فيصل بأن ساعة العمل الثور قد دقت فما عليه إلاّ أن يلبى نداءها.

وهكذا غادر فيصل مدينة دمشق بعد أن أخذ الخوف سبيله إلى قلبه مما قد يلاقيه إذا تأخر فـي الهـرب إلى الحجاز. وبالفعل غادر فيصل مدينة دمشق بمرافقة عدد كبير من أصدقائه وخدمه.

وفي مكان ما من الصحراء اجتمع فيصل بالأمير نوري الشعلان وهو شيخ قبيلة عرب الرولى، فتحادثـا حول موضوع الثورة. ثم تابع طريقه إلى الحجاز بعد أن انضم إليه عدد كبير مـن أفـراد قبيلـة نـوري الشعلان الذين واكبوا رجاله حاملين علم الثورة العربية الملطخ بالدم الأحمر القاني.

وكلّما كان فيصل يقترب من أراضي الحجاز كان الأمل يتعاظم في نفسه بحتمية انتصار الثورة العربيـة. لقد قال القدر كلمته وما عليه إلاّ الانصياع لمشيئته. لقد عاد فيصل إلى الحجاز ليجدد العهد بالعمـل فـي سبيل نصرة قضية العرب وتحقيق أمانيهم بالاستقلال والحرية، وتطهير أراضيهم من الأتراك المستبدين.

الفصل الثاني

عالم آثار يتحول إلى محارب

كان للملاحظات التي أبداها اللورد كيتشنر في حديثه عن الحرب، أثرها في نفسية لورانس، فقـد حملتـه علـى الاعتقاد بضرورة وقوع اصطدام ما في المستقبل القريب. وعليه، فقد حاول ان يستبق الوحدات عندما توجه إلـى مكتب التجنيد طالباً قبوله كجندي في فرقة اللورد كيتشنر.

وكم كانت دهشة أعضاء اللجنة الطبية العسكرية الفاحصة عندما شاهدوا ذلك الشاب النحيل الجـسم، القـصير القامة، يدخل مكتب التجنيد ويطلب الانخراط في سلك الجندية، ومظاهره أبعد ما تكون عن متطلبات الجندية.

وحاول أحدهم أن يداعبه فخاطبه بقوله: "الآن، عد إلى أحضان والدتك وانتظر ريثما تقع الحرب القادمـة، ثـم تقدّم إلى التطوع في الجيش".

ترى، ماذا كان سيقول أعضاء تلك اللجنة لو أن أحدا أنبأهم يومئذ عن المستقبل العظيم الذي كان ينتظـر ذلـك الشاب النحيل الذي تهكموا عليه حينما جاء يطلب التطوع في الجيش؟.

أجل، ماذا كانوا سيقولون لو أن إنسانا ما تنبأ لهم بأن هذا الشاب سيدخل بعد ثلاث سنوات مدينة دمشق دخـول الفاتحين على رأس فرقة من الجيش العربي.

وماذا كانوا سيقولون لو أن أحداً قال لهم حينذاك بأن ذلك الشاب النحيل سيرفض أرفع وسام في الإمبراطوريـة البريطانية، وسيرفض بالتالي ترقيته إلى رتبة لواء في الجيش.؟

وعلى أية حال، فقد عاد لورانس إلى عمله ينقب عن الآثار ويدقق في المخطوطات الأثرية التي توصـل إلـى اكتشافها بغية الوقوف منها على أسرار الحضارات القديمة التي ازدهرت منذ آلاف السنين ثم انقرضت.

ولم تكد أخبار الاكتشافات الرائعة التي حققها لورانس ولفيف من زملائه العلماء مثال مارك سايكس ولو بـري هوبرت وكورنواليس ونيوكوميس، في ميدان الآثار القديمة، تصل إلى مسامع السر جيلبرت كلايتون، حتى بـادر هذا الأخير لاستدعائه إلى مقر القيادة العليا للجيوش البريطانية في القاهرة.

والجدير بالذكر أن لورانس كان بالرغم من حداثة سنه واضح الإلمام بأحوال العديد من بلدان الشرق الأوسـط، وبنوع خاص: تركيا وسورية وفلسطين والعربية السعودية والعراق وإيران.

كذلك كان يعرف الكثير عن حياة أهل البادية والحضر على السواء، فقد أمضى فترة طويلة في مشاركة رجـال القبائل حياتهم القاسية، وفي مشاركة سكان المدن حياتهم البسيطة الوادعة المترفة.

ومن هنا كان تمرسه في شتى ألوان الحياة وضروبها، وتكوّنت لديه معلومات كثيرة عن العديـد مـن منـاطق الشرق الأوسط. وتجدر الملاحظة إلى أن لورانس كان قد عاش مدداً متفاوتة في كل من حلب والموصل وبغـداد ودمشق والقدس.

وفضلاً عن ذلك كان يتقن بعض اللغات واللهجات المحلية، ناهيك عن المعلومات التي تجمعت لديه فيما يتعلـق بتقاليد مجتمعات المنطقة وتطوراتها التاريخية.

وعين لورانس، بادئ ذي بدء، في دائرة الخرائط التابعة لرئاسة القوات البريطانية في الشرق الأوسط.

وهناك كان ضباط القيادة يقضون الساعات الطويلة وهم يدققون في خرائط ناقصة، سواء كـان الـنقص مـن حيث الدقة أو الإتقان أو المعلومات، بغية التعرف على مواقع القوات التركية.

ولا ينسى أولئك الضباط مهما طال نقاشهم حول المعلومات الموجودة في الخرائط، أن يهرعوا إلـى لـورانس للوقوف على رأيه وأخذ مشورته بشأن أية خطة يريدون الاتفاق عليها.

وكان لورانس بدوره لا يتردد أبداً في اطلاع أولئك الضباط على رأيه في الخطة التي يجب عليهم اتخاذها.

بيد أن رأيه غالباً ما كان مزيجاً من المديح والتقريظ الناعم اللطيف يوجهه إلـى الـضباط. والـذي يبـدو أن لورانس مثل ذلك السبيل في رده نظراً لاتخاذ ضباط القيـادة خططهـم دون التـدقيق فـي جميـع الملابـسات والظروف والأحوال اللازمة لتنفيذ مثل تلك الخطة بنجاح.

ونسوق على سبيل المثال أن القيادة اتخذت خطة ذات مرة وكان من المحال تنفيذها بنجاح نظراً لوجود الهـدف المقصود في الخطة داخل منطقة يصعب الوصول إليها بسبب افتقارها إلى الطرق الصالحة لـسير الـسيارات أو العربات، فضلاً عن بعدها، ولما كان يتطلب تنفيذها من الجهد والعمل والأرواح.

والجدير بالذكر أن لورانس تعرف على جميع المواقع الاستراتيجية التي كانت موجودة في المنطقـة بأسـرها. وكيف لا، وهو الذي تجول في جميع أرجاء المنطقة سيراً على الأقدام. يـشاهد مواقعهـا، ويـدرس، ويـدقق، ويبحث.

كذلك كان يعرف مواقع جميع الحصون التي شيدتها جيوش الغزاة الذين قاموا بغزواتهم على منطقـة الـشرق الأوسط، ونخص بالذكر منهم الآشوريين واليونان والرومان والصليبيين.

وهكذا استطاع لورانس أن يحيط شخصيته بهالة من التقدير والاحترام بين ضباط قيـادة الجيـوش البريطانيـة، وكذلك استطاع بالرغم من الفترة القصيرة على وجوده في مقر القيادة، أن ينتزع إعجاب جميـع الـضباط بـه، ويفرض عليهم تقدير أفكاره واحترامها.

وعلاوة على ذلك، استطاع لورانس أن يدخل الرعب في قلوب القادة العسكريين الأتراك وذلـك نظـراً لكونـه أكثر منهم معرفة ودراية، وأعلى كعباً بالنسبة إلى المناطق التركية النائية في الداخل.

ولا غرابة في ذلك إذ أن لورانس أصبح مرجعاً للمعلومات الدقيقة عن منطقـة الـشرق الأوسـط، وطبيعـة تكوينها، ومعالمها الطوبرغرافية.

هذا، وقد نقل لورانس، بعد فترة وجيزة، من قسم الخرائط إلى دائرة المخابرات الـسرية التـي كـان عملهـا ينحصر في المناطق التي يحتلها الأتراك.

فكان على لورانس بصفته رئيساً لأحد فروع تلك الدائرة أن يطلع القائد العام على كافة التحركات التـي كانـت الجيوش التركية تقوم بها من حين لآخر. ومما يدل على وعي لورانس لمسؤولياته الجديدة أنه سـعى لاسـتخدام عدد من الشبان المحليين في دائرته.

وذلك نظراً للتسهيلات المتوفرة لهم في التوغل إلى ما وراء المناطق المحتلة والخروج منها بعـد حـصولهم على كافة المعلومات المطلوبة.

وشهد صيف عام ١٩١٥ إعلان عرب الحجاز للثورة ضد الأتراك. والآن لنتوقف لحظة لنـدقق فـي الـدوافع التي أهابت بالعرب إلى إعلان الثورة، ونتأمل في المشاكل المعقدة المتشابكة والحساسة، تلك المشاكل التي توقـع لورانس أن يجابهها فور وصوله قلب الجزيرة العربية، ودراسة أسباب الانتصارات الخاطفة التي حققها العـرب فور إعلان الثورة، والمخاطر التي كانت تحيق تلك الثورة وهددتها بالانهيار في أية لحظة.

ولكي نعرف كل ذلك، ينبغي علينا أولاً إلقاء لمحة خاطفة على تاريخ البلاد العربية.

يذكر التاريخ أن بلاد العرب كانت موطن آدم وحواء... وبلاد ملكة سبأ... ومسرحاً لأبطال "ألف ليلة وليلة".

وكان الشعب الذي عاش فيها ينعم بحياة مفعمة بالحب والأمل والازدهار اكثر من أي شعب سواه من الشعوب القديمة.

حدث كل ذلك قبل أن يبني خوفو، فرعون مصر، هرمه الأكبر بقرون عديدة. وإن علماء الآثار الذين جـازفوا بحياتهم وهم يستكشفون أسرار الحياة التي كانت سائدة في الجزيرة العربية، قد توصّلوا إلـى اكتـشاف أن عـدة حضارات ومدن وممالك، نشأت وازدهرت، ثم ما لبثت أن انقرضت.

أجل ان عدة حضارات وممالك قامت في هذه المنطقة النائية من العالم، وذلك قبل أن يكون توت عنخ آمون قـد أسس مملكته بعد.

كما تم اكتشاف واقع أن حمورابي قد وضع دستوره في زاوية من زوايا البلاد العربية، وذلك قبـل أن يبـصر بوذا النور على ضفاف نهر الكنج، ويلقن حكمته للبوذيين، وقبل أن يرسي كونفوشيوس قواعد حكمته الذهبية.

ومما يجدر معرفته أن شبه الجزيرة العربية أكبر مساحة من بريطانيا وسكوتلندا وايرلنـدا وهولنـدا وبلجيكـا وفرنسا واسبانيا، مجتمعة. وان اليونان والرومان أقاموا فيما بينهم وبين سـكان الجزيـرة العربيـة، معـاملات تجارية، وخاضوا المعارك على أراضيها.

وعلى الرغم من اعتقاد بعض العلماء بأن هذه المنطقة شهدت ولادة الإنسان الأول، فانه لا يمكننا تأكيد ذلك ما دامت خريطة المريخ بكل ما فيها من معلومات مغلوطة ونظرية، تكاد تكون أوضح بكثير من الخرائط المتـوفرة عن شبه الجزيرة العربية، وبنوع خاص، المواقع الداخلية فيها.

وأعني بتلك المواقع الأماكن التي شهدت ولادة معظم الرجال البواسل الذين حاربوا في صفوف لـورانس، بـل انهم كانوا يشكلون الجيش الوحيد الذي حقق له انتصاراته.

والمسافة الممتدة بين مدينة حلب السورية ومكة المكرمة في الجزيرة العربية تعادل المسافة التـي بـين لنـدن وروما.

ومع ذلك، فقد استطاع أولئك المحاربون العرب الصناديد ولورانس أن يقطعوا كل تلك المسافة من مكـة إلـى حلب، على ظهور الجمال.

هذا، ويقسم السكان في الجزيرة العربية منذ القديم، إلى قسمين، هما: سكان القرى والمدن، ويقال لهم الحـضر، وسكان الخيام، أي البدو الرحل.

ويطلق على كلا القسمين، اسم العرب. أما البدو منهم فلا يعرفون شيئاً عن أساليب الزراعة، ولكنهم هم الـذين ناضلوا في سبيل حرية العرب وحافظوا على مثلهم العليا وتراثهم الخالد.

والاعتقاد السائد هو أن كلمة عرب مشتقة من كلمة، عربة، أو البلاد العربية. وهي منطقـة تقـع فـي القـسم الشمالي من الحجاز. كذلك يعتقد بأنها دعيت بذلك الاسم تيمناً بشخص يعرب بن غطفان بن عبس بن شـالح بـن ارفخشاد بن سام بن نوح، ويذكر المؤرخون أن نوحاً كان أول من نطق بالعربية "لغة الملائكة".

والعرب شعب ينحدر من أصل سامي. والعالم مدين كثيراً للعرب، إذ حققوا ثبات جبـارة فـي شـتى العلـوم والفنون. ففي الفترة التي كان فيها الجراحون الأوروبيون يلجأون إلـى التعاويـذ والرقـى للتخفيـف مـن آلام المرضى كان الأطباء العرب يستعملون العقاقير المخدرة في عملياتهم الجراحية.

أما في حقل الكيمياء فقد توصل العرب إلى اكتشاف الكحول والبوتاس والنيترات والزئبق وحـامض الكبريـت والنتريك. كما أنهم قاموا باختبارات عملية في حقل الزراعة، وابتكـروا وسـائل الـري، واسـتعملوا الأسـمدة الكيماوية، وطبقوا أساليب تطعيم النباتات والزهور.

كذلك اشتهروا ببعض الفنون الأخرى كدباغة الجلود وصبغ الأقمشة وصناعة الزجاج والخزف والمنـسوجات والورق والنقش على الذهب والفضة والنحاس والبرونز فضلاً عن صناعة الحديد والفولاذ.

هذا، وتعتبر اليمن، باستثناء بلاد ما بين النهرين، أغنى منطقة في شبه الجزيرة العربية.

فمنذ آلاف السنين، اشتهرت اليمن بمناخها الجميل، وأراضيها الخصبة، ومحاصيلها الزراعية الجيـدة، وبنـوع خاص، البن.

ويروي لنا الجغرافي اليوناني المشهور، سترابو، أن الاسكندر الكبير كان قد وضع مخططاً لعاصمة جديدة لـه ينشئها في اليمن فور عودته إليها من الهند.

والاعتقاد السائد بين نفر كبير من العلماء هو أن هذه المنطقة الغنية كانت مـوطن الإنـسان الأول، وشـهدت العديد من الممالك والحضارات التي ترعرعت فيها وازدهرت قبل المسيح بألف سنة.

والشيء الوحيد المهم الذي يؤسف له حقاً هو أن محاولات كثيرة قد جرت لتوحيـد شـعوب شـبه الجزيـرة العربية، وخاصة شعب الحجاز، وذلك منذ سقوط الإمبراطورية العربية، وحتى أوائل القـرن العـشرين، عنـدما اندلعت نار الحرب العالمية الأولى.

ولكن جميع تلك المحاولات ذهبت أدراج الرياح. والغرابة كل الغرابة أن ينجح لورانس حيث فشل جميـع مـن سبقوه إلى ذلك، بيد أن سر نجاح لورانس يكمن في أن أهدافه كانت تلتقي وأهداف العرب حتى تعاونوا معـاً فـي المعارك التي خاضوها ضد الأتراك، تلك المعارك التي شدت أزر الجيوش التي قادها الجنرال النبـي، فاسـتطاع أن يقوض دعائم الإمبراطورية العثمانية وأن يقضي على حلم الألمان بالسيطرة على العالم.

الفصل الثالث

رحلات سرية

كانت أراضي الإمبراطورية العثمانية، في صيف عام ١٩١٤، تمتد من منطقة القوقاز إلى شبه جزيرة العـرب جنوباً، بحيث تشكل درعاً هائلاً يفصل بين منطقتي البحر الأبيض المتوسط والهند.

هذا، وعلى الرغم من توالي السلاطين الضعفاء على عرش الدولة العثمانية، والحروب المتواصلة التي نـشبت بينها وبين إيطاليا وألبانيا وبلغاريا وغيرها من الدول، فقد استطاعت أن تحتفظ بمركزها بـين الـدول الإمبرياليـة العظمى كواحدة منها.

وفي ذلك الحين، كان السلطان العثماني يبسط حكمه ونفوذه على مكة المكرمة والقدس، وينـسب إلـى نفـسه خلافة النبي محمد (صلعم).

وكذلك، كان جيشه يعتبر من أقوى جيوش العالم بطشاً وبأساً وشجاعة. ومن هنا كان شعور بريطانيـا بـالخطر يهدد خطوط مواصلاتها إلى الهند، عندما أعلنت تركيا دخولها الحرب العالمية الأولى إلى جانب ألمانيا.

ويومئذ، كانت مصر لا تزال مستعمرة بريطانية، ويعتبرها الإنجليز القلعة أو القاعـدة القويـة التـي يمكـنهم الصمود فيها بوجه الأتراك إذا ما اندلعت نار الحرب يوماً بين بريطانيا وتركيا.

في تلك الأثناء، كان لورانس يعمل في قلم الاستخبارات البريطانية كضابط بسيط. غير أن خبرته بالبلدان التـي يحكمها الأتراك كانت واسعة جداً وذلك بفضل جولاته وتنقلاته الكثيرة فيها.

إلاّ أن خبرته هذه كانت ناقصة في النواحي العسكرية أكثر مما كانت عليه بالنسبة إلـى الـشؤون الـسرية. ولا عجب في ذلك، فقد كان مفطوراً على التكتم وحفظ الأسرار. والمعلوم أن لضباط قلم الاستخبارات حياة خاصـة يتمسكون بها، ولا يحيدون عنها قيد أنملة.

أضف إلى ذلك أنهم يعتبرون أنفسهم أرفع مستوى من الضباط العادين في الجيش. بـل ويعتبـرونهم أغبيـاء، توصلوا إلى هذه المراكز إما بالوراثة وإما بفضل سلالتهم الأرستقراطية.

من هنا كان ينظر لورانس إلى أمثال هؤلاء الضباط نظرة استخفاف وازدراء. فقلما كان يكترث لهـم أو يلقـي لهم بالتحية العسكرية لمن هو أرفع منه رتبة.

ومما يذكر أن لورانس كان لا يرتدي إلاّ ما يروق له من الملابس المدنية.

وكان لورانس بدافع من طموحه الشديد يتصور بأنه سوف يرقى إلى رتبة جنرال في الجيش، ويحـصل علـى أرفع وسام فيه ـ وسام الفروسية ـ قبل أن يبلغ الثلاثين من عمره.

والواقع أن لورانس كان واسع الخبرة في رسم الخرائط وتفسير رموزها، ويعرف الكثير عن أوضـاع الجـيش التركي، وقدر الولاء الذي يكنه السوريون والفلسطينيون للأتراك.

ومن جهة ثانية كان عديم الاكتراث بالقوانين العسكرية إلى حد أنـه لـم يكـن يحـسب أي حـساب للمحـاكم العسكرية المعروفة بشدة محافظتها على الروح العسكرية وتطبيق أنظمتها، وكيف يخشى ذلك ما دام له أصـدقاء

بارزون من طراز الدكتور هو غارث وولي غيرهما من الضباط الكبار في قلم الاستخبارات، ولويد جورج الذي اصبح فيما بعد نائباً للملك في الهند.

وأدهش من ذلك أن لورانس اكتسب لقب "فارس" أسوة بأصدقائه الكبار في الجيش على الرغم من استخفافه بالنظم العسكرية.

هذا ولم تنقض ثلاثة أشهر على وصول لورانس إلى القاهرة، حتى وضع خطة "لاحتلال سوريا بمساعدة الشريف حسين، شريف مكة المكرمة..." وكانت كفيلة لأن تضمن للقوات البريطانية سلامة الزحف على دمشق بسرعة خاطفة قبل أن يسقهم الفرنسيون إلى احتلالها".

وقد ذكر في رسالة بعث بها إلى الدكتور هو غارث تفاصيل تلك الخطة، وعبر فيها عن مخاوفه من أطماع فرنسا في الشرق الأوسط.

ثم قال: "إنني أرى أن فرنسا، لا تركيا، هي عدوتنا فيما يتعلق بسوريا. " وفي شباط من عام ١٩١٥، أنجز خطة وضعها لمساندة الثورة العربية.

وفيما كان لورانس يخطط لكل ذلك، تلقى أمراً فجائياً بالاستعداد للسفر من القاهرة إلى بلاد ما بين النهرين لإعداد بعض الخرائط ووضعها بالاستناد إلى بعض الصور التي التقطتها الطائرات من الجو.

ومعلوم أن لورانس كان خبيراً بهذا الفن. وقبل أن يغادر القاهرة، اجتمع إلى الكولونيل كلايتون، رئيس قلم الاستخبارات، فزوده هذا بالإرشادات والتعليمات اللازمة بغية البحث فيما إذا كان بالإمكان إشعال ثورة عربية في العراق ضد الأتراك. والواقع أن لورانس كان يهيئ نفسه لهذه المهمة عندما كان يتحدث في القاهرة طيلة إقامته هناك عن الثورة العربية والثوار العرب وذلك دون تمييز لهذا العربي سواء أكان يعيش في ليبيا أم في سوريا أم في الجزيرة العربية.

ولا مندوحة من القول أن كلايتون وافق على إيفاد لورانس في بعثة سرية إلى العراق يقيناً منه بأن هذه الرحلة ستكبح قليلاً جماح مشاعره الحماسية نحو إشعال ثورة عربية، ذلك لأن كلايتون لم يكن مقتنعاً بإمكانية استمالة العرب للانضمام إلى صفوف القوات البريطانية.

ولكن بعد الهزيمة النكراء التي لحقت بالإنجليز في العراق، أخذ كلايتون يفكر بمحاولة إشعال ثورة عربية هناك علها تصحح الأوضاع وتعيد الأمور إلى مجراها السابق وتطمس معالم تلك الهزيمة.

وهكذا غادر لورانس القاهرة في الواحد والعشرين من آذار من عام ١٩١٦ متوجهاً منها إلى مدينة البصرة التي تقع في أقصى نقطة من الخليج العربي.

وهناك التقى ببعض أصدقائه القدامى ممن تعاون معهم فيما سلف، أيام أعمال التنقيب عن الآثار في كركميش. كما التقى هناك بالآنسة جروترود بل، التي كانت تعمل مستشارة سياسية للسير بيرسي كوكس، رئيس المكتب السياسي في الشرق، بصورة غير رسمية.

هذا، وقد قضى لورانس برفقة الآنسة جروتورد، يوماً كاملاً وبعض الليل، يصغي إلى حديثها وهي تشرح له خطتها الرامية إلى تشكيل حكومة تضم في أعضائها ممثلين عن جميع بلدان الشرق الأوسط.

وبقي لورانس مدة ثلاثة أيام في البصرة، ثم غادرها بطريق البحر لمتابعة القيام بمهمته، بعد أن اصطحب معـه الآن شلة من الجنود الذين اشتركوا في المعركة التي دارت رحاها بالقرب من ضفاف نهر دجلة.

وقد وصفهم لورانس بقوله: "انهم شبان معممون بالأمل والبهجة والسرور.. جاءوا إلى هنا كي يقدموا أنفـسهم قرابين لتغذية نار الحرب المستعمرة، ليس لمجرد الانتصار في الحرب وإنما للاستيلاء على منتوجـات العـراق من النفط والأرز والذرة."

والجدير بالذكر أن الإنجليز تكبدوا خسائر فادحة في جميع المعارك التي خاضوها ضد الأتراك.

وأصبحت قواتهم في وضع يرثى له، ناهيك عن أن بعض قواتهم كانت محاصرة في كـوت العمـارة، وكـان قائدها الجنرال تاونسند لا يتردد في إرسال إشارات النجدة والاستغاثة، الواحدة تلو الأخرى.

ومما كان يزيد في وضعها سوءاً أن جميع ذخيرتها ومؤنها قد نفدت، وكاد المرض يقضي على من تبقى فـي قيد الحياة من الضباط والجنود.

والواقع أن بعض الفرق العسكرية البريطانية حاولت أن تشق لنفسها ثغرة تنطلق منها إلى المنطقة المحاصـرة، ولكنها عبثاً كانت تحاول. وأدهى من ذلك أنه لم تكن هناك أية وسيلة يمكن بها نقل بعض المؤن والـذخيرة إلـى تلك القوات.

حتى أنه لم تكن هناك طائرات كافية لتقوم بذلك. من هنا ساد الاعتقـاد بـأن مركـز الإنجليـز سـينهار إلـى الحضيض في العراق إذا تمكن الأتراك من احتلال كوت العمارة وطرد الإنجليز منها.

ونحن لا نعرف إلاّ القليل عن الرحلة التي قام بها لورانس إلى العراق وكل ما نعرفـه لا يعـدو أن لـورانس داهمته الحمى، وتذمر من كثرة الذباب، وقام بزيارة مقر قيادة القوات البريطانية في العراق حيث نوه عن قرفـه من كل ما رآه في القسم الخاص برسم الخرائط، واحتج بشدة على الخطط التي كانت تنفذ في الحرب.

واتفق ان التقى لورانس في التاسع عشر من نيسان بالكابتن أوبري هربرت، وهو محارب قـديم سـبق لـه أن خاض عدة معارك حربية في عدة مناطق، وكان يرأس بعثة للتحقيق في أوضاع العراق.

وفضلاً عن كونه رئيساً لهذه البعثة فقد كان عضواً بارزاً في مجلس العموم، ولغوياً مـشهوراً، إذ كـان ملمـاً بالتركية والألبانية والفرنسية والإيطالية والألمانية.

والذي يبدو أن لقاء لورانس وهربرت تمخض عن نتائج حسنة. إذ حدث هذا اللقاء فـي الوقـت الـذي كانـت حامية كوت العمارة البريطانية مهددة بالهزيمة والاستسلام للقوات التركية.

وفي تلك الأثناء لجأت الحكومة البريطانية إلى محاولة أخيرة لإنقاذ الموقف هناك، فعرضت على قائد القـوات التركية خليل باشا الدخول في مفاوضات، عرضت فيها مبدئياً أن تدفع مبلغ مليـون جنيـه إسـترليني مقابـل أن يرضى الأتراك بفك الحصار عن قواتها المحاصرة في كوت العمارة، وعدم التعرض لها طيلة الحرب.

ووافقت أيضاً على تسليم جميع الأسلحة والذخيرة الموجودة مع هذه القوات، وإجراء تبادل بين الأسرى. غيـر أن المفاوضات فشلت بسبب عدم موافقة الأتراك على شروط الاستسلام مع العلم بأن الإنجليز رفعوا قيمة المبلـغ الذي عرضوه سابقاً إلى مليوني جنيه.

ثم ارتأت الحكومة البريطانية أن توفد بعض ضباطها إلى ما وراء حدود الأتراك بغية التشاور بـشأن الـشروط شخصياً مع قائد القوات التركية.

فاختارت من بين الذين اختارتهم الكاتب اوبري هربرت لما عرف عنه من دبلوماسية ولإتقانه اللغـة التركيـة، على أن يرافقه الكولونيل بيتش، وهو ضابط بارز في قسم الاستعلامات التابع للفرقـة التـي يقودهـا الجنـرال تاونسند، ولورانس الذي كان يحسن التحدث بالفرنسية ويلم بالتركية.

وكيما كان، فان اللغة الفرنسية كانت آنذاك لغة شائعة الاستعمال في الدبلوماسية في بلاد مـا بـين النهـرين. وكان على هؤلاء الثلاثة أن يعبروا الحدود إلى المناطق التركية حاملين بأيديهم راية السلام.

وهكذا توجه الضباط الثلاثة في ظهيرة اليوم التاسع والعشرين من شهر نيسان إلى ما وراء خطوط النـار فـي كوت العمارة.

وقطعوا مسافة طويلة قبل أن يدركهم بعض الضباط الأتراك ويستوقفوهم للتحقيق معهم في أسـباب وجـودهم هناك.

فأوضح الكابتن هربرت أنه يحمل رسالة خاصة إلى الفريق خليل باشا ويود أن يسلمها له شخصياً.

غير أن الأتراك لم يقتنعوا بذلك فأمروهم بأن يسمحوا لهم بمتابعة سيرهم ومرافقهم إلى مركز قيادته. عندئـذ، تقدّم نحوهم أحد الضباط وعصب أعينهم كيلا يشاهدوا شيئاً أثناء الطريق.

ثم قادوهم بين الخنادق حيث كانوا لا يسمعون غير قعقعة السلاح، حتى إذا تخطوا هذه المنطقـة سـمحوا لهـم بالركوب على ظهور الجياد، ولكنهم ظلوا معصوبي الأعين.

وهنا تعرض لورانس لحادث سبب له بعض الجروح في ركبتيه لم يستطع بعده، أو أنه كان لا يرغـب، متابعـة رحلته على ظهر الجواد.

وعلى كل فقد سمح له الأتراك بأن يلحق بهم مشياً على الاقدام، وكان آخر من وصل إلى مقـر قيـادة خليـل باشا.

ولابد هنا من إعطاء لمحة قصيرة عن خليل باشا. كان هذا في الخامسة والثلاثين من عمره. وقـد وقـع عليـه الاختيار مؤخراً كي يملأ هذا المركز الذي شغر بوفاة الفيلد مارشال فريهر فون درغولنز، وهـو ألمـاني، فـي بغداد، على أثر إصابته بوباء التيفوس.

وكان قد قابل الكابتن أو بري عدة مرات في الحفلات الرافضة التي كانت السفارة البريطانية تحييها في مدينـة القسطنطينية. ومع ذلك، لم يكن هربرت يأمل في الوصول معه إلى شروط معقولة.

ونعود الآن إلى حديثنا عن ذلك الاجتماع. كانت المفاوضات تدور باللغة الفرنسية. وكان الجنرال خليـل يبـدي احترامه لمفاوضيه طيلة فترة المفاوضات، ويحاول جهده أن يكتم غيظه في نفسه كلما برزت في ذهنـه صـورة الجنرال تاونسند، وهو قائد القوات المحاصرة في كوت العمارة لعلمه بأنه كان يأمر رجالـه بتحطـيم أسـلحتهم ونسف مستودعات الاسلحة والذخيرة والمنشآت والمواصلات اللاسلكية، لا لشئ إلاّ لحرمان الأتراك منها.

ثم دار البحث حول تبادل الاسرى ومصير المرتزقة من العرب الذين كانوا يحـاربون إلـى جانـب القـوات البريطانية ضد الأتراك.

ورد الجنرال خليل على السؤال الاخير بقوله أنه لا يبالي كثيراً بموضوع المرتزقة المصير الـذي سـيؤولون إليه.

ولم يكتم عنهم أنه كان قد نفذ حكم الاعدام بتسعة منهم. ثم حاول أن يخفف من وطأة هذا الخبـر علـى قلـوب مفاوضيه بقوله انه كان يوفر لجرحاهم ومرضاهم العناية الطبية اللازمة.

ولا مندوحة عن القول أن المفاوضات ظلت تدور بين الضباط الإنجليز والفريق خليل، على غير طائـل، فـي حين كان الجنرال تاونستند في كوت العمارة يقوم بالاستعدادات اللازمة لتنفيذ عملية الاستـسلام حالمـا يتفـق عليها.

وأخيراً أعلن خليل باشا بلباقة فض الاجتماع وطلب من ضيوفه أن ينتقلوا إلـى خيمـة ثانيـة لتنـاول بعـض الطعام.

وبعدئذ طلب هربرت أن يسمح له ولرفاقه بالعودة إلى كوت العمارة فجاء جواب الأتراك بالنفي قـائلين لـه أن الجنرال تاونسند قد استسلم بلا قيد ولا شرط.

وكانت أنباء استسلام الحامية البريطانية في كوت العمارة مصدر ذعر وقلق في أوساط الرأي العام البريطـاني الذي شن على الجنرال تاونسند، إلى الاستسلام. فقد كان الرأي العام البريطاني يتوقع منه أن يحارب إلـى آخـر جندي من جنوده.

في تلك الأثناء، كان اللورد كيتشنر أول من رفع عقيرته بالدفاع عن الجنرال تاونسند، ليس في أوسـاط الـرأي العام البريطاني فحسب، بل كذلك في قاعة مجلس اللوردات.

ولا عجب في ذلك طالما أن كيتشنر كان جندياً، وجندياً جرب أكثر من غيره المآسي والـويلات التـي تـسببها الحروب.

أما رأي لورانس في الموضوع، فقد كان يختلف. والواقع أن لورانس كان يتمتع بحرية مطلقة في إبداء الـرأي الذي يؤمن به. وهكذا، فانه تطرق إلى الموضوع من زاوية أكثر شمولاً فكـان ينحـي باللائمـة علـى جميـع جنرالات الجيش بدون استثناء ويصفهم كأشخاص يفتقرون إلى الكفاءة والـشجاعة، والخبـرة، وإلا لمـا كـانوا يتعرضون للهزيمة تلو الهزيمة، ويعرضون قواتهم لنكسات هي في غنى عنها.

والواقع أن لورانس أخذ الآن ينتقد جميع الخطط التي كانت الحرب تجري بموجبها في الشرق الأوسـط. لأنـه كان يتصور بأن هذه الحرب سيكون لها نتائج فعالة ومؤثرة، على مجرى السياسة البريطانية في الشرق الأوسـط في المستقبل.

وكان يقول إن اندلاع الثورة في شبه الجزيرة العربية ليس إلاّ أول قطرة مـن الغيـث فـي سلـسلة النتـائج المرتقبة.

غير أن عوامل متعددة أخرى كانت تتفاعل لتفجير تلك الثورة، ولم تكن قد تكاملت وتآلفت بعد، في الفترة التـي عاد لورانس خلالها لى مقر عمله في القاهرة ليرفع تقريره عن مشاهداته وانطباعاته في العراق إلى رؤسائه.

ذلك التقرير الذي ضمنه العديد من الموضوعات، وتطرق فيه بالانتقاد الشديد لأشياء كثيرة لا تتعلـق بمجـرى الحرب.

فقد انتقد مثلاً نوعية الحجارة التي كانت تستعمل هناك في الطباعة. وانتقد الطرق والانظمة المتبعة في ميناء البصرة لارشاد السفن إلى مراسيها وربطها هناك.

ولم ينس أن ينتقد الرافعات ويصف ضعفها وعجزها عن تأدية عمليها في تفريغ البضائع من السفن. وانتقد النظام الذي تسير بموجبه عربات السكك الحديدية، ونقص المواد الطبية، وتجاهل المسؤولين في دوائر الصحة لطلبات المواطنين.

والجدير بالملاحظة أن لورانس كان واحداً من أولئك الرجال الذي يجدون لذة في انتقاد رؤسائهم. فعلى الرغم من جهله في الامور الصحية والطبية، وفنون الحرب واستراتيجية - إذ لم يكن يعرف عنها غير ما قرأه في الكتب - فقد كان يزعم معرفة كل شئ، ويفسر كل شئ يصادفه أو يسمع عنه وفقاً لنظرياته ولمقاييسه الخاصة للأمور.

وكان يفعل كل ذلك دون أن يخشى لومة لائم. وكيف يخشى من منافسيه ما دام أصدقاؤه الذين يدعمونه ويساندونه أكثر عدداً وأرفع منزلة من رؤسائه ومنهم الكولونيل كلايتون والدكتور هو غارث اللذان كانا أكبر ضمانة تجاه أولئك الضباط الذين كانوا يتحينون الفرص للطعن به والتقليل من شأنه.

وصحيح أن لورانس كان رجلاً لا يطاق، غير أنه كان من ناحية أخرى قديراً، بشوشاً مخلصاً، يكرس كافة طاقاته لخدمة المجهود الحربي. وليس هناك من ينكر أنه كان هناك كثيرون غيره ممن تنطوي نفوسهم على صفات ممتازة تماثل صفاته، غير أن الوقائع أثبتت أنه أعمهم منفعة، وأكثرهم فائدة للحرب، وأنه يمكن الاعتماد عليه دائماً للقيام بأعمال مثمرة ومجدية وذات تأثير كبير على الاحداث.

ومهما يكن مدى الخطر الذي يحيق بأية بعثة سرية ينتدب للقيام بها، فقد كان يتقبلها وينفذها ويعود منها وهو هادئ الاعصاب مشرق التفكير كما لو أنه لم يقم بشئ...

ومن الرحلات السرية التي قام بها لورانس إلى بعض المناطق، واحدة قام بها إلى ليبيا حيث كان عليه أن يجري اتصالات سرية مع شيوخ السنوسيين. بيد أننا لا نعرف إلاّ القليل عن نتائج هذه الرحلة.

وقام أيضاً كذلك برحلة إلى اثينا، عاصمة اليونان، في صيف عام ١٩١٦. ويرجح أنه كان قد أوفد إلى اليونان بغية الاتصال بقائد بريطاني يدعى سامبسون، وكان يعرف في قام الاستخبارات بالمستر "ر".

والذي يبدو أن لورانس لم يمكث في أثينا أكثر من يوم واحد. ودليلنا على ذلك ما ذكره في رسالة بعث باه إلى والدته يذكر فيها أنه لم يتمكن من القيام بزيارة الاكروبول. كذلك اعتذر والدته في رسالته تلك عن عدم تمكنه من شراء هدية لها من اليونان، مما يقوم دليلاً على أن إقامته في اثينا كانت قصيرة جداً.

هذا، وقد عاد من تلك الرحلة إلى القاهرة التي كانت في نظره أفضل مكان في الشرق يستطيع فيه المرء أن يشعر الاطمئنان والسلام.

نقول ذلك لأن سلسلة من الأحداث الخطيرة بدأت تبرز إلى مسرح الحرب وتتفجر هنا وهناك معكرة صفو السلام والأمن في ربوع الجزيرة العربية.

فقد تفجرت ثورة عربية عارمة في بلاد العرب، فراح لورانس يبشر بحق العرب في ثورتهم ويرفـع عقيرتـه عالياً في أوساط القيادة مطالباً بمساعدة هذه الثورة الجبارة التي ظلت متقدة الأوار حتى ألحقـت بالامبراطوريـة العثمانية الهزيمة.

الفصل الرابع

جدة ومكة المكرمة

بدت الفرصة سانحة للعرب أكثر من أي وقت مضى للتخلص من النير التركي الذي ظل جاثماً فوق صدورهم ردحاً من الزمن يناهز الخمسمائة سنة عندما زجت تركيا بنفسها في حرب عالميـة شـاملة ضـد دول كبـرى كبريطانيا وفرنسا وروسيا وايطاليا.

وقد لبث الشريف حسين يتحين الفرصة المناسبة لاشعالها ثورة محرقة ضد الأتراك إلاّ أنه كـان بحاجـة إلـى الذخيرة والمال.

وكان يحرص على عدم إعلان موقف صارم ضد الأتراك خشية ألا يفي الإنجليز بوعودهم له.

وفيما كان يعلل نفسه بالأماني للحصول على الامدادات والاموال اللازمة لإشعال ثورته، كانت أنباء المعـارك التي دارت رحاها بين القوات البريطانية والتركية في منطقة كوت العمارة مخيبة للآمال ومدعاة للتريـث ثـم إن الإنجليز عادوا يطلبون منه ألا يتسرع في إعلان الثورة قبل أن تتحول مجرى الاحداث إلى جانبهم.

وكان ذلك يعني بالنسبة إليه تأخير فترة امداده بالمساعدات والاذعان لسلطة الأتراك وسيطرتهم مما هـو فـوق ما يتحمله.

لذا فقد بعث من يخبر الحكومة البريطانية على لسانه أنه لم يعد بوسعه الانتظار، ولا أن يكبح جماح المـشاعر الثائرة في نفوس رجاله ضد الاعمال التعسفية التي يقوم بها الأتراك ضدهم.

وطلب كذلك إمداده بالمساعدات الفورية مهما كانت الظروف والأحوال. غيـر أن رجـال الـشريف حـسين انقضوا على الأتراك، في ليلة ليلاء، وعملوا فيهم تقتيلاً وتذبيحاً، قبل أن يصل جواب الحكومـة البريطانيـة رداً على طلب المساعدة.

والواقع ان الثورة العارمة التي تفجرت في الحجاز ضد العثمانيين كانت من تدبير أمير مكة الـشريف حـسين وأولاده الاربعة، وكانوا قد أمضوا عدة أسابيع يخططون لها بمنتهى السرية والحذر حتى حانت سـاعة الـصفر فانطلقت من عقالها مشعلة محرقة.

وقد بلغ حرص الشريف حسين وأولاده على كتمان مخطط الثورة حداً جعلهم يكتمون أسرارها حتى عن أقـرب المقربين إليهم.

وذلك خشية أن تتسرب أخبارها إلى الأتراك فتذهب جهودهم سدى. ولا عجب في ذلك فحكم الأتراك قد أوجـد حالة في البلاد التي سيطروا عليها زرعت بذور الشر في نفوس المـواطنين جميعـاً ناهيـك عـن الجواسـيس والعملاء الذين انتشروا في كل حدب وصوب يستقون الاخبار وينقلونها مضخمة على أشد ما يكـون التـضخيم والتلويح بالمخاطر.

فكانوا يبالغون جداً ويعتبرون عود الثقاب إذا اشتعل ولمع، دليل الثورة أو ثورة على وشك الاشتعال.

واليكم لمحة عن الهجوم الذي شنه الشريف حسين على جدة ومكة المكرمة.

كان الشريف حسين يقود بنفسه الهجوم الذي شنه رجاله على مكة المكرمة بينما كان الأميران فيصل وعلي يقودان الفرقة التي قامت بالهجوم على المدينة المنورة.

وقد انتصر رجال الحسين في هجومهم على القوات التي كانت تدافع عن مكة. ومما يذكر أن الأتراك قاموا سابقاً بتعزيز حاميتهم في مكة المكرمة فزادوا عدد الجنود ووزعوهم بالتساوي على القلاع الثلاثة القائمة على التلال التي تطل على مشارف المدينة.

أما العرب فقد قاموا بهجوم كاسح ومباغت في نفس الوقت، فدخلوا المدينة من أبوابها واحتلوا السوق الرئيسية فيها، والمنطقة المأهولة بالسكان ودور الحكومة والمسجد الحرام. ثم دامت بينهم وبين قوات الأتراك التي كانت مرابطة في قلعتين صغيرتين معركة تم لهم فيها النصر بالاستيلاء عليهما.

وفي غضون المعارك التي دارت في مكة المكرمة من الداخل، ظل الشريف حسين في قصره يوجه المعركة دون أن تؤثر على معنوياته حمم القنابل التي كان الأتراك يقذفونها على قصره.

وهناك من يعتقد بأنه كان بوسع الأتراك أن يقاوموا، دون أن يهزموا أمام القوات العربية طيلة أشهر كثيرة، لولا أنهم ارتكبوا حماقة لا تغتفر ضد الدين الإسلامي بالذات.

وذلك لأنهم بدلاً من أن يحترموا إرادة أعدائهم العرب، ويدللوا على احترامهم للشعائر الدينية التي طالما لوحوا بالدفاع عنها، راحوا يطلقون نيران مدافعهم على مبنى الحرم الشريف في مكة حيث توجد الكعبة الشريفة أقدس مقدسات الإسلام، هنا كاد صواب العرب ان يطير وشنوا هجوماً فظيعاً ضد الأتراك، بينما اندفعت جموعهم ناحية القلعة التي كان الأتراك يطلقون منها حمم مدافعهم فتسلقوا أسوارها، ثم اشتبكوا معهم بمعارك استعملوا فيها العصي والخناجر والسكاكين، فضلاً عن البنادق والسيوف، حتى قضوا على جميع الأتراك واحتلوا القلعة.

أما القوات الأخرى التي كانت قد توجهت باتجاه جدة، فانها استولت على المدينة بعد خمسة أيام فقط من بدء الهجوم عليها.

ومما يذكر أن العرب أسروا مالا يقل عن ألف جندي تركي أثناء هجومهم على المدينة.

غير أن النجاح الذي أحرزته قوات الشريف حسين في مكة المكرمة وجدة كان بعيد المنال عن القوات التي قادها الأمير فيصل وشقيقه الأمير علي لاحتلال المدينة المنورة.

لقد شن رجال القبائل في شمال الحجاز هجومهم على المدينة المنورة في نفس اليوم الذي قامت فيه قوات الشريف حسين بالهجوم على مكة المكرمة.

وما إن وصلت جحافلهم إلى بساتين النخيل القائمة في ضواحي المدينة حتى أحس بهم الأتراك فانسحبوا من هناك إلى داخل المدينة حيث تحصنوا خلف أسوارها.

ذلك لأن الأتراك كانوا يعلمون بأن قبر النبي الطاهر سيوفر لهم الحماية اللازمة، إذا ما تأزمت الأمور وتألبت عليهم جميع القبائل العربية.

وكانوا يدركون أن العرب لن يجرؤوا على إطلاق قنابل مدافعهم عليهم وهم في قلب المدينة خوف أن تـصيب إحدى قنابلهم طرف الضريح المقدس، فيضعوا بيد الأتراك الورقة الرابحة ويكون نـصيبهم اللعنـة مـن كافـة المسلمين في سائر أنحاء الدنيا.

والجدير بالملاحظة أنه كان بوسع فيصل أن ينقل بعض بطاريات المدفعية من مدينة جدة ليقصف بهـا المدينـة المنورة، ثم يشن عليها هجوماً كاسحاً بمساعدة المدفعية ويحتلّها. ولكنه لم يفعل شيئاً من هذا القبيل حرصـاً علـى قدسية المدينة. كما أن الشريف حسين رفض السماح للأميرة فيصل بقذف المدينة.

وكان هناك خط حديدي يصل بين المدينة المنورة ودمشق، شيدة الأتراك خلال الفترة القـصيرة التـي أعقبـت إعلان الحرب العالمية الأولى، لاستعماله في نقل الجيوش بسرعة من منطقة إلى أُخرى إذا قام العرب بأية ثـورة ضدهم أو لتعزيز مواقعهم، هنا وهناك.

هذا، وبالنظر لأهمية هذا الخط من الوجهة العسكرية فقد قام رجال الأمير فيصل بتدمير مـسافة طويلـة منـه كجزء من خطة لقطع الطرق على الأتراك إذا ما فكروا بنقل الامدادات إلى المدينة لتعزيز حاميتهـا فـي وجـه المهاجمين العرب.

وبعد ذلك اختار الأمير فيصل ألا يتابع هجومه على المدينة، بل يوزع رجاله على الضواحي، يقينـاً منـه بـأن الأتراك لابد وأن يستسلموا بين ساعة وأخرى بعد أن يصل إلى مسامعهم نبأ تدمير الخط الحديـدي الـذي كـان ملاذهم الاخير للنجاة أو الحصول على امدادات والمؤن والرجال.

ولكن هذا العمل، على عكس ما تصور الامير، شجع الأتراك على الانقضاض على العرب المعـسكرين فـي الضواحي.

ففي صباح اليوم التالي شن الأتراك هجوماً مباغتاً على إحدى الفرق المرابطة بقرب ضاحية العوالي وأصـولها ناراً حامية، ثم أشعلوا النار في البيوت، وفتحوا نيران رشاشاتهم وبنادقهم على النـساء والاطفـال فقتلـوا عـدداً كبيراً منهم.

ومات كثيرون حرقاً لأنهم لم يتمكنوا من الخروج من بيوتهم بعد ان التهمتها النيران.

وكان لهذا الهجوم على الابرياء من الاطفال والنساء أثره السئ في نفوس رجال القبائل. لذلك هرعـوا لنجـدة رجال فيصل، فهاجموا المدينة تحت تأثير لنفعالاتهم بقصد الثأر للدماء الذكية التي أُريقت.

ولكن الأتراك المتمركزين في القلعة أصلوهم ناراً حامية من مدافعهم ورشاشاتهم فقضوا على عدد كبير منهم، وتقهقر الباقون إلى احد التلال المجاورة وعسكروا فيه.

ولما رأى الأمير فيصل ما حل برجاله على يد الأتراك، امتطى صهوة جواده، وتقدم إلـى الامـام غيـر آبـه بالرصاص الذي كان الأتراك يطلقونه عليه.

غير أن رجال القبائل الذين استدعاهم لنجدة رجاله السابقين ممن شنوا أول هجوم علـى قلعـة الأتـراك، لـم يجرؤوا على التقدم إلى الامام في الاتجاه الذي سار فيه الأمير فيصل.

عندئذ، التفت نحوهم، وسخر منهم، ثم تابع سيره إلى الامام وحيداً. وكان فيصل يحاول أثناء تقدمه أن يوجه جواده نحو المكان الذي كان الأتراك يطلقون رصاصهم عليهم وذلك بغية إعادة الثقة والاطمئنان والشجاعة إلى نفوس رجاله.

وقد نجحت خطة فيصل الجريئة. فقد شعر رجال القبائل بواجبهم إزاء بطولة قائدهم وما كان يقوم به أمامهم من ضروب الشجاعة والإقدام. وإذا بهم ينهضون نهضة رجل واحد ويتبعونه بحماسة وهم يرددون: الله أكبر الله أكبر! والعزة للعرب! الله أكبر! طاب شرب الدم طاب! الله أكبر، والعزة للعرب! لبيك يا فيصل لبيك!

وهكذا عاود رجال القبائل الكرة من جديد على القلعة، ولكن ذخيرتهم نفذت كلياً مع حلول الغسق دون أن يتمكنوا من احتلال القلعة. عندئذ، تراجعوا إلى الخطوط الخلفية كي يستعيدوا بعض الراحة بغية معاودة الهجوم في صباح اليوم التالي.

ما إن بزغ الفجر حتى دعا فيصل جميع شيوخ القبائل إلى مؤتمر يعقد في خيمته. وهناك صار الاتفاق على أنه من السذاجة معاودة الهجوم.

ثم تراجعوا إلى التلال الواقعة على مسافة خمسين ميلاً إلى الجنوب من المدينة، وعسكروا بجانب طريق الحج المؤدية إليها - وهي الطريق الوحيدة التي بها يمكن الوصول إلى المدينة - لمنع ورود الامدادات إلى الأتراك وحصرهم فيها منعاً لهم من الانطلاق للقيام بهجوم على مكة المكرمة لاستردادها.

أما الأتراك فانهم بادروا فوراً بتصليح خطهم الحديدي، وطردوا العرب المقيمين في المدينة والبالغ عددهم حوالي الثلاثين ألف نسمة إلى خارجها وتركوهم يهيمون على غير هدى في الصحراء، ثم عجلوا بنقل المؤن والذخيرة إلى المدينة من سوريا، وعززوا حصونها وخطوطها الدفاعية تحسّباً لأي هجوم قد يقع عليها في المستقبل.

في هذه الاثناء، ظل العرب يسيطرون على مكة المكرمة، وكان وقوعها بأيدي رجال القبائل أفدح ضربة أُصيب بها الأتراك، وذلك لأن وجودها بيد الأتراك وكان يعزز نفوذهم، ويضمن لهم البقاء في مركز يسمح لهم بزعامة العالم الإسلامي بأسره.

ثم تلا ذلك فترة طويلة من الهدنة بدليل أن العرب أصبحوا يشعرون بعجزهم عن متابعة الثورة بعد أن نفدت جميع الذخائر والأموال والمؤن التي كانوا يملكونها.

وعاد الشريف حسين يطلب المساعدة من الحلفاء، فانبرى الانجليز لتلبية مطلبه. وفي تلك اللحظة الحاسمة من تاريخ الثورة العربية ظهر لورانس الشاب على مسرح الاحداث في شبه الجزيرة العربية ليلعب دوره المقدّر له في تغيير مجرى التاريخ. فما هو هذا الدور؟

الفصل الخامس

البحث عن قائد

تلقت قيادة القوات البريطانية في مصر، بدهشة فائقة، الاخبار التي وصلتها عـن نـشوب ثـورة عربيـة فـي أراضي الحجاز، وفرار الأمير فيصل من دمشق ثم وصوله سالماً إلى الحجاز. والجدير بالذكر أ، العرب حققـوا لأنفسهم انتصارات خاطفة فور اعلان ثورتهم ضد الأتراك، فاستولوا على مكة المكرمة وجدة، وينبع، ورابغ.

ومعروف أن المدن الثلاث الاخيرة هي موانئ ذات أهمية كبرى بالنسبة لموقعها على البحر الاحمـر. ولكـن العرب سرعان ما فقدوا الكثير من قوة اندفاعهم على اثر ما تعرضوا له من خسائر أثناء هجومهم على المدينـة المنورة، ذلك الهجوم الذي كلفهم كثيراً من الرجال والمؤن والعتاد.

وكان من الطبيعي أن تعزز تلك النكسة التي أصابت العرب رأي الجنرال أرشيالد موراي الذي كـان يومئـذ قائداً للقوات البريطانية في الشرق الأوسط، في ضآلة أهمية العرب الحربية وضعفهم، وعقم المساعدات الماديـة التي راحت بريطانيا تقدمها للشريف حسين منذ اللحظة التي رفع فيها لواء الثورة ضد الأتراك.

كان الجنرال ارشيبالد يتصور أن الضباط الذين يشرفون على قيادة القوات العربية وتوجيهها كـانوا مفتقـرين إلى التدريب والتكتيك الحربي الاستراتيجي بالمقارنة مع ما كانت عليه القوات التركية من خبـرة فـي التـدريب والتنظيم العسكريين.

وكان هناك عدد كبير من ضباط القيادة يشاطرون الجنرال رأيه في الثورة العربية. وفضلاً عـن ذلـك، كـانوا يشككون بقدرة العرب على القيام بثورة ناجحة مهما بلغت نسبة وأهمية المساعدات التي ستقدمها بريطانيـا لهـم بدافع الغيرة على تعزيز تلك الثورة وتوطيدها.

وطبيعي كذلك أن يوجد بين أولئك الضباط من لا يرى رأيهم في العرب. ومن هؤلاء الضابط رونالد سـتورز، وقد كان يومئذ السكرتير الشرقي في مكتب المقيم البريطاني في القاهرة، ثم عين حاكماً على مدينة القدس.

وكان هذا الضابط، دبلوماسياً بارزاً وخبيراً في شؤون الشرق الأوسط، بالاضافة إلى خبرته العسكرية.

ومن أولئك الضباط كذلك، الضابط لويد جورج، الذي أصبح فيما بعد يعرف باللورد لويد بعد أن غـدا وزيـراً بارزاً في الحكومة البريطانية.

والكولونيل كلايتون، رئيس قلم المخابرات السرية. وكان كلايتون ثاقب البصيرة، وشجاعاً إلى حد أنه لـم يكـن يخشى مطلقاً أن يتصدى لمعارضة زملائه الضباط ممن كانوا يشككون في قدرة العرب، بصورة علنية.

وأخيراً كان الضابط توماس ادوارد لورانس، وكان دونهم وأصغرهم سناً ولكـن أكثـرهم حماسـة للثـورة العربية. وفي تلك الاثناء، كان لورانس يعمل في قسم الخرائط التابع للقيادة البريطانية العليا.

والواقع أن لورانس، كان أكثر الضباط شعوراً بالحماسة نحو الثورة العربية بدليل أنه نوه عن رغبتـه فـي أن يستقيل من وظيفته لينضم إلى صفوف الثوار العرب.

ومن الثابت أن لورانس كان يندد، أكثر من سواه، بمواقف القيادة البريطانية من الـشريف حـسين، وبتـشكيكها في أهمية حركته الثورة، وكان يعنف تلك المواقف علناً دون خشية أو رهبة من ضباط القيـادة الآخـرين الـذين

أخذوا يعرضون عنه ويشكون في ولائه، وينظرون إليه احتقار وازدراء وربما كان لورانس على حق في انتقـاده مواقف القيادة البريطانية إذ كانت تتمادى في سباق طعنها بالثورة العربية ووصفها إياها كحركة عـابرة سـرعان ما تنطفئ جذوتها ويطويها التاريخ.

حتى أنها ك انت تتنبأ عن مصير الشريف حسين بقولها ان الأتراك سـوف يعلقونـه، عـاجلاً ام آجـلاً، علـى أعواد المشنقة.

من هنا كان لورانس يرد على كل تلك الادعاءات بانتقادات لاذعة ويقول بأن الحركة إذا مـا تعرضـت لأيـة نكسة، فمرد ذلك على عدم وجود صلة تربطها بالقوات البريطانية من جهة، ولعدم توفر المعلومـات الـصحيحة لدى المشرفين عليها عن قوة العدو العسكرية وتحركاته من جهة ثانية، وعجز القوات والقيادة البريطانيـة التـام عن تقديم أية مساعدة مادية كافية من جهة ثالثة.

وعليه، ما إن علم لورانس بأن زميله ستورز سيذهب في رحلة إلى جدة حيث يقابل الأمير عبـد الله ويتباحـث معه في شؤون الساعة وفي أية مخططات يكون بالمستطاع تنفيذها في المـستقبل، وحتـى وطـد العـزم علـى مرافقته. ولذا، فقط طلب إلى رئيسه أن يسمح له باجازة عشرة أيام، بذريعة أنه بحاجة للراحة مـن عنـاء عملـه المتواصل الذي كان يؤديه في القيادة.

وقد أجابته القيادة إلى طلبه بسرعة لأنها كانت تود أن تتخلص منه، ولو لمثل هـذه الفتـرة القـصيرة، نظـراً لتدخله في الشؤون العامة وكثرة انتقاداته.

والواقع أن القيادة البريطانية لو كانت تدرك السبب الذي من أجله طلب لـورانس الاجـازة، وكنـه مخططـه المتعلق بالثورة العربية، لما وافقت على طلب بمثل هذه السهولة.

وهكذا، نجد أن لورانس قادر على التكتم حتى في مكان يستحيل فيه على الفرد أن يحافظ علـى سـرية أفكـاره بسهولة. لقد أثبت أنه أبرع من جميع أفراد الضباط وأقوى منهم من حيث قوة الارادة وضبط الاعصاب.

هكذا صمم لورانس على السفر إلى جدة برفقة زميله الضابط ستورز، وكان له ما أراد. وصمم كذلك علـى أن يضع كل امكانياته لإنجاح الثورة العربية، فتوجه إلى جدة عله يستطيع أن يحقق أمانيه. وكانت تلـك أول صـفحة يخطها لورانس في سجل حياته ومغامراته الشخصية.

وصعد لورانس إلى ظهر السفينة... وهناك، وبينما كانت تمخر مياه السويس في طريقها إلى جدة، بـدأ يعلـل النفس بأنه لا بد أن يعثر في شبه الجزيرة العربية على قائد ليشترك معه في قيادة الثورة العربية وتوجيـه دفتهـا إلى شاطئ الأمان والظفر بمدينة دمشق الخالدة.

وفي هذه الاثناء كان الكولونيل كلايتون يعد العدة لاستقبال السفينة لدى وصولها إلى جدة فـي الموعـد الـذي أنبئ عنه سابقاً.

كذلك فانه أجرى التدابير اللازمة لعقد اجتماع بين ستورز ولورانس وبين الأمير عبد الله الـذي كـان يومئـذ وزيراً للخارجية في الدولة العربية التي انبثت عن الثورة.

لم يكن لورانس يتوقع لدى وصوله أن يجد الأمير عبد الله ناعم البال، وافر السرور، منشرح الصدر، لا سـيما، بعد أن أصيبت الثورة العربية بنكسة فظيعة، ولما يمض على إعلانها سوى بضعة أشهر.

إلاّ أنه حاول أن يعزو ذلك إلى أن أعمالهما التجارية المتبادلة سوف تعزز أواصر الصداقة بينهما. غير أنه سرعان ما أدرك خطأ تعليله ذاك بعد أن وجد الابتسامة لا تفارق ثغر الأمير عبد الله، وبعد أن وجده يقرن كل موضوع يتطرقون الى بحثه بلون من المزاح والفكاهة والتندر. إذ ذاك، بدأ لورانس يشعر بخيبة أمله في العثور على قائد للثورة العربية في شخص الأمير عبد الله.

غير أن ملامح الأمير عبد الله سرعان ما ارتدت طابعاً جدياً عندما راح ستورز يوجه إليه بعض الأسئلة للوقوف على رأيه في الوضع المتأزم، وما آلت إليه الثورة العربية.

فقد بدا الأمير بالفعل جاداً في حديثه، فكان يرد على أسئلة ستورز بكل دقة وحكمة. وفي تلك اللحظة، خيل إلى لورانس أن الأمير عبد الله كان يختار الكلمات بدقة متناهية فيما أخذ يشرح لهما الأسباب التي حالت دون استيلاء القوميات العربية على المدينة المنورة. فقد ذكر الأمير أن مرد ذلك الفشل يعود إلى واقع أن العرب أعطوا الأتراك وقتاً أكثر من اللازم بحيث أمكنهم أن يعززا مواقع المدينة ويمدوا قواتهم بالمؤن والمعدات والذخيرة، ناهيك عن لا مبالاة الانجليز بأهمية موضوع قطع خطوط السكة الحديدية التي تعمل في الحجاز.

ولم ينس الأمير عبد الله أن يثني على موقف الجنرال وينغت، وقد كان ضابط الاتصال بين القيادة والشريف حسين، إذ أمر بانزال بعض القوات البريطانية إلى شاطئ رابغ مما عزز عملية الدفاع عن مكة المكرمة بيد أنه من جهة أخرى أنحى باللائمة عليه لأنه أحجم عن قطع خطوط تموين العدو ورفض تقديم الأسلحة والذخيرة للعرب. وذكر أنه نتيجة لموقف الجنرال ذاك إنضمت قبيلة بني حرب - وهي من أكبر القبائل العربية في الحجاز - إلى صفوف الأتراك، يقيناً من شيوخها بأن الثورة العربية لن تعود عليهم إلاّ بالخراب والدمار.

والذي زاد الوضع سوءاً أن الأتراك أصبحوا في وضع ممتاز يمكنهم من حشد قواتهم والهجوم بها على مكة المكرمة وتهديدها حتى الاستسلام. وأخيراً قال الأمير: إذا أريد منع الأتراك من استعادة مدينة مكة المكرمة، فإنه ينبغي على الانجليز أن يوفدوا فرقة عسكرية إلى رابغ بحيث تكون هناك في الوقت المناسب لتساعد في صد القوات التركية إذا ما فكرت بالهجوم على المدينة.

وهنا تدخل لورانس وقال ان القوات البريطانية المرابطة في مصر لم تكن غير كافية فحسب، بل كانت كذلك لا تمثل وسائل النقل البحرية اللازمة لنقلها إلى مدينة رابغ. وذكر الأمير عبد الله أن والده كان قد أوعز للإنجليز بألا يتعرضوا لقطع خط سكة حديد الحجاز، وذلك للإبقاء عليه صالحاً للاستعمال حين يفكر بالزحف على مدينة دمشق.

وعلى كل حال، فقد خرج لورانس من هذا الاجتماع وهو مقتنع بأن الأمير عبد الله ليس ذلك القائد الذي يمكنه أن يقود الثورة العربية. ولكنه لم ينكر أن الأمير كان ذكياً، لبقاً، خفيف الظل والروح، ومتزناً في تفكيره.

غير أن هذه الصفات في رأيه، وبغض النظر عن أهميتها وروعتها، ليست كافية لتكوين شخصية قائد الثورة كما يتصوره لورانس، إنساناً يجب أن يكون قوي الإرادة إلى حد أقصى بحيث لا يتمكن من ضبط ذاته فقط وإنما يهجمه على الرجال الذين سيأتمرون بأمره.

فإذا لم تكن شخصية مثل ذلك القائد توحي بالثقة والاحترام فمن المحال عليه أن يفرض إرادته على من سيشتركون معه في النضال الثوري.

تلك هي المزايا التي جاء لورانس إلى شبه الجزيرة العربية للعثور عليها في شخص رجل يتولى زمـام الثـورة العربية وقيادتها. وذلك لأن لورانس كان سيشك كثيراً في قدرة الحركة العربية على النهوض بالأعباء والمهمـات التي تنتظرها ما لم يكن هناك رجل يتحلى بمثل تلك الصفات ويكون باستطاعته أن يبذل الكثير من الجهد، ويقـدم الكثير من الطاقة، ويكرس ما فيه الكفاية من ذاته لخدمة القضية الكبرى، ألا وهي الثورة العربية.

إن الحركة سيقضي عليها بالموت في مهدها، ما لم تكن نفسية من أشعلها منطوية على تقديم نفسه قرباناً سـخياً على مذبحها. ومع ذلك، فإن لورانس لم يفقد الأمل بالعثور على مثل ذلك الرجل الذي يستطيع أن يقـبض علـى زمام الثورة ويقودها إلى النصر الأكيد.

من هنا توطدت في نفسه الرغبة في مقابلة الأمير فيصل علة يجد فيه تلك الصفات، فيحقق له أمنيتـه العثـور على نبي جديد لقيادة الثورة العارمة قبل فوات الأوان.

ولذا، فإنه توسل إلى الأمير عبد الله ـ دون أن يكشف له عن نياته ـ أن يساعده لعقد اجتماع بينه وبين شـقيقه الأمير فيصل. والحقيقة أن الأمير عبد الله وعده خيراً، وأبدى عطفه لمساعدته في تحقيق أمنيته.

وقام الأمير عبد الله باتصال هاتفي مع والده الموجود في مكة المكرمة. لم يكن الشريف حسين، بادئ ذي بدء، شديد الحماسة لفكرة لورانس. وعبثاً حاول الأمير عبد الله أن يقنعه بصدق نية لورانس، فلم يقتنع. وممـا يـذكر أن الشريف حسين كان لا يثق مطلقاً بنيات الإنجليز ويعتبرهم دخلاء يحاولون بطريقـة أو بـأخرى أن يبـسطوا سيطرتهم على أراضي شبه الجزيرة العربية.

وانطلاقاً من هذا الواقع، حاول أن يدخل في روع ابنه الأمير عبد الله المغزى البعيد الـذي يهدفـه إليـه، وأن يوفه على حقيقة أمرهم ويحاول أن يراقب جميع حركاتهم وتنقلاتهم في جدة. وأحسب أن الأميـر عبـد الله كـان يعتقد بأن التقاليد العربية تقضي بألاّ يرد طلباً لإنسان ما، فناول سماعة الهاتف للـضابط سـتورز علـه يـستطيع إقناع والده بجدوى الزيارة التي أزمع لورانس القيام بها إلى داخل أراضي شبه الجزيرة العربية ومقابلة الأميـر فيصل هناك.

والواقع أن ستورز استنفذ كل ما في جعبته في مخزونات الكياسة، واللبقاة والديبلوماسية حتى تمكن مـن إقنـاع الشريف حسين بحسن نيات لورانس نحو العرب وشعوره العميق ازاء قضيتهم الكبرى، واندفاعه النبيل لتكـريس نفسه لخدمة الثورة العربية.

وإنه إذ يجئ اليوم، فليس للتجسس، بل للاتصال بالأمير فيصل بغية البحث معه بجد في انجـع الطـرق التـي يستطيع بواسطتها الانجليز أن يخدموا الثورة العربية ويساندوها ويزودا جنود الأمير فيـصل بأحـدث المعـدات والمؤن لتعزيز خططه الهجومية ضد الأتراك. وإزاء جميع تلك التطمينات والوعود بتقديم الأسلحة للعرب، شعر الشريف حسين ببعض الارتياح، وأمر ابنه عبد الله بوضع الترتيبات اللازمة لنقل لورانس إلى معـسكر فيـصل في التلال القريبة من المدينة المنورة.

الفصل السادس

لقاء فيصل ولورانس

كان مقر قيادة الأمير فيصل في وادي صفرا الذي يبعد مئتي ميل شمالي جدة وحوالي ستين ميلاً جنوبي - غرب المدينة المنورة.

وقد تم الاتفاق حرصا على الوقت، على أن يتوجه لورانس بالسفينة إلى ميناء رابغ أولاً حيث سينتظره الأمير علي، وهو أكبر أبناء الشريف حسين وقائد المنطقة المحلي، لينقله بعد ذلك على الجمال إلى مقر الأمير فيصل.

وتأكد لورانس قبل أن يغادر ميناء جدة في المسائل بأن امير فيصل كان يعارض خطط شقيقه الأمير عبد الله.

وفي ذلك المساء دعا الكولونيل ويلسون الأمير عبد الله لتناول العشاء على مائدته مع كل من ستورز ولورانس وجنرال مصري هو السيد علي، والجنرال عزيز المصري. وسبق أن كان هذا جنرالاً في الجيش التركي واشترك في معارك ضد الطليان ثم ترأس حركة ثورة بمعاونة بعض الضباط العرب ممن كانوا في الجيش التركي، ومن ثم انضم إلى صفوف الشريف حسين الذي عينه رئيساً لأركان جيشه.

وأثناء تلك الحفلة البسيطة قص الأمير عبد الله على مسامع ستورز ولورانس خططه لتنفيذ الثورة العربية. فإذا فكرته تقضي أولاً بالقاء القبض على كبار الحجاج المتوجهين إلى مكة المكرمة.

أولئك الحجاج الذين كان لا بد وأن يكون بينهم بعض كبار الحكام الأتراك وبعض الزعماء الكبار من الهند ومصر، فيحتفظ بهم كرهائن... الأمر الذي سيضطر حكام الهند ومصر إلى الضغط على حكام القسطنطينية، بصورة مباشرة أو غير مباشرة، لتلبية مطالب الشريف حسين لقاء اخلاء سبيل رعاياهم.

ومما يذكر أن فيصل نصح والده بعدم اللجوء إلى ممارسة مثل هذه الخدعة الخبيثة التي وضع خيوطها شقيقه الأمير عبد الله.

ذلك لأن فيصل كان يؤمن بأن الحرية تؤخذ ولا تعطى، شأنها شأن الاستقلال، وكان يؤمن كذلك ويتفق لورانس معه في ذلك، بأن الحرية هدف لا يمكن الوصول إليه بالدسائس وإنما بالنضال.

وعلى أية حال، فقد وصل لورانس إلى رابغ ليجد أن الأمير علياً كان بانتظاره. وأعجب لورانس بالأمير علي، ولكنه لاحظ أن ملامحه - كملامح شقيقه عبد الله - توحي بأنه كان أبكر سناً مما هو في الواقع.

وما خلا ذلك فقد ألفى الأمير علي شاباً طيب القلب، صريحاً، واسع الثقافة والخبرة لدرجة تفوق ما كان يتوقع من شاب يعيش في منطقة أكثر سكانها يكادون أن يكونوا اميين. كما وجده واسع الاطلاع في الدين والقانون، وشريفاً إلى درجة أنه كان يأبى على نفسه تصديق أن للخيانة مكاناً في نفوس الآخرين.

وذلك ما كان يميزه عن شقيقه الأمير عبد الله الذي يلجأ إلى تدبير المؤامرات وحبك الدسائس للإيقاع بأعدائه.

وعلة الأمير علي الوحيدة هي أنه كان ضعيف البنية، نحيل الجسم.

وكم كانت دهشة لورانس عندما اكتشف بأن خطته لم تثر في نفس هذا الأمير الحماسة التي كان يتوقعها منه.

وعرف كذلك أن علياً لم يرض بالسفر إلى رابغ لاستقباله إلاّ تنفيذاً لرغبة والده، وكيلا يثير الشبهات بأنه يحاول أن يخرج عن طاعة والده.

كان لورانس يريد الشروع بالسفر فور وصوله إلى رابغ، ولكن الأمير علياً نصحه بالتريث فيها حتى مغيب الشمس إذا كان يبغي أن يحافظ على سرية رحلته. ذلك لأن علياً كان يخشى على لورانس من عبيده.

والدليل على ذلك أنه شدد على الأشخاص الذين اختارهم لمرافقة لورانس في رحلته بألاّ يخوضوا بأي حديث مع من يصادفونه في الطريق، وألاّ يحاولوا زيارة معسكر من المعسكرات التي كانوا سيمرون بقربها.

وكان أكثر ما يخشاه الأمير هو انتشار نبأ رحلة لورانس إلى قبيلة بني حرب فتفسد عليه الخطة وتعرض ضيفه للخطر، وكانت هذه القبيلة قد أعلنت ولاءها لجانب الأتراك في المدة الأخيرة، وخاصة الفئة التي كان الشيخ حسين مبيرج رئيسها.

كذلك كان علي يخشى من العقوبة التي سينزلها به والده في حالة تعرض لورانس لأدنى قدر من الأذى. أضف إليه أنه كان على الأمير علي مراعاة التقاليد العربية، إلى أقصى حد ممكن، بالنسبة إلى الضيوف وذلك بغض النظر عن لون الضيف ودينه كما هي الحال بالنسبة إلى لورانس الذي أصبح الآن ضيفاً يحل على الشريف حسين في الأراضي الإسلامية المقدسة. فإدراكاً منه لهذا الواقع الذي يعيشه والذي يفرض عليه توفير أكبر قسط من الراحة والأمان للضيف، عين الأمير علي رجلاً يدعى طفاس كان ينتمي في نسبه إلى قبيلة بني سالم المعروفة بعدائها لقبيلة بني مسروح حرب، كحارس ومرافق خاصة للورانس أثناء تجولاته.

وبعد مسيرة يومين وصل لورانس إلى قرية الحمرا في وادي صفرا. وكم دهش عندما عرف أن الحشود الكثيرة من الرجال الجالسين أمامه، جماعات جماعات، وجمالهم التي كانت تسرح في المراعي بحثاً عن الماء والكلأ، كانوا من أتباع الأمير فيصل.

وبعد برهة قصيرة، وصل إلى خيمة الأمير فالفاه واقفاً ببابها لاستقباله. وما إن لمحه لورانس حتى وجد فيه صورة ذلك الحواري الجديد والقائد الملهم الذي طالما تصوره في أحلامه يسير في مقدمة الجيوش العربية ليقود نضالها في سبيل الحرية والاستقلال... في هذه اللحظة تصور لورانس أن حلمه قد تحقق، وأنه قد عثر على ضالته المنشودة في شخص فيصل... باعث النهضة العربية كما كان يصفه.

كانت أحلى ساعات العمر بالنسبة إلى لورانس ... هي ساعة اللقاء. فقد تقدم نحوه بخطى وئيدة، وقلبه مفعم بالفرح والسرور، وعانق ذلك الإنسان الذي تجسدت فيه أحلامه. ثم اشار عليه فيصل أن يدخل إلى الخيمة، فدخل لورانس فيها وهو لا يكاد يصدق أن حلمه سيتحقق بمثل هذه الروعة والسرعة.

بعد فترة استراحة قصيرة، تطلع فيصل إليه وسأله كيف كانت رحلته. فأجابه لورانس بأن هذه الرحلة كانت أول رحلة يقوم بها على الجمال. ثم أخذ فيصل يداعبه ويثني عليه نظراً لتمكنه من قطع كل تلك المسافة التي تفصل بين رابغ ومركز قيادته في الصحراء في غضون يومين فقط.

وكأني به أراد بذلك أن يخفف من عناء الرحلة ومشقتها عن لورانس. ثم لاذ الجميع بالصمت فخيم السكون على الخيمة ما خلا طنين الذباب وحفيف الأيدي وهي تمتد إلى اللحى لتداعب خصلات شعرها المفتولة.

وبعد لحظات، تطلع فيصل إلى الجالسين حوله بدهشة وكأنه يريد أن يقول لهم: علام هذا الصمت، فالمجال مفتوح أمامكم لتوجيه الأسئلة التي تريدونها للضيف الإنجليزي.

ولكن أحداً منهم لم يحاول أن يتكلم. وأخيراً عاد فيصل يسأله من جديد كيف وجد المكان، وهـل أعجبـه أم لا. عندئذ، تحمس لورانس، فرد بصوت عال كما لو أنه يريد أن يمزق خيوط ذلـك الـصمت، وأن يغيـر مجـرى الحديث الذي وجده بعيداً جداً عما كان يجول في خاطره من هواجس تتعلق بمجرى الأحـداث، وقـال: "أجـل، ولكنه بعيد جداً عن دمشق."

والواقع أن فيصل كان مدركاً لواقع الأمور أكثر من سواه، وكان بوسعه أن يشترك مـع لـورانس فـي هـذا الحديث الحماسي، إلاّ أنه كان متعباً ومرهقاً بعد الهزيمة التي لحقت بقواته اثر الهجوم الذي شنته علـى المدينـة المنورة.

أما وقد ليقن من ان لورانس كان يحاول ان يدفعه إلى الخوض في هذا الحديث فقد فكر بأن يستفزه ولـو مـن باب المجاملة والمداعبة، بدلاً من أن يلوذ بالصمت، وقال:

ـ لكنك تنسى أنه يوجد بين ظهرانينا أتراك كثيرون... وعلينا أن نحاربهم أولاً قبـل أن ننتقـل إلـى محاربـة أولئك الأتراك القابعين في دمشق.

وصمت فيصل بينما طفق الحاضرون يضحكون. واحمر وجه لورانس خجلاً غير أن فيصل وضع حداً للهـرج والمرج اللذين سببا الإحراج لضيفه، وسأله مبتسماً عن مهمته.

وهنا دخل لورانس بعض الارتياح فراح يقول بصوت هادئ: جئت إلى هنا بغية أن أقف بنفـسي علـى حقيقـة التقدم الذي أحرزته الثورة العربية، ومعرفة ما تحتاج إليه من مساعدة ومساندة، والاطلاع علـى الخطـط التـي ينوي أميركم فيصل الجزيرة العربية الجالس بيننا الآن، تنفيذها في المستقبل ضد الأتراك.

ثم قال انه سيرفع تقريراً عن مشاهداته وانطباعاته إلى القاهرة حيث يوجد هناك العديـد مـن الـضباط الـذين يعطفون على قضية العرب ولن يترددوا في تقديم أية مساعدة ممكنة لهم في نضالهم الثوري.

وهنا تدخل أحد الرجال، وهو مولود مخلص، الذي كان قائداً في الجيش التركي، وكان أول ضابط عربي فـر م الجيش العثماني لينضم إلى ثورة الشريف حسين فعينه مساعداً لابنه الأمير فيصل، فقال:

ـ نود أن نعرف ما إذا كنت تقوم بهذه المهمة بتكليف من القيادة البريطانية أم لا؟

فرد عليه لورانس قائلاً:

ـ كلا: لا أظن أحداً قد أرسلني والحقيقة انني جئت من تلقاء نفسي.... فوصلت إلى مدينة جدة أولاً، ثم تابعـت رحلتي إلى هنا لكي أقابل الأمير فيصل بعد أن حصلت على موافقة الشريف حسين. وها أنذا بينكم الآن وبـودي لو أحصل على معلومات دقيقة عن مجرى الحرب.

وقاطعه صوت دلت لهجته على أن صاحبه سوري وقال بلهجة الواثق من نفسه:

ـ إذا كنت جئت إلى هنا بمحض اختيارك فعلام السؤال عن مخططاتنا في المستقبل؟.. إنني اعتقـد بأنـك مـا جئت إلى هنا إلاّ لتقوم بأعمال التجسس.

غير أن لورانس أنكر أن يكون جاسوساً... ثم حدق في هذا الرجل الذي أتهمه بالتجسس، وقال:

ـ أؤكد لكم أنني صديق مخلص طالما دافع عن قضيتكم في أوساط القيادة العليا في القاهرة... وقد جئت إلى هنا حتى أكون لكم سنداً وعوناً في حملاتكم الثأرية لإخوانكم السوريين الذين يسامون العذاب ألواناً على أيدي الأتراك في دمشق.

فرد عليه السوري يقول:

ـ ولكن هؤلاء الذين تتحدث عنهم لم يكونوا إلاّ عملاء للأجانب ـ أي الإنجليز والفرنسيين .... ولم يكن بينهم من كان مخلصاً للعرب وثورة العرب... والدليل على ذلك أنهم كانوا يخططون لتسليم البلاد للأجنبي الذي أرسلك إلينا الآن كي تدخل في روعنا أن الإنجليز يودون مساعدتنا في ثورتنا ضد الأتراك....

وصمت السوري لحظة، ثم التفت إلى الأمير فيصل وقال بحماسة:

ـ سيدي الأمير، يجدر بنا أن ، نبعده من هنا قبل أن يطلع على كافة أمورنا.

وهنا ابتسم الأمير فيصل، وهو يتطلع إلى لورانس، ثم قال بهدوء:

ـ هلا عرفت الآن مدى الهوة التي تفصل بيننا وبين الإنجليز... فنحن لا نستطيع أن نتحالف مع بريطانيا قبل أن نلمس منها نيتها الحسنة نحو قضيتنا... إننا قوم شديدو الغيرة والحرص على بلادنا إلى الحد الذي يجعلنا لا نثق بأية دولة أجنبية، أو أن نبادلها وداً بود... ومن يدري ما إذا كانت الأيام ستغير من نظرتنا إلى الأمور...

وقاطعه السوري قائلاً بلهفة:

ـ كلا! لن يحدث ذلك أبداً... ألم يكفنا ما كشف لنا من نياته الصريحة حتى الآن عندما راح يتحدث عن دمشق... ودمشق بعيدة عنا مئات الأميال... فما باله يتحدث كثيراً عن عاصمة بلادنا؟ من يدري... قد يكون فعل ذلك في محاولة منه ليعرف ما إذا كان في نيتنا أن نزحف عليها أم لا، ثم ينقل الخبر إلى أسياده فيسبقونها إليها...

وفي مثل هذا الجو الذي تخللته أحاديث مثيرة، هاجت المشاعر من كوامنها، لم يجد لورانس ما يحاول به أن يقنع الأمير فيصل ورجاله بصدق نياته، سوى المنطق يبرر به أسباب وجوده في بلاد العرب، فتأمل لحظة ثم قال بلهجة هادئة:

ـ إنني مدرك تماماً الشكوك التي تراودكم بالنسبة إلى إخلاصي نحوكم. ويقيني أنه ليس هنا من وسيلة يمكن بها اقتلاع جذور هذه الشكوك من أذهانكم إلاّ بالمجئ اليكم... وهذه لعمري أفضل وسيلة يمكنني اللجوء إليها لاثبات صداقتي وإخلاصي لكم.

إنكم تعلمون ولا شك بأن هناك العديد من الجنود البريطانيين في فرنسا... ولكن الشعب الفرنسي لم يراوده قط الشعور بأن أولئك الجنود قد أرسلتهم بريطانيا لاحتلال أراضيها وجعل فرنسا دولة تدور في فلكها... وعلى شاكلة ذلك، فإذا ما أرسلت بريطانيا يوماً ما بعض ضباطها إلى بلاد العرب، وأبدت اهتمامها بالتحالف مع العرب وتقديم المساعدة اللازمة لهم لمتابعة نضالهم ضد الأتراك كي يتمكنوا من تطهير بلادهم منهم.... أرجو ألا يظن العرب بأن بريطانيا تستهدف من وراء ذلك بسط سيطرتها ونفوذها على العرب.

وهنا رد عليه الأمير فيصل وكأنه أراد أن يضع النقاط على الحروف، فقال:

ـ بالرغم من حرصي الشديد وحفاظي على بلادي، فإنني قد لا أشك البتة في ما تردده بريطانيـا مـن أنهـا لا تنوي الاستيلاء عليها... ولكن ما حيلتي ما دامت بريطانيا نفسها قد وضعت مثل هذا السلاح فـي يـدي حينمـا احتلت السودان بحجة أنها لا تنوي احتلاله... ويقيني أن ليس هناك ما يمنـع الإنجليـز مـن تحقيـق محـاولتهم السيطرة على الأراضي النائية... قد يفعلون ذلك بدافع الرغبة في بناء مثل هذه الأراضي.... ولكن ذلك لا يكفي لاستبعاد فكرة الاحتلال من أذهانهم... لا سيما وإن الإنجليز سيجدون البلاد العربية مرتعاً خصباً لهـم، ومنطقـة ثمينة لا يتخلون عنها بسهولة... وعلى كل، فأنا أعتقد بأن كل واحد منا ينظر إلى الخير والفـضيلة مـن زاويتـه الخاصة... كذلك، يجب ألا يغرب عن بالنا أن الخير والشر يصبحان على السواء، عندما يفرضان بـالقوة علـى الشعوب المغلوبة على أمرها، وهما كفيلان لأن يسببا لها مآسي وويلات متماثلـة... ثـم لا تـنس أن الـشعوب الضعيفة تكون دائماً ميالة إلى الضجيج والصخب تلوح بهما ضد من تخشى من سيطرته عليها.

إن هذه النظرة قد تتبدل في شعبنا عندما يأتي ذلك اليوم الذي يكتشف فيه حقيقة وجوده وشخصيته.

وكأني بلورانس قد أدرك أن فيصل كان يستهدف من وراء ذلك وضع حد لتلك المناقـشات الـصاخبة، وأدرك بالتالي أن فيصلاً كان يدعوه إلى تقديم الاعتذار عما بدر منه فأثار الحقد فـي نفـوس بعـض رجالـه، فـنهض واعتذر للجميع عما صدر منه نحوهم.

والواقع أن الدرس الذي تعلمه لورانس عن شعور العرب، في تلك الدقائق المعدودة، كان أهم بكثير مما تعلمـه عنهم في الكتب والتجارب السابقة. فقد بات يدرك الآن أنه يستحيل على بريطانيـا أن تـستطيع شـراء صـداقة العرب ببعض الفضة أو بشحنة من الأسلحة كما كان يخيل لمعظم رجال القيادة في القاهرة.

بل أدرك أن بريطانيا يجب أن تبذل المزيد من الوقت والجهد والإيمان إذا كانـت تريـد أن تحظـى بـصداقة العرب وثقتهم بها.

غير أن ذلك أقلق بال لورانس وبات يخشى على مهمته الفشل. فقد كـان يعـرف أن معظـم رجـال القيـادة مفتقرون إلى الصبر والإيمان اللازمين في ثمل هذه الحالة. وفضلاً عن ذلك، كان يدرك سلفاً بـأن تقريـره لـن تكون له تلك الأهمية التي تعطى لأي تقرير يرفعه ضابط أعلى منه مرتبة.

وهل بوسع ضابط بسيط مثله أن يقلب الأوضاع رأسا على عقب، وأن يدخل تفكير كبار القـادة فـي القـاهرة نيات جديدة تكن المودة والعطف نحو العرب وتقديم المساعدة لهم؟ غير أنه فكر بأنه قد يكتـب لـه النجـاح إذا ضمن تقريره بعض المعلومات الدقيقة المفصلة عن الخطط التي كان فيصل ينوي تنفيذها في المستقبل، وبعـض المعلومات المعقولة عن مدى قدرة الجيش العربي على التغلب على الأتراك وطردهم مـن أراضـي الجزيـرة العربية.

ونتيجة لذلك فإنه صمم على أن يقنع فيصل بالاجتماع معه شخصياً. وقد شجعه على التفكير في هـذا الاتجـاه لمسه في فيصل أثناء الاجتماع السابق من لباقة في الحديث، واتزان في التفكير.

عندما انتقل لورانس من خيمة الأمير فيصل إلى خيمة الضيافة التي أعدها له فيصل ليقضي الليل فيهـا، جلـس هناك يفكّر في الوسيلة التي يستطيع بها أن يتغلب على كافة المشاكل التي كانت تعترض سبيله.

غير أن النعاس سرعان ما بدأ يداعب جفونه فاستسلم للرقاد. أجل، نام لورانس ملء جفونه وهو يعلـل الـنفس بنجاح مهمته في المستقبل، نام وهو يحمل بين ضلوعه أملا كبيراً راوده منذ لمح صورة فيـصل عنـدما كـان واقفاً بباب خيمته ليستقبله ساعة وصوله.

وفي اليوم التالي، اعتزم فيصل أن يقوم بجولة تفتيشية على جنوده. ففكر بأن من اللياقـة أن يـدعو لـورانس لمرافقته.

وقبل لورانس دعوته شاكراً. وتوجه فيصل بادئ ذي بدء إلى مخيم الفرقة المصرية التي كان الجنرال وينغـات قد أرسلها من السودان لتشترك في المعارك الدائرة في الجزيرة العربية.

وكانت هذه الفرقة تتألف من جنود المدفعيين الذين كانوا مقسمين إلى وحدتين: وحدة للمدفعية الثقيلـة وأخـرى الخفيفة.

فكان لورانس، شأنه في كل مرة، ينتقد نوع الأسلحة التي كانت بحازة هذه الفرقة. غيـر أن فيـصلاً اسـتدرك الأمر بابتسامة، ثم التفت إلى القائد مولود وقال له بلهجة الواثق من نفسه:

ـ أراكم قد تأخرتم في الوصول...!

وقاطعه مولود بقوله: تأخرنا، عن ماذا يا حضرة الامير؟

فرد عليه فيصل يقول بصوت أجش:

ـ عن احتلال المدينة المنورة....

قال ذلك ولاذ بالصمت. ثم تابع يقول وقد تجهم وجهه:

ـ مولود ! هل لك أن تحدث ضيفنا عن كل ما تعرفه عن أمر تلك المعركة؟! واستجاب مولود لرغبة الأميـر فيصل، فطفق يسرد أمامه وقائع تلك الأحداث المريرة التي عاشها رجاله طيلـة فتـرة الهجـوم علـى المدينـة المنورة.

وتحدث مولود عن كل شئ، عن مقدرة الأتراك وتفوقهم على المناضلين العرب من حيـث الـسلاح والمـؤن والمال.

ومما يذكر أن المناضلين العرب كانوا لا يملكون ما يردونه به على مدفعية الأتراك المنـصبة علـيهم سـوى بضع رشاشات هزيلة.

ومما زاد موقفهم سوءاً أنهم كانوا لا يحملون بنادق كافية يستطيعون بها الدفاع عن أنفسهم.

ثم صمت مولود إذ أدرك أن الأمير فيصل يريد متابعة سرد أحداث تلك التجربة على ضوء مـا كـان يعرفـه عنها.

فقال فيصل ان الجيش التركي لم يكن متفوقاً على الجيش العربي من حيث العدد والعدة فحـسب، وإنمـا مـن حيث الخبرة والمعلومات كذلك.

فقد كان الجيش العربي تعوزه معرفة بعض المعلومات الصحيحة عن تحركات عدوه وتنقلاته وامداداته حتـى يمكنه على الأقل معرفة متى يجب عليه أن يشتبك معه بأية معركة. وقد ضرب مثلاً علـى ذلـك بقولـه: قـرر الجيش العربي ذات يوم أن يقوم بهجوم على الأتراك... وقد جاء قراره عفوياً إذ كان الأتراك في هـذه الأثنـاء

يعززون، مواقعهم باستقدام المزيد من الجنود، وذلك بعد أن وصل إلى علمهم أن الجيش العربي كان يعد العـدة للقيام بهجوم عليهم وكان أن نفذ الجيش العربي قراره فتعرض لهزيمة نكراء كان بوسعه أن يتفاداها لـو كانـت لديه فرقة استخبارات سرية تمده بين وقت وآخر بالأخبار عن حالة العدو والأهداف التي ينـوي تنفيـذها، وعمـا يقوم به من الاستعدادات والتحصينات.

ثم عاد الجيش العربي وارتكب غلطة مماثلة عندما قرر الهجوم على المدينة المنـورة بينمـا كـان الأتـراك يعززون حاميتها ويستقدمون المزيد من الجنود إليها لمساندة تلك الحامية.

ونتيجة لذلك أصيب الجيش العربي بهزيمة نكراء. وليت المشكلة توقفت عند حد التعرض للهزيمة والانـدحار، إذ ربما استطاع هذا الجيش أن يسترد شجاعته وتجميع صفوفه، فقد طارده الأتراك وقضوا على معظـم جنـوده يشجعهم على ذلك علمهم بأن العرب عزل من السلاح.

وكأني بالأتراك لم تروهم دماء الرجال الذين قضوا عليهم، فداهموا مضارب خيام قبيلة بنـي سـالم وراحـوا يقتلون الأطفال والنساء ويمثلون بهم أشنع تمثيل، مع العلم أن زعيم القبيلة أبلـغ رجـال فخـري باشـا التركـي استسلامه للأتراك ـ يقيناً منه بأن مثل هذا العمل قد ينقذ رجال ونساء وأطفال قبيلته من خطر الموت.

غير أن الأتراك تجاهلوا نداء ذلك الشيخ ضاربين عرض الحائط بجميع قوانين الحرب التي تحرم قتل الأطفـال والنساء حتى في حالة عدم الاستسلام.

وكان من الطبيعي أن تثير أخبار هذه المذبحة الرهيبة التي ارتكبها الأتراك ضد نساء وأطفال قبيلة بنـي سـالم، الحقد والسخط في نفوس جميع سكان الجزيرة العربية على الأتراك.

ازاء هذا الواقع المؤلم بدأ العرب يدركون ألا مجال بعد اليوم للتفاهم مع اعداء لا يدعون للأطفـال والنـساء حرمة، ولا يحترمون قوانين الحرب المتعارف عليها دولياً.

ولكن أنى للحقد والسخط أن يكونا كافيين لقهر جيش منظم كالجيش التركي مهما بلغ عدد رجال القبائـل الـذين سينضمون إلى صفوف الثورة العربية.

وإنما كان هناك شئ واحد له من التأثير والفعالية ما يفوق الوصف... ألا وهو تزويد المناضلين العرب بمـدافع ميدان ثقيلة، ومدافع جبلية، وأسلحة حديثة، ومؤن كافية، يستطيعون بها التصدي لهذا العدو الذي يتربص بهم فـي كل مكان.

صحيح ان جنود الفرقة المصرية الموفدة من السودان كانوا مجهزين ببطاريات ثقيلة من المدافع، غير أن هـذه المدافع كانت هزيلة بالمقارنة مع مدفعية الجيش التركي، كما ثبت في الهجوم الذي شنه العـرب علـى المدينـة المنورة، ذلك لأن مدفعية الأتراك كانت تقذف قنابلها إلى مسافة تبلغ أضعاف المـسافة التـي كانـت المدفعيـة العربية ترمي إليها.

وكان الأمير فيصل يتابع سرد قصة جيشه على مسمع من لورانس فقال إنه أوفد شقيقه الأمير علي إلى مينـاء رابغ، ذات مرة، بغية الاستفسار عن أسباب تأخر المؤن والمعدات عن الوصول في الوقت المناسب.

ولكن شقيقه عاد من هناك ليعلمه بأن القيادة العليا في مصر أصدرت أوامرها بوقف عمليات شحن المؤن والمعدات إلى المناضلين في الجزيرة العربية لسبب واه هو أن بعض رجال القبائل المناهضين للحركة العربية وبدافع ولائهم للأتراك كانوا أحياناً يتعرضون للقوافل التي كانت تنقل الإمدادات ويستولون على بعضها.

وقال فيصل انه على أية حال سيكون شاكراً للإنجليز إذا أرسلوا له مقادير من الذخيرة والأسلحة تكون كافية لشن هجوم ثان على المدينة المنورة. والجدير بالذكر أن فيصلا كان يخطط للقيام بالهجوم على المدينة المنورة من جديد.

وفي هذه المرة كان ينوي الاشتراك شخصياً في الهجوم الثاني الذي تقوم به الجيوش العربية على المدينة.

وإليكم عرضاً موجزاً لهذه الخطة الهجومية الجديدة: يهاجمها فيصل من ناحية الغرب على رأس جيش قوامه ثمانية آلاف محارب... بينما يتقدم شقيقه علي نحوها بعد أن ينطلق من ميناء رابغ على رأس جيش قوامه ثلاثة آلاف مقاتل.

وفي نفس الوقت كان من المقرر أن يقوم شقيقه زيد - وهو شقيقه من والده - بالهجوم على الفرقة التركية المعسكرة بالقرب من بئر عباس، وبذلك يشغلها عن المعارك الدائرة حول المدينة المنورة ويقطع عليها سبيل الانتقال إلى هناك لنجدة القوات التركية في المدينة المنورة. كذلك، كان على الأمير عبد الله أن يتقدم بالهجوم على المدينة من الشرق على رأس جيش قوامه أربعة آلاف محارب.

وهكذا يصبح الجيش التركي في المدينة كأنه معزول عن العالم الخارجي لأنه سيكون مطوقاً من الجهات الأربع.

وكان فيصل يتوقع لخطته هذه - حتى وإن فشلت - أن تلحق خسائر فادحة بالقوات التركية وتقطع عليها سبيل القيام بأي هجوم على مكة المكرمة حيث ترابط فرقة كبيرة من الجيش العربي بقيادة الشريف حسين نفسه.

ولا مشاحة في أن حديث فيصل قد أزاح عن لورانس الكابوس الذي جثم على صدره ليلة البارحة.

وفي هذه اللحظة بالذات كانت الشمس توشك أن تغيب فتذكر فيصل موعد الصلاة. وعلى الفور نهض من مكانه بكل هدوء وراح يستعد لتأدية صلاة المغرب، في حين وقف لورانس يراقبه عن كثب بقلب يغمره الأمل الذي كان فيصل يعكسه عليه بوقاره وهيبة طلعته وقوة أسر ملامحه... ثم طفق يتمتم في نفسه: ربي إنك أرشدتني إلى ملك العرب الذي سيتوج في دمشق!

الفصل السابع

لورانس ضابط ارتباط

قام لورانس بجولة قصيرة على بعض المواقع الجبلية التي يسيطر عليها الأمير فيصل قبل مغادرته الجزيرة العربية ليعود إلى القاهرة، ويقدم تقريره عن مشاهداته وانطباعاته فيها، لا سيما ما كان يتعلق بالجيش.

وكان أثناء تجوله وانتقاله يجري اتصالات شخصية مع بعض جنود الأمير فيصل كي يتعرف عن كثب على مدى تأثرهم بالأحداث والظروف السائدة في الجزيرة العربية وكم كانت دهشته عندما وجدهم في حالة نفسية

حسنة للغاية فضلاً عن ولائهم العظيم للشريف حسين، وإيمانهم العميق ببداية الثورة التي كانوا يحملـون لواءهـا ضد الأتراك.

إلاّ أنه شعر بالقلق من شئ واحد، وهو الأهم، وأعني بذلك نوع الأسلحة التي كانوا يحملونها للدفاع بهـا عـن أنفسهم ضد الأتراك، كما عرفت أن القوات التركية كانت على درجة كبيرة من التنظيم ومجهزة بأحـدث أنـواع الأسلحة والمعدات، ومن هنا بدأ يفكر بضرورة تزويد الجيوش العربية بأسلحة حديثة، وذخيرة كافيـة، وأمـوال وفيرة تضمن للثورة استمرارها وتحقيق أهدافها.

ومما كان يزيده تصميماً على تنفيذ ذلك أنه وجد قلوب المناضلين العرب زاخرة بالحماسة والولاء.

وبعد ذلك، قفل لورانس عائداً إلى جدة حيث علم أن الجنرال وينغات الذي كان سيرفع إليه تقريره عـن رحلتـه هذه، بصفته القائد العام للقوات البريطانية في شبه الجزيرة العربية ـ كان قد غادر القاهرة وتوجـه منهـا إلـى مدينة الخرطوم في السودان.

ولكنه التقى هناك الأميرال ويميس، قائد القوات البحرية في مصر. والجدير بالذكر ن أميرال ويميس كان مـن المتحمسين للثورة العربية، ومن المدافعين عنها في أوساط القيادة العامة في القاهرة.

فلما عرف ويميس أن لورانس كان يقوم بدراسة خاصة للتعرف على أوضاع الثورة، وافق على أن يـصطحبه معه إلى الخرطوم ما دام سيتوجه إلى هناك بغية التشاور مع زميله الجنرال وينغات حول الأحداث الراهنة.

إلاّ أنه اشترط عليه أن يرتدي ملابسه العسكرية وألا يخرج على ظهر السفينة بملابسه العربية كما فعـل مـرة أثناء سفره بإحدى السفن الحربية من ميناء رابغ إلى جدة.

وهنا حاول لورانس أن يدخل في روع الأميرال بأن ظهوره بالملابس العربية كان ضـرورياً لإثبـات وقوفـه بجانب العرب في نضالهم ضد الأتراك.

ومما يذكر أن لورانس بالإضافة إلى حماسته البالغة للقضية العربية ومودته الصادقة التي يبديها نحو القـضية العربية، كان يكثر من الظهور باللباس العربي، سواء في القاهرة أو غيرها مـن المـدن العربيـة والأجنبيـة ـ وخاصة في باريس أثناء انعقاد مؤتمر السلام، لكي يلفت الأنظار إلى شخصه أكثر من اللزوم.

وفي هذه الأثناء، كانت أنباء الخطة الجديدة التي يزمع فيصل أن ينفذها ـ وتقضي بـشن هجـوم جديـد علـى المدينة المنورة ـ قد وصلت إلى مسامع الجنرال وينغات.

فداخله المزيد من الإرتياح والطمأنينة. ذلك لأن الجنرال وينغات، وكذلك الأميرال ويميس، كانا يتوقعان لثـورة الشريف حسين النجاح في القريب العاجل. والجدير بالذكر أن وينغات وويميس كانا ينظران إلى الثـورة العربيـة نظرة تختلف عن نظرة غيرهما من ضباط القيادة العليا.

إلاّ أن عيب وينغات الوحيد أنه كان جندياً شريفاً، ولم يكن سياسياً محنكاً. ولذا فإنه كان يجهل معرفة الأسـباب التي ستجعل العرب يشعرون بالنفور والضغينة من وجود بعض القوات الأجنبية بين ظهرانيهم.

وذلك لأنه كان يسعى لتنفيذ خطة كانت تقضي بإرسال قوات كبيرة من البريطانيين والفرنـسيين إلـى الحجـاز بغية مساعدة الأمير فيصل في ثورته ضد الأتراك دون أن يقدر العواقب التي تترتب عن وجودها هنـاك. كـذلك

كانت تلك القوات، حسب خطة وينغات، ستتوجه فيما بعد نحو الشمال حتى تلتقي بالقوات الرئيسية التابعة للقيادة البريطانية لتشترك معها في الزحف على سوريا.

وكان الكولونيل بريموند، ممثل فرنسا لدى العرب في جدة، يحاول ما أمكنه ذلك أن يشجع الجنرال وينغات على تنفيذ هذه الخطة إذ كانت خطوطها تلتقي مع خطوط سياسة بلاده الطامحة إلى السيطرة على سوريا، وربما حققت له حلمه بتعيينه حاكماً عليها.

ذلك ما كان يدبر له بريموند في السر، أما في الظاهر فقد كان يحاول أن يدخل في روع العرب أن القوات الأنجلو - فرنسية لن توجد في بلادهم إلاّ لتساعدهم على استعادة حريتهم والظفر باستقلالهم.

ولا مشاحة في أن لورانس كان مدركاً لما كان بريموند له في الخفاء: فقد سبق له أن اجتمع به في جدة، وسرعان ما بدأ أحدهما يشعر بكراهية نحو الآخر.

ولذا عارض لورانس بشدة عندما قابل الجنرال وينغات، فكرة إرسال أية قوات أجنبية إلى أراضي الجزيرة العربية.

وقال في معرض معارضته لتلك الفكرة ان وجود مثل هذه القوات هناك لن يحقق النتائج المرجوة، بل ان العاقبة ستكون وخيمة ليس فقط بالنسبة إلى مجرى الحرب برمته، بل كذلك بالنسبة للثورة العربية.

فقد كان يتصور بأن وجود قوات أجنبية في الجزيرة العربية سوف يحفز رجال القبائل على العودة إلى منازلهم وإلقاء السلاح من أيديهم.

وهذا يعني أنهم سيكفون عن متابعة النضال. ثم أخذ يشرح له بوضوح الأشياء التي يرجو فيصل الحصول عليها من الإنجليز لدعم حركته.

فقد كانت مطالب فيصل تنحصر في المال والسلاح والمؤن بالإضافة إلى نفر قليل من الضباط البريطانيين لتدريب رجال القبائل على كيفية استعمال الأسلحة الحديثة.

ومثل هذه المطالب ستكون كافية، في حالة تنفيذها، لأن تعزز حركة الأمير فيصل وتزيده صموداً وثباتاً في نضاله ضد الأتراك إلى ما لا نهاية.

غير أن نظرة الجنرال وينغات إلى الحرب الدائرة في الجزيرة العربية كانت تختلف عن نظرة لورانس، فقد تصور وينغات أن لورانس كان يسعى إلى تعزيز قوة العرب بلا مبرر، وإعطائهم قوة دفاعية لا يستهان بها أبداً.

ومن هنا كان مصدر معارضته لتنفيذ ما جاء في تقرير لورانس من توصيات بشأن ثورة الشريف حسين.

وأدهى من ذلك أنه قرر أن يتجاهلها كلياً، ثم بعث ببرقية إلى القيادة العامة في القاهرة طلب فيها إرسال عدة فرق عسكرية من القوات الحليفة إلى الحجاز فوراً.

ومن هنا كان شعور لورانس بخيبة الأمل يحز في أعماقه. وأخيراً قرر أن يتوجه إلى القاهرة، بعد أن يئس من إقناع وينغات بصواب فكرته، عساها تستطيع إقناع الجنرال وينغات بعدم تنفيذ خطته.

تلك الخطة التي اعتبرها لورانس هوجاء لا بد لها أن تؤدي إلى تعكير صفو العلاقات بين بريطانيا والعرب، وتقضي على كل أمل للقيام بعمل مشترك فعال لدعم الثورة. ولذا أسرع بالسفر إلى مقر القيادة العامة في

القاهرة وهو مصمم على أن يدافع عن فكرته ويوضح قضيته، أمام السر "ارشيبالد موراي" الذي كان قائداً عامـاً للقوات البريطانية.

وكم كانت دهشته عندما استقبله السر موراي بحرارة. والواقع أن لورانس كان قد مهد أمامه طريق الوصـول إلى القيادة العامة بتقريره الذي بعث به إلى الكولونيل كلايتون وضمنه رأيه السديد بعدم إنزال أية قـوات حليفـة إلى شاطئ الجزيرة العربية.

ومما يذكر أن تقريره وجد صدى طيباً لدى العديد من ضباط القيادة وأركانها، لا سيما وإن القيادة العامـة لـم تكن في وضع يسمح لها بالاستغناء عن بعض قواتها وإرسالها للقيام بأية مغامرة غير مأمونة العواقب.

وفضلاً عن ذلك، فقد كان الأمل ضئيلاً بالحصول على موافقة الحكومة البريطانية بـشأن اتخـاذ مثـل هـذه الخطوة نظراً لانشغالها عن أحداث الجزيرة العربية بالأحداث الدامية التي كانت تمثل في أوروبا.

ناهيك عن أن المستر لويد جورج، رئيس الحكومة البريطانية، لم يكن شديد العطف على القضية العربية.

ومن هنا شعرت القيادة العامة أن لورانس قد بعث بتقريره في الوقت المناسب بحيـث جـاء ليـدعم فكرتهـا المناوئة لفكرة الجنرال وينغات وتوصياته الخاطئة.

أما لورانس الذي كان مدركاً لأهمية هذا التحالف الجديد، لا سيما بينه وبين السر مـوراي والجنـرال لينـدون بيل، رئيس أركانه، فإنه عرف كيف يجني ثماره قبل أني فوت الأوان. وغني عن البيان أن الجنـرال بيـل وافـق على اقتراحه الرامي إلى إرسال المؤن والمعدات للعرب، وليفاد بعض الضباط لتدريبهم على كيفيـة اسـتعمال الأسلحة.

وأخيراً، تلقى لورانس تعليمات بالعودة إلى الحجاز بعد أن عين ضابط ارتباط بين القوات البريطانيـة وقـوات الأمير فيصل.

وحاول لورانس أن يحتج على تعيينه لهذا المنصب متذرعاً بأنه غير كفء لتولي مثـل هـذا المنـصب الـذي يحتاج إلى رجل عسكري، وليس إلى رجل مثله صرف معظم حياته بين الكتب والدراسات العلمية، ومـع ذلـك فإنه لم يذهب بعيداً في احتجاجه. فقد كان حريصا على ألا يحتج بشدة لئلا تضيع عليه هذه الفرصة إلى الأبد.

وهكذا، لما كرر الكولونيل أمره للورانس بقبول المهمة، وجدناه يسرع في الخروج من مكتبه وهو لا يـصدق أن أحلامه كانت ستحقق بمثل هذا التسلسل الرائع والسرعة المذهلة، خرج من المكتب وهو يشعر بنشوة عارمـة لا يشعر بها إلاّ أولئك الذين تتغلب مطامحهم على مشاعرهم بحيث يصبحون شديدي اللهفة على ترجمتهـا إلـى حقائق ملموسة لدى أول فرصة تتاح لهم.

وكيف لا ينتشي لورانس من خمرة هذه اللحظة الحاسمة في تاريخ حياته ما دام سيعود الآن إلى شـبه الجزيـرة العربية لا بصفته في مقام فرد بل كمبعوث أوفدته القيادة البريطانية من مصر، كي يمثلها هناك بصفة رسمية.

وهكذا وافقت القيادة البريطانية أخيراً على تعيين لورانس لتوجيه خطى الأمير فيصل وقيـادة الثـورة العربيـة نحو تحقيق الهدف المنشود، ألا وهو احتلال مدينة دمشق.

ومع ذلك إن هذا الحلم الذي ظل يراود أحلامه بأن يخلق ملكاً للعرب ويتوجه في مدينة دمـشق، لـم يـشعره بالثقة المطلقة في هذه المرحلة المبكرة من مهمته، بضمان عرش العرب لسيده المختار، ألا وهو الأمير فيصل.

ذلك لأنه عندما كان في القاهرة علم بوجود معاهدة سرية أطلق عليها اسم معاهـدة سـايكس ـ بيكـو، هـذه المعاهدة التي اتفقت بريطانيا وفرنسا بموجبها على أن تشكلا حكومات عربية مستقلة في كل من دمـشق وحلـب والموصل، وذلك بعد أن يتم لهما النصر النهائي على الإمبراطورية العثمانية وبحرها.

وكان الهدف من وراء تلك المعاهدة تقسيم ما سيتبقى من البلاد العربية بين كل من بريطانيا وفرنـسا وروسـيا، وتحويلها إلى محميات تضمن لهم سلامة مواصلاتهم من البحر الأبيض المتوسط إلى المحيط الهندي.

وغني عن البيان أن هذه التدابير كانت تناقض الوعود التي أعطاها السير هنري مكماهون، خليفة كيتـشنر فـي مصر، للشريف حسين، قبل اندلاع الثورة العربية.

تلك الوعود التي كانت تعني لدى الشريف حسين، وجميع أولاده، وأنصارهم ولورانس، إعطاء العـرب، كـل العرب، حريتهم، واستقلالهم ووحدتهم، حالما يتم دحر الأتراك وطردهم من البلاد.

وفي أوائل شهر تشرين الثاني، عاد لورانس إلى ميناء ينبع. وينبع هو ذلك الميناء الـصغير الـذي يقـع علـى ساحل البحر الأحمر إلى الشمال من ميناء رابغ. وهنا كادت أحلام لورانس الحلوة تتبخر من ذهنه، لأنـه فـوجئ بمظاهر الهزيمة منعكسة على وجوه رجال الأمير فيصل الذين تجمعوا في ينبع وكم كان ذهوله عندما علـم بـأن جيش الأمير فيصل تعرض لهزيمة شنيعة أخرى واضطر للإنسحاب إلى ينبـع حـاملاً معـه مآسـي الهزيمـة وويلاتها.

ومما يذكر أن هجوم الأتراك على قوات الأمير فيصل كان مفاجأة غير سارة لفيصل إذ أنه جاء قبـل إحكـام عملية تطويق كان جيشه وجيوش إخوانه سيقومون بها لتضييق الخناق علـى القـوات التركيـة وحـصرها فـي المدينة المنورة، ومنعها من الوصول إلى أية منطقة تقع على الساحل.

وهكذا استطاع الأتراك ليس فقط أن يفلتوا من الحصار الذي كان سيضرب عليهم بل أن يدحروا جيش فيـصل ويرغموه على التراجع إلى ميناء ينبغ، وأسر الأمير زيد، وإرغام قوات الأمير علي على البقاء في مينـاء رابـغ رغم أنها كانت تقف على أهبة الاستعداد للتحرك باتجاه المدينة المنورة لتنفيذ دورها في الهجوم.

وحدث لقوات الأمير عبد الله ما حدث لقوات علي إذ أنها فوجئت بالهجوم التركي فترددت في التحرك من مكة المكرمة.

وكان الجو في ينبغ مشحوناً بالمخاوف، وكل شئ فيه ينذر بشر مستطير لولا بقية من أمل تركه فـي النفـوس منظر بعض المدرعات البريطانية التي ألقت مراسيها في ميناء ينبع.

ومما كان يزيد الحالة سوءاً أن أبناء الشريف حسين كانوا يوجهون التهم إلى بعضهم بعضاً، ويحاول كل مـنهم أن يضع مسؤولية الهزيمة التي لحقت بقواته، على الآخر.

وعندما عاد الأمير علي إلى ميناء رابغ كان يهدد ويتوعد بأنه سيكف عن متابعة النضال. والأدهـى مـن كـل ذلك أن كثيراً من المناضلين العرب فروا بأسلحتهم عائدين إلى منازلهم. وقد حدث كل ذلك بينما كانـت بعـض السفن الحربية تفرغ في ميناء شحنات كبيرة من مختلف الأسلحة والإمدادات والذخيرة.

كما نقلت بعض الضباط البريطانيين الذين أوفدتهم القيادة العليا لتدريب أفراد الجيش العربـي علـى اسـتعمال سائر أنواع الأسلحة وأساليب الحرب الحديثة.

أما لورانس فإنه وجد نفسه عاجزاً عن القيام بأي عمل من شأنه أن يعيد إلى النفوس طمأنينتها وسلامتها ما لـم يهتد إلى مكان الأمير فيصل ويتباحث معه في الحلول اللازمة لوضع حد لهذا التدهور الخطير في الموقف.

والجدير بالملاحظة أن لورانس ما كان ليتصور أن العرب كانوا سيشعرون باليأس إلى هذا الحد الذي أقعـدهم عن النضال ضد أعدائهم.

أجل، فقد شعر لورانس بخيبة أمل مريرة تحز في أعماقه وهو يشاهد آثار تلك الهزيمـة بـارزة أمامـه علـى وجوه من أوفد لمساندتها ومساعدتها وقال في نفسه: ترى، أتكون هذه بداية النهاية؟ لا أبـداً! والواقـع أن هـذه المظاهر البائسة لم تكن إلاّ لتزيده قوة في التصميم على تحقيق المستحيل لمحو آثار هذه الوصـمة التـي كـادت تلوث مهمته بالعار قبل أن يباشر بها

وعلى الرغم من جميع هذه المآسي والنكسات التي حلت بقوات الأمير فيصل، لم يجد اليأس ثغرة ينطلق منهـا إلى قلب الأمير، بل ظل كما عهده لورانس... دائم الابتسامة، طافح القلب بالأمل لدرجة أنه لـم يتـأثر بفـرار الكثير من جنوده وعودتهم إلى منازلهم.

فقد كان فيصل يدرك أكثر من سواه مدى التأثير الذي تركته الشائعات المغرضة التي كـان صـغار النفـوس يروجونها بين رجاله.

وسرعان ما عاد الهدوء إلى نفس لورانس بعد أن شاهد ما شاهده على ملامح فيصل من أمل عـارم وعزيمـة لا ينتزعان مهما بلغت حدة النكسات والنكبات. وكم كانت دهشته عندما وجد فيصلا يطوف على رجاله ويحـاول أن يعيد إلى نفوسهم الأمل، وأن يرفع من معنوياتهم التي كادت تحطمها تلك الهزيمة الثانية.

يا للروعة! ان فيصل الذي تعرض هزيمة نكراء كان يطوف على رجاله، ويصغي إلى شـكاواهم ومـشاكلهم ويحاول أن يحلها لهم، وأن يقضي على جذور الشائعات المغرضة التي كادت تقضي على معنوياتهم.

تلك الشائعات التي كانت تقول ألا أمل هناك للجيوش العربية لمتابعة الحرب إثر الهزيمة.

وهكذا قضى فيصل ولورانس بضعة أيام بذلا خلالها جهودات فائقة حتى تمكنا من إعادة الطمأنينة إلى نفـوس جميع الجنود والمناضلين من رجال القبائل.

ثم حولا جهودهما إلى النواحي الأخرى المتعلقة بمجرى الحرب، فكانا يمضيان الساعات فـي إعـادة تنظـيم صفوف المحاربين وتدريبهم على استعمال الأسلحة، وصيانتها، والإشراف علـى أعمـال حفـر الخنـادق فـي المناطق الأمامية.

ثم افتتحا مراكز جديدة لتدريب رجال القبائل على كيفية استعمال الأسلحة الخفيفة، وتفجير الديناميت.

وكان الضباط الجدد يساعدونها في تنفيذ كل ذلك. وكان الجنود الآن يقبلون على خيمـة الأميـر فيـصل فـي المساء وكأني بهم يجيئون للتزود منه بمعين أكثر من الثقة بالنفس والأمل بالحياة.

بعد ذلك، كان فيصل ولورانس يتناولان طعام العشاء معاً، ثم يحتسيان بعض القهوة العربية، إذ ليس هناك شـئ يروي الغليل ويقضي على آفة العطش في الصحراء، وخاصة بعد الأكل، كالقهوة العربية الصرفة.

ثم كانا يستريحان ساعة أو بعض ساعة يقومان بعدها بالطواف على الجنود وهم نيام في خيامهم إمعانـاً منهمـا في الاطمئنان على راحتهم وسكينتهم وانضباطهم.

والجدير بالذكر أن لورانس كان يأبى على نفسه أن يدع فيصل يقوم وحده بجميع تلـك المهمـات مهمـا كـان يصيبه من تعب وإرهاق، ومهما كان يشعر به من حاجة إلى النوم. ذلك لأنه كان مـدركاً بأنـه مـا دام فيـصل محتفظاً بإرادته ووعيه فسيبقى قادراً على أن يقود جيشه إلى النصر النهائي.

هذا من جهة، ومن جهة أخرى كان الأتراك يستعدون لمتابعة هجومهم على المنطقة التي انسحب إليها فيـصل سعياً منهم للإلقاء به وبقواته في البحر.

وقد كان فيصل ولورانس يتوقعان ذلك. وفي ذات ليلة، أطلقت صفارات الإنذار. فقد وردت أنباء من محطـات الاستطلاع تقول أن قوات العدو أصبحت على مسافة ثلاثة أميال فقط من ميناء ينبع، وأنها كانت تزحـف علـى المدينة.

فصدرت الأوامر للجنود بالتوجه إلى المراكز الدفاعية، فتوجهوا إلى هناك بكل هدوء ورباطة جأش خلافاً لمـا كانوا يفعلون في الماضي كلّما اقتربت ساعة المعركة إذ كانوا يتدافعون ويتزاحمون وهم ينشدون أناشيد الحـرب أعلى أصواتهم، الأمر الذي كانوا يتعرضون بسببه لأوخم العواقب.

وهذا ما أوحى لفيصل بأن التدريبات العسكرية التي كانوا يتلقونها بدأت تعطي ثمارها. وهكذا، فقد سـاد جـو المعسكر صمت عميق أشبه بالصمت الذي يسبق هبوب العاصفة، وقبع المناضلون في الخنادق يقبـضون علـى البنادق بأيديهم، ويضعون أصابعهم على زنادلتها، ولبثوا منتظرين الأوامر حتى يبدأوا بإطلاق النار.

إلاّ أن هذا الجو الصامت أدخل الخوف إلى نفوس الأتراك. فقد وجدوا أنفسهم في جو مرعب لم يسبق لهـم أن عهدوه من قبل.

ومما كان يزيد الخوف في نفوسهم أن المدرعات البريطانية الموجودة في البحر كانت تسلّط أضواء بطارياتهـا الكشافة على المنطقة التي يتوقع أن يشنوا منها هجومهم على المدينة.

والواقع أن الأتراك فوجئوا بهذا الجوّ الصامت المخيف يرافق هجومهم على القوات العربية التي لم تتعوّد فـي الماضي أن تبسط مثل هذا الستار المفرّع على تحركاتها.

وكان لا بد لهم أن يشعروا بالرعب، وأن يحسبوا للمعركة القادمة ألف حساب، لا سيما أن الأضواء الـساطعة التي سلطتها المدرعات البحرية عليهم قد كشفت مواقعهم بصورة واضحة كل الوضوح، وجعلتها تحت متنـاول مرمى بنادق العرب.

من هنا بدأوا يتصورون بأن القوة العربية التي كانت تنتظرهم في ينبغ لابد أن تكون أكثر منهم عـدداً وأوفـر عدّة.

وهكذا انطلت عليهم هذه الحيلة بفضل التكتيك الجديد الذي اتبعه العرب الآن وطبقوه بحذافيره، فقـرر قائـدهم الانسحاب تحت جنح الظلام قبل أن يلحق بهم العرب ويقضوا عليهم.

ومع إشراق الشمس انكشف العرب كيف أن عدوهم خشي من مجابهتهم فقرر الانسحاب دون أن يطلق علـيهم ولو رصاصة واحدة.

وكانت ساعة مشهورة تخللها تبادل الابتسامات والتحيات بين هؤلاء المناضلين. وبعد فترة قصيرة، وصل فيصل ولورانس إلى المراكز الدفاعية وأخذا يشجعان الجنود على النضال ضد عدو ليس أقوى منهم بأساً ولا أرفع نسباً لا سيما وأنهم قد شاهدوه بأم أعينهم كيف ينهزم أمامهم دون أن يستعملوا أي سلاح.

والواقع أن انسحاب القوات التركية وتراجعها إلى الوراء كان بمثابة هزيمة فظيعة قلّما تعرضت لمثلها طيلة سني الحرب في الحجاز.

ان تردّد الأتراك في الهجوم على ميناء ينبع، وتخوفهم من التعرّض للهزيمة، كان تحولاً حاسماً طرأ على مجرى أحداث الحرب في الحجاز.

الفصل الثامن

تقدم في الحجاز

كانت النية الآن تتجه إلى مطاردة الجيش التركي الذي كان يتقهقر حتى وصلت طلائعه إلى أبواب ميناء ينبع. ولذا فقد توجّه لورانس إلى رابغ للتشاور مع الكولونيل ويلسون حول الخطوة التالية التي يجب عليها تنفيذها.

وكم كانت دهشته إذ وجد أن الكولونيل بريموند قد سبقه في المجيء إلى مقر الكولونيل ويلسون الذي كان متغيباً عن مكتبه في مهمة رسمية، وهدفه ان يحاول إقناعه بتنفيذ خطته الرامية إلى شنّ هجوم أنجلو - فرنسي على المدينة المنورة وكان عذره الوحيد لتبرير ذلك هو أن الثورة العربية قد منيت بالفشل، وأن الأوان قد حان لبريطانيا وفرنسا كي تأخذا على عاتقيهما مهمة متابعة الحرب، وتطهير أراضي الحجاز من القوات التركية، ومتابعة زحفهما على مدينة دمشق.

هذا ما كشف الكولونيل بريموند النقاب عنه أثناء حديثه مع لورانس، ولكنه لم يذكر له شيئاً عن الأوامر التي بعثت بها حكومته إليه.

والجدير بالذكر أن حكومة باريس شددت على ممثلها هذا بضرورة السعي للحصول على ضمانات وتأكيدات من الحكومة البريطانية بعدم التعرض للخطوات التي ستتخذها في سبيل الاستيلاء على سوريا.

وهذا يعني استعجال تنفيذ معاهدة سايكس - بيكو. ونعتقد انه كان يمهّد السبيل لذلك لأنه لم يمانع في أن تستولي بريطانيا على العراق كمكافأة على الجهود التي كانت تبذلها في الحرب. وإعطاء الشريف حسين منطقة الحجاز يقيم فيها مملكة له، وتكون بمثابة، مكافأة له مقابل خدماته. ثم قال مراوغاً:

" لا أحسبك تؤمن إيماناً قوياً وعميقاً بقدرة هؤلاء المتوحشين - يقصد العرب - على إدارة دفة شؤونهم الداخلية... صدقني لأنني أعرفهم معرفة أكيدة ... فقد أمضيت في المغرب عدة سنوات كنت خلالها قائداً على فرقة كبيرة من الجنود العرب..."

فقاطعه لورانس يرد عليه بحدّة ويقول: "أن بوسع هؤلاء العرب الذين تحاول النيل منهم أن يناضلوا بضراوة ضد الأتراك، وأن يثبتوا بأنهم في مستوى الثورة التي يحملون لواءها ضدهم لو أنهم فقط يعطون الفرصة الكافية والمساعدة اللازمة لتحقيق ذلك".

وما دام هذا هو إيمانه بقدرة العرب وشجاعتهم، فلا عجب ان نجده يسعى جهده لإعطاء الجيش العربي حريته الكاملة في النضال والعمل، ومطاردة فلول الجيش التركي الذي كان يتقهقه وينسحب من مواقعه الرئيسية.

ولا عجب أيضاً إذا وجدناه يرّد بحدة وعنف على مزاعم الكولونيل بريموند، ويحاول ان يحبط مساعيه الرامية إلى إرسال قوات انجلو - فرنسية وانزالها إلى بر الحجاز، ولو عن طريق القوة.

وذلك لأنه كان يدرك الهدف الذي كان يسعى بريموند إلى تحقيقه، فقد كان هذا يهدف إلى أن يدخل في روع رجال شريف مكة المكرمة وأنصاره أنه - أي الشريف - كان خائناً حتى يتخلوا عنه ويتركوه تحت رحمة الحلفاء.

واشتد النقاش بين لورانس والكولونيل بريموند إلى حد أنهما كانا في أحيان كثيرة يوشكان أن يشتبكا بالأيدي، وذلك بدافع تأثير ذلك النقاش على أعصاب كل منهما، وبسبب الحماسة البالغة التي كانت تسيطر عليهما، وبسبب اقتناع كل منهما اقتناعاً أعمى بصواب رأيه وخطته. وامتد النقاش بينهما ساعات طوالاً دون أن يتمكن أحدهما من إقناع الآخر بما كان يعتقده صواباً.

عند هذا الحد من النقاش وصل الكولونيل ويلسون وراح لتوه يضم صوته إلى صوت لورانس ويدعم فكرته. ولكن ويلسون كان يحمل في جعبته خبراً مزعجاً كان قد تلقّاه برقياً من القيادة العامة في القاهرة.

فقد بعثت القيادة العامة ببرقية إلى ويلسون ذكرت فيها أن السر موراي قد قرر في آخر لحظة أن يستبقي في القاهرة فرقة مختلطة من الجنود الإنجليز والفرنسيين بغية تعزيز العمليات الحربية في الحجاز متى اقتضى الأمر ذلك.

وفهم أيضاً أنه وافق على إيفاد بعض الضباط إلى الحجاز، وذلك للبحث في تنسيق العمليات الحربية بين العرب والإنجليز. وأشارت البرقية إلى أن الضباط كانوا في طريقهم إلى الحجاز.

إلاّ أن لورانس تصوّر بأن هذا الإنقلاب المفاجئ سيرجّح كفة الكولونيل بريموند عليه، وربما أدى إلى فشل خطته، وعليه فقد قرر أن يقوم بخطوة حاسمة تكون كفيلة بعرقلة كل محاولة تستهدف إحباط الخطة التي كان يزعم تنفيذها.

ومما يذكر أن أفكار لورانس وويلسون كانت تلتقي حول فكرة الأخذ بزمام المبادرة من الأتراك. وكانت الأحداث خير ما يشجعهما على تنفيذ أية خطة لقلب الأوضاع رأساً على عقب، وتحويل وجهة الأحداث لصالح العرب والحلفاء، وذلك لأن وضع الأتراك في الجزيرة العربية كان سيئاً للغاية.

ففضلاً عن المرض الذي كان يفتك بالجنود الأتراك، كان الرعب يتغلغل في نفوسهم بسبب الهزيمة التي لحقت بهم في ينبع، وبسبب تزايد قوة العرب وارتفاع مستواهم من حيث التنظيم والانضباط العسكريين، وتوجيه دفة المعارك الحربية.

ومما كان يقلق القيادة التركية أن كميات المؤن المخزونة تكاد أن تنفذ كلها، وفي ذلك ما يؤثر على معنوية من تبقى من الجنود الأتراك في حالة جسدية مناسبة لمتابعة الحرب والقتال.

وعلاوة على كل هذه الأمور التي كانت تنشر الذعر والرعب في صفوف الجنود الأتراك، فإن أعدادا وفيرة من الرجال - ناهيك عن المواشي - كانت تلاقي حتفها بصورة متزايدة، وبسرعة جنونية، ويوماً بعد يوم.

كذلك، كان قد أشيع خبر مفاده أن فخري باشا، قائد القوات التركية في الجزيرة العربية، كان منهمكاً في وضع الترتيبات اللازمة لنقل جنوده من مواقعها الحالية إلى مشارف المدينة المنورة وتوزيعهم هناك على مراكزها الدفاعية.

ولذلك، فقد رؤي بأن الفرصة كانت سانحة، أكثر من أي وقت مضى، لمطاردة فلول وقات العدو وهي متقهقرة، منهوكة القوى، خائرة العزائم، فتنتشر الفوضى بين صفوفها.

وكانت الخطة التي وضعها ويلسون تقضي بأن على قوات الأميرين زيد وعلي أن تتابع زحفها على مواقع البحر الأحمر وتحاول الاستيلاء عليها والتمركز فيها، وأن على قوات الأمير عبد الله أن تقوم بحركة التفاف سريعة حول المدينة المنورة فتهدد بذلك سلامة الخط الحجازي الذي يعتبر شريان المواصلات الرئيسي بين دمشق والمدينة.

أما الأمير فيصل، فكان عليه أن يزحف على ميناء وجه الواقع على البحر الأحمر، والذي يبعد مسافة مائة وسبعين ميلاً إلى الشمال من ميناء ينبع، ومحاولة احتلاله. وكانت هناك ست مدمرات بريطانية بقيادة القبطان بويل، ستتجه في البحر شمالاً، وبمحاذاة الخط الذي كانت قوات الأمير فيصل ستسلكه في هجومها على ميناء وجه.

وكانت تلك المدرعات البحرية تقل خمسمائة جندي عربي وبضع وحدات من جنود البحرية البريطانية. وكان على هؤلاء أن يقوموا بالهجوم على ميناء وجه من البحر لحماية ظهر قوات الأمير فيصل وهي زاحفة عليه من البر.

وقد عين يوم الثامن والعشرين من شهر كانون الثاني موعداً لتنفيذ جميع تلك العمليات العسكرية.

وكانت السفن البريطانية، بالإضافة إلى عملية إنزال الجنود من البحر، ستقوم بتزويد القوات البرية بالمؤن ومياه الشرب، لأن مياه الشرب كانت نادرة الوجود في تلك البقاع، ونظراً لتحريم الشرب من مياه تلك الآبار بعد أن ثبت بأن الأتراك قد لوثوها بالسموم.

وكان يتصور كل من لورانس وويلسون أنه إذا ما كتب النجاح للهجوم على ميناء وجه، وتم الاستيلاء عليه، فإن الأتراك سيصبحون في وضع لا يحسدون عليه البتة في الحجاز وبالتالي سيصبح بقاؤهم هناك محفوفاً بالمخاطر.

وعندئذ، فلن يبقى تحت سيطرة الأتراك غير ميناء العقبة الذي يبعد مسافة خمسمائة ميل تقريباً عن المدينة المنورة.

وعلى أية حال، فإذا ما تمكن الحلفاء من الاستيلاء على ميناء وجه، كما نجحوا سابقاً في الاستيلاء على ينبع ورابغ وجدّة، فإن المشكلة قد تسهل كثيراً بالنسبة لتموين قوات الشريف حسين المتمركزة في تلك الأماكن التي تستطيع منها أن تهدد حامية المدينة المنورة، وسلامة خط الحجاز الحديدي.

ولكن بقيت هناك عقبة وحيدة كانت تحول دون المباشرة بتنفيذ هذه الخطة، إذ كان يعارضها الأمير فيصل، كما أعرب عن رأيه بذلك أمام لورانس وويلسون عندما اجتمعا معه في ينبع لمحاولة اقناعه بفوائدها.

وكان الأمير فيصل، بغض النظر عن ثقته بمقدرة رجاله على الدفاع عن أنفسهم ضدّ أي هجوم يشنه الأتـراك، واطمئنانه إلى ولائهم، غير مقتنع بالفوائد التي توخاها لورانس وويلسون من الخطة المذكورة بعد تحـول قواتـه من وضع هجومي إلى دفاعي.

كذلك فإنه لم يتقنع بالفوائد المتوخاة من خروج جنوده من ميناءي رابغ وينبع بغية شن هجـوم علـى مينـاء لا يعرف شيئاً عن وضع القوات التركية التي كانت ترابط فيه، ناهيك عن المسافة الطويلة التي كـان ينبغـي علـى رجاله أني قطعوها قبل وصولهم إليه، وعدم توفر مياه للشرب على طول تلك المسافة.

ويذكر لنا لورانس كيف استطاع أن يقنع الأمير فيصل بالنتائج الحميدة المتوخاة من خطة ويلـسون فـي حالـة تنفيذها فأكد له بادئ ذي بدء، أن القوات البحرية البريطانية كانت ستبقى قريبة من مينـاءي ينبـع ورابـغ كـي يتسنى لها الدفاع عنهما في حالة قيام الأتراك بالهجوم عليهما.

كما وافق معه على إدخال بعض التعديلات على دور قوات الأمير عبد الله من الخطة المذكورة.

فقد أصبح دور قوات الأمير عبد الله أن تقوم بحماية قوات فيصل من الخلف، وأن تؤمن له خط التراجع إذا مـا وجد هناك حاجة إلى التراجع.

كما أصبح عليه أن يشغل الأتراك بمعارك جانبية مع قواته في الجهة الشمالية من المدينة المنورة بغيـة ابعـاد الخطر عن جيش فيصل، وان يتصدى للقوافل الوافدة إليها من منطقة الخليج العربي.

وإزاء جميع هذه الضمانات، وافق الأمير فيصل على الخطة التي نوى الإنجليز تنفيذها ضدّ القوات التركية.

وبعدئذ، توجّه لورانس إلى مقرّ الأمير عبد الله كي يحصل منه على وعد قاطع بتنفيذ دوره في تلك الخطة، ثـم عاد إلى مقرّ الأمير فيصل، في الرابع عشر من شهر كانون الثاني، كي يكون إلى جانبه فـي مقدمـة الهجـوم المنتظر.

وهذه صورة حقيقة عن مسيرة قوات الأمير فيصل، بقلم لورانس نفسه:

"بدت المسيرة رائعة منذ أن تحركت... فقد سار الرجال وهم ينشدون الأناشيد الحماسـية بأصـوات مجلجلـة مدوية كانت تخترق عنان السماء...

وكانوا وهم ينشدون لا ينسبون أن يمتدحوا الأمير فيصل ويذكرون أشياء كثيرة عن خصائله وخـصائل أسـرته الحميدة... وكان فيصل يسير في الطليعة... بينما كان الشيخ شرف الذي اعتمر بكوفية حمراء اللـون، وتـسربل بعباءة كان لونها أقرب إلى لون الحنّاء منه إلى الأحمر، كان الشيخ شرف هذا يسير إلى يمينه، وكنت أنـا أسـير إلى شماله.... وقد ارتديت عباءة بيضاء اللون وتمنطقت بحزام قرمزي... وسـار خلفنـا ثلاثـة رجـال كـانوا يرفعون بيارق حمراء اللون بأيديهم ... وتبعهم حملة الطبول وهم يقرعون بها الألحان المشجّعة... تـبعهم عـدد كبير من المقاتلين كان عددهم يربو على اثني عشر ألف مقاتل... فيا للروعة!! تصوّر كيف سيكون مـشهد اثنـي عشر ألف رجل وجمل وهم يسيرون في صفوف غاية في الانتظام... والحقيقة أن مشهدنا كان يـستثير الحماسـة في النفوس، وخاصة ما كانت تتركه تلك الأناشيد الحماسية في نفوس الرجال الذي كانت تنطلـق مـن حنـاجرهم فتتردد أصداؤها في جوانب الوديان، والبطاح العربية، وكثبان الرمال... ثم تعود إلينا لتشنف آذاننا بمثل روعتهـا السابقة ونغماتها الحماسية ومعانيها العميقة..."

... وقطعنا حوالي نصف المسافة دون أن يفقد موكبنا شيئاً من روعته وحماسته ودقّة انتظامه... بل ان الحماسة في نفوس الرجال ازدادت عندما علموا باستيلاء قوات الأمير عبد الله على قافلة تركية كانت تنقل عشرين ألف ليرة ذهبية... وتوغل قوات الأميرين علي وزيد إلى ما وراء خطوط العدو حتى غدت على مقربة من أبواب المدينة المنورة.... وقد تعاظم سرورهم وحماستهم حيث أكدت لهم الأخبار أن قائد القافلة الأسير كان من المغامرين المشهورين الذين كانوا يعملون لحساب الأتراك في طول البلاد العربية وعرضها... والجدير بالذكر أن قائد القافلة، أشرف بك التركي، كان مفطوراً على أعمال السلب والنهب... وقد سبق له أن اشترك في ثورة ضد السلطان... ولكن قبض عليه ونفي من البلاد حيث ظلّ في المنفى مدة خمس سنوات.

ومما يذكر أنه اختطف ذات مرة أحد أبناء حاكم تركي، وهرب به إلى الجبال رافضاً أن يعيد الطفل إلى ذويه ما لم يدفعوا له مبلغ خمسمائة جنيه... كذلك اشترك في محاولات كثيرة للسلب والنهب وفرض الأتاوات على جميع القوافل التي كان يصادفها في الصحراء... ثم يتوارى عن الأنظار ويعتصم في مكان ما يقع بين الجبال أو الوديان ... وأدهى من كل ذلك نه كان يفتك بمن كان لا يستطيع، أو يرفض لسبب من الأسباب أن يدفع له المبلغ الذي كان يفرضه عليه... كذلك، فقد استخدمه أنور باشا التركي أثناء الثورة التي قامت بها منظمة تركيا الفتاة ضدّ السلطات العثماني لخلعه عن عرشه، وتسلّم مقاليد الحكم والسلطة، بغية تنفيذها مخططاته الإجرامية التي كان يدبّرها ضدّ كل من تسوّل له نفسه معارضته. وكان يدفع له مبالغ طائلة مقابل ذلك... وعندما اندلعت نار الحرب العالمية الأولى، كان أشرف بك هذا يفكر بالكّف عن متابعة أعماله الإجرامية.

غير أن السلطات العثمانية شعرت بحاجتها إلى خدماته فاستخدمته لتنفيذ بعض مخططاتها التخريبية في مختلف المناطق العربية.... ويبدو أن القدر كان له بالمرصاد كي ينتقم منه لدماء الأبرياء الذين فتك بهم ظلماً وعدواناً فوقع أسيراً بأيدي قوات الأمير عبد الله بينما كان متوجهاً إلى اليمن ليقوم بمحاولة تسهيل المواصلات بين القيادة التركية وحامياتها المعزولة هناك، وشراء ضمائر زعماء القبائل اليمنية بالذهب الذي صودر منه، واقناعهم بالتنكّر للثورة العربية وعدم مساندتها أو الانضمام إلى صفوف المناضلين في سبيلها..."

قلت أن كثيرين، وخاصة أولئك الذين سبق لهم وتعرّضوا لتهديدات أشرف بك التركي بالقتل إذا لم يدفعوا له الأتاوة، شعروا بالفرح والسرور يغمران قلوبهم لدى سماعهم خبر القاء القبض عليه، ومصادرة الأمير عبد الله جميع الليرات الذهبية التي كانت بحيازته.

وسروا كذلك من الأنباء التي تفيد بأن قوات الأمير عبد الله استولت كذلك على بعض المواقع التي كانت تؤثر إلى حد كبير على دفة الأحداث التي تحولت الآن ولا ريب لصالح الثورة العربية.

أما لورانس، فكان يشعر في تلك الساعة بأن خططه بدأت تؤتي ثمارها، وخاصة في اعقاب هذا التغيير غير المتوقّع الذي طرأ على مجرى المعارك الحربية، فقلب وضع القوات التركية رأساً على عقب، إذ استفاقت لتجد نفسها في موقف الدفاع عن النفس بدلاً من الهجوم.

الفصل التاسع

احتلال ميناء وجه

أثناء الهجوم الذي كانت قوات الأمير فيصل تقوم به لاحتلال ميناء وجه، برز إلى المسرح خلاف غير متوقّع وكاد يهدد مصيره.

فقد ساءت العلاقات بين لورانس والملازم فيكري الذي كان ضابطاً في الفرقة التي يقودها الكولونيل نيوكومب، وكان هذا الأخير قد ألحقه بالقوات التي عهد إليها بشنّ الهجوم على ميناء وجه.

والذي يبدو أن فيكري كان مسؤولاً عن هذا الخلاف بمقدار ما كان لورانس، فقد كان فيكري كثير الاعتداد والاعتزاز بنفسه لدرجة أنه كأني صل به اعتزازه إلى حد التعنت والتعصب.

أما العلاقات بين لورانس والكولونيل نيوكومب فكانت حسنة للغاية مما يدل على أن الخلاف بين لورانس وفيكري كان شخصياً.

والدليل على ذلك أن الثقة بين لورانس ونيوكومب ظلّت متبادلة، ومجال التعاون بينهما كان أفضل منه في أي وقت مضى.

لا سيما وقد سبق للورانس أن تعاون مع نيوكومب في القاهرة، كما تعاون معه في بعثة كانت قد أوفدت إلى صحراء سيناء للقيام بمهمة تخطيطها ووضع خرائط لها.

وكلاهما كان ينظر إلى الثورة العربية نظرة مشبعة بالأمل والتفاؤل بنجاحها.

أما الوضع بالنسبة إلى فيكري فإنه كان يختلف، وسبب ذلك أن فيكري كان يبدي تحفظاً شديداً بالنسبة لعلاقاته مع العرب، حتى نه كان يصل بتعنّته إلى حد المكابرة.

والأدهى من ذلك كله أنه كان بدافع احترافه الجندية وتعلقه الأعمى بها، لا يدع سانحة تمر دون أن يطعن بكفاءة لورانس العسكرية، وبموقفه السياسي.

وكان يكرر القول إن التقرب الذي يظهره لورانس نحو الحركة العربية يكتنفه الغموض والشكّ.

ومما كان يضايق لورانس أكثر من أي شئ آخر أن فيكري كان ملماً باللغة العربية، فضلاً عن خبرته الحربية الواسعة في الصحراء.

تلك الخبرة التي آلت إليه بفضل المعارك العديدة التي خاضها في صحراء السودان عندما كان قائداً لإحدى الفرق المحلية هناك.

من هنا بدأ لورانس يحس بالخطر يهدّد مركزه من جراء وجود منافس قوي له كالضابط فيكري. فراح يتذرع بمختلف الأسباب علّه يستطيع أن يقضي على هذا الخطر المتجسّد في شخص فيكري. فكان لا يدع أية فرصة سانحة دون أن يهزأ بزميله فيكري ويوجّه له اللوم والتوبيخ تحت سمع وبصر جنود الأمير فيصل، والجدير بالملاحظة أن لورانس كان شديد الغيرة والحساسية والحرص على مركزه والاحتفاظ به كقائد من قوّاد الثورة العربية.

وكان يبدو أحياناً كما لو أنه في صراع مرير مع نفسه. هذا، وعلى الرغم من موافقة القيادة العامة على تعيينه كضابط إتصال بينها وبين فيصل، فقد ظل تابعاً للكولونيل جويس الذي كان قائداً للقوات البريطانية التي كانت تعمل آنذاك مع قوات الشريف حسين بالنسبة للشؤون العسكرية، بينما كان بالنسبة للأمور السياسية مسؤولاً تجاه المكتب العربي ـ وهو المكتب الذي كان يجزي اتصالاته بالشريف حسين عن طريق الكولونيل ويلسون ـ.

ولم يصبح لورانس سيد نفسه إلاّ بعد مجيء الجنرال اللنبي كقائد عام للجيوش البريطانية في الشرق، واتخاذه ذلك القرار الذي قضى بموجبه أن تتم الاتصالات بينه وبين لورانس مباشرة.

هذا، ولما تيقن لورانس من أن فيكري كان أوسع منه خبرة في التخطيط لحروب الصحراء، واكثر منه دراية باللغة العربية، بدأ الخوف يخامره بفقدان منصبه وتعيين فيكري مكانه.

والواقع أن لورانس لم يكن يتقن العربية، كما لم يكن يجيد النطق بها كأهل البلاد، كما يتصور البعض.

وانطلاقاً من هذا الشعور بالنقص، أخذ لورانس يختلق شتى المعاذير لمضايقة فيكري وحمله على الرحيل. فكان لا يدع أية فرصة دون أن يتحرش به.

وأخيراً، لم يعد بوسع فيكري أن يحتمل أكثر ممّا احتمل من مضايقات لورانس، وفكّر فعلاً بالتخلي عن مركزه واخلاء الساحة للورانس. فترك قوات الأمير فيصل في منتصف الطريق إلى ميناء وجه، والتحق بالقوات البحرية التابعة لقيادة بويل.

غير أن المتاعب بدأت تتولى على جيش الأمير فيصل فور أن خرج فيكري من صفوفه والتحق بالقوات البحرية تخلصاً من مضايقات لورانس إياه، فقد اعيا الجنود الإرهاق من طول المسافات الشاسعة التي قطعوها، والتي كان عليهم أن يقطعوها.

ناهيك عن أن تلك المنطقة كانت مقفرة، جرداء... لا مياه للشرب فيها، ولا أعشاب، ولا بشر. كذلك كان عليهم أن يستحثوا الخطى كي يصلوا إلى قرية حبّان التي تبعد مسافة خمسين ميلاً عن ميناء وجه ليتفق وصولهم إلى هناك حسب الخطة المرسومة بنفس اللحظة التي كانت قوات القائد بويل ستصل فيها.

ولكن أنى لقوات فيصل أن تحقق ذلك ما دامت قد منيت بالفشل في الوصول إلى هدفها في الموعد المحدّد لذلك.

وهنا أخذ نيوكومب على عاتقه مهمة التوجّه إلى مركز قوات بويل، علّه يدركها قبل أن تصل إلى ميناء وجه وتجد نفسها وحيدة في الميدان. وكان يهدف من وراء ذلك أن يقنع بويل ـ في حالة رفض الأخير ـ تأخير شن الهجوم ريثما تصل قوات فيصل ـ أن يقنعه بتوجيه إحدى سفنه الحربية لموافاة قوات فيصل في نقطة تبعد مسافة عشرين ميلاً عن وجه، وذلك بغية تزويد تلك القوات بالمؤن والماء.

وفي هذه الأثناء، كانت قوات فيصل تتابع سيرها في تلك الأرض الصحراوية الصعبة المسالك، وقد انخفضت معنوياتها إلى الحضيض وشاعت الفوضى بين صفوفها.

ومما كان يزيد الحالة سوءاً أن رجال القبائل يجهلون فوائد الانضباط العسكري كما يفهمه الجندي الأوروبي ويقدره، ولم يتقبلون الأوامر العسكرية بمثل الروح التي يتقبلها بها الجندي النظامي الذي سبق له أن تدرّب على فنون الجندية وحياتها.

ولذا فإن كثيراً منهم بدأوا يخالفون النظام بمتابعتهم السير كيفما اتفق لهم وحيثما أرادوا. وبعد فترة قصيرة اختلط حابل رجال فيصل بنابلهم إذ اندفع بعضهم اثر قافلة للجمال كانت تمرّ من هناك، وهي تنقل بعض المؤن لقبيلة بني بلّلي، يريدون اللحاق بها قصد الاستيلاء على جزء من منقولاتها.

وهنا، ثارت ثائرة الأمير فيصل، فلحق برجاله حتى أدركهم وانزل بهم أشدّ العقاب، لا سيما وأن القافلة كانت تابعة لقبيلة بني بلّلي التي بعث الأمير فيصل، منذ زمن قريب، إلى شيوخها برسائل أعرب فيها عن فائق صداقته لهم، كما ناشدهم أن يمدوا يد المساعدة لرجاله عندما يصلون إلى منطقتهم القريبة من ميناء وجه.

وفي الليل، وصلت قوات فيصل إلى قرية حبّان بعد أن أعياها الإرهاق والأعباء. وتوجه رجاله إلى الشاطئ حيّث كانت ترسو إحدى السفن الحربية ليحصلوا منها على كميات من مياه الشرب والمؤن والغذاء.

والجدير بالملاحظة أن الرجال كانوا يسمعون هدير القنابل التي كانت المدرعات الحربية الأخرى تطلقها من مدافعها على ميناء وجه.

أما الأمير فيصل ولورانس فإنهما وقفا يتبادلان بصمت نظرات الأسى والأسف بسبب الهجوم الذي شنّه القائد بويل على ميناء وجه قبل وصول قواته.

وبعد لحظات صعدا إلى تلك المدرّعة ليستفسرا عما كان يحدث في وجه. وكم كانت دهشتهما بالغة عندما قيل لهما ان القائد قرّر ألا يؤجل ساعة الهجوم على ميناء وجه كيلا يجد الأتراك فرصة للانسحاب منه أو طلب النجدة لتعزيز حامياتهم.

في تلك الساعة، كانت جميع الدلائل تشير إلى أن المعركة ما تزال محتدمة الوطيس في ميناء وجه.

وكان الأمير فيصل يتوقّع سقوطه بين لحظة وأخرى بأيدي القوات الأنجلو - عربية، وذلك نظراً لتفوق هذه القوات من حيّث العدد والعدّة على القوات التركية التي كانت تدافع عنه. ومع ذلك، فقد كانت دلائل الكآبة بادية على ملامح الأمير فيصل لدى عودته إلى الشاطئ من السفينة.

ثم انهمك في إعادة تنظيم صفوف رجاله تمهيداً لمتابعة الزحف على ميناء وجه. وكذلك كانت حال لورانس، إذ شعر بخيبة أمل تحزّ في نفسه من جراء التغيير المفاجئ الذي طرأ على أول مخططاته التي كان يتوقع لها النجاح، وتحقيق النصر بقيادته للقوات العربية، ومما زاد في ألمه معرفته أن الذي خطط لذاك الهجوم وتولى قيادة الفرقة العربية لم يكن سوى منافسه الضابط فيكري.

هذا، وقد وصلت طلائع قوات فيصل إلى ميناء وجه، بعد ثلاثة أيام - أي بعد أن تمكنت القوات الأنجلو - عربية من الاستيلاء عليه وتركيز نفسها هناك.

ولبث الضابط فيكري في ميناء وجه يترقّب وصول لورانس بين لحظة وأخرى، إذ كان مصمماً على أن يشفي غليله منه إثر الانتصار الذي حقّقه لنفسه ضدّ القوات التركية. حتى إذا شاهده قادماً من بعيد توجّه صوبه وهدفه أن يحرج موقفه أمام الجنود العرب الذين احتشدوا في الساحة، وينال من كرامته ومعنوياته.

كانت الابتسامة الماكرة التي ارتسمت على محيّاه تعكس بوضوح مدى الحقد الذي كان يتفاعل في نفسه حيال زميله في النضال.

وتأمله لورانس فيما كان يدنو منه وهو يقول في نفسه: إذا كان هذا هو شأنه بالنسبة إلـيّ فمـا عـساه يكـون بالنسبة إلى الأعداء. ولكنه اعتصم بالصمت، وكأني به أراد أن يتيح له المجال للتنويه عن مشاعره بالشكل الـذي يريد. وعندئذ، يكون لكل حادث حديث.

استهل فيكري حديثه عن الخطة التي وصفها بأنها حكيمة والتي رسمها لاحتلال ميناء وجه. ثـم أخـذ يتحـدث عن نفسه بعنجهية واضحة. فحدّثه عن دوره في المعركة، وعن الخسائر الطفيفة التـي تكبـدتّها قواتـه مقابـل الانتصار الذي أحرزته على الحمية التركية.

كان لورانس يتوقّع منه أن يتطرّق إلى ذكر الخسائر في الأرواح والمعدات لكي يتمكن من الدفاع عـن نفـسه، لأنه ليس هناك ما هو أهم من تفادي الخسائر في الحرب بالنسبة إلى الجنود.

فهذا موضوع يهتم له كل جندي يريد أن ينتصر على أعدائه ويبقى حيّاً كي يجني ثمرة الانتصار الذي اشـترك في إحرازه. ولذا، فقد رمقه لورانس بازدراء، ثم راح يرّد عليه بلهجة قاسية ويقول: أراك تتصور بـن النـصر أشبه بسلعة تجارية ويمكن مقايضته بأرواح الجنود، ولكن هذا خطأ ... بل جريمة لا تغتفر... ثـم أراك تتجاهـل أن الجنود العرب الذين تسببت بقتلهم في تلك المعركة كانوا من الأصدقاء الذين يثقون بحكمة القيادة البريطانيـة وخبرتها الواسعة في توجيه دفة المعارك والحروب، وإلاّ لما كانوا وضعوا أرواحهـم رهـن أيـدي الـضباط المشرفين عليها... كذلك، أراك تتجاهل وجود جيش الأمير فيصل، مع العلم أنه لو أرجأت موعد الهجوم ريثمـا وصل الأمير على رأس جيشه لما كان أحد من جنودك لاقى حتفه بمثل تلك الصورة الفظيعة.

وأهم من ذلك أن الأتراك كانوا على وشك أن يستسلموا لشعورهم المسبق بهزيمتهم إذا مـا سـمحوا لأنفـسهم بمواجهتنا جميعاً في معركة حاسمة... لو أنكم أرجأتم موعد الهجوم إلى موعد لاحق... وخلاصة القـول، لقـد دخلتم في معركة ضد الأتراك كنتم في غنى عنها، وفي غنى عن تعويض الجنود العـرب لمـوت مؤكـد... لا لشيء، إلاّ أنكم استعجلتم الهجوم لغرض في النفس... وعليه، فإنني لا اعتبر هذه المعركة مضيعة للوقت وهـدراً للأرواح والمال والمعدات فحسب، بل اعتبرها جريمة كبرى لا يمكن أن تغتفر.

ونعتقد أن لورانس قد أثبت وجوده، وأعاد الاعتبار إلى نفسه، مرة ثانية، وبذلك فشل فيكـري فـي أن يظهـره بمظهر المتخاذل أمام أصدقائه العرب.

ولقد طوى فيكري خيبته بين ضلوعه وتوارى عن الأنظار، بينما فارقه لورانس ليقوم بجولة في المدينـة. فقـد كانت الحال فيها تبعث على الاطمئنان لا سيما وأن معنويات الجنود كانت عاليـة، وفـي المدينـة مـن المـؤن والذخيرة ما يكفي لمتطلبات أية معركة تطرأ في المستقبل.

أجل، كان كل ما يبدو لناظري لورانس يدل دلالة واضحة على أن الحركة العربية بعد الانتـصارات المتتاليـة التي أحرزها رجالها والمناضلون في سبيلها، أصبحت وطيدة الأركان في ديار الحجاز.

وليس هناك من يعرقل عجلتها أو يؤخر خطاها سوى تلك الحامية التركية التي غـدت معزولـة عـن العـالم الخارجي في المدينة المنورة.

الفصل العاشر

حشد رجال القبائل

اغتاظ الكولونيل بريموند كثيراً عندما سمع الأنباء التي انتشرت عن سقوط ميناء وجه بأيدي القـوات العربيـة البريطانية. والواقع أن القوات العربية ـ البريطانية كانت قد خططت وشنت هجومها على ميناء وجه الـذي يقـع على شاطئ البحر الأحمر دون أن تعلمه بذلك، الأمر الذي كان له أسوأ الأثر في نفسية بريمونـد. خاصـة، وأن ذلك يعتبر تجاهلاً مقصوداً نحوه بصفته ممثلاً رسمياً لفرنسا في شبه الجزيرة العربية.

ومما زاد في غيظه وخيبة أمله أن حكومته تضامنت من حيّث لا تدري مع فيصل ولورانس في عرقلة جهـوده ومساعيه الدائبة لمشاركة الإنجليز في بسط النفوذ على البلاد العربية.

فقد بعثت حكومته ببرقية إليه توبخه فيها توبيخاً قاسياً، وتتهمه بالتقصير في القيام بمهمته كمـا يجـب. وكـان المارشال فوش قائد القوات الفرنسية هو الذي بعث إليه بتلك البرقية العنيفة اللهجة، ولتهمه فيها بـالوقوف وقفـة اللامبالي من تلك الأحداث التي كانت تجري في الجزيرة العربية.

وذكّره فيها بأن موقفه المائع هذا قد يدخل في روع العرب والبريطانيين على الـسواء أن فرنـسا تحـاول أن تضايق بذلك العرب وتحصرهم في الحجاز حتى تصبح في مأمن من خطرهم بالنسبة إلى خطـة تنـوي تنفيـذها في سوريا بغية الاستيلاء عليها وضمها إلى مناطق نفوذها.

وعليه، فقد تصور بريموند لتوه أن هذا التعنيف القاسي الذي يعنيه شخصياً قد يكون رداً على المعلومات التـي تسربت إلى حكومته عن محاولته كشف النقاب عن بعض الأسرار المتعلقة بالخطط التـي كانـت فرنـسا تنـوي تنفيذها في المنطقة، و رداً على الاحتجاج الذي بعث به لورانس إلى مقر القيادة العامة البريطانية فـي القـاهرة وندد فيه بموقفه الغريب من بعض الأحداث الجارية في الحجاز.

والجدير بالذكر أن التعاون بين بريطانيا وفرنسا بالنسبة إلى الأحداث في المنطقة لم يكن آنذاك أسوأ منـه فـي أي وقت مضى.

وممّا تجدر الإشارة إليه كذلك أن كبار ضباط القيادة البريطانيين كانوا ينظرون إلى محاولات القيادة الفرنـسية وسلوك بعض كبار الضباط المنتمين إليها نظرة استخفاف وازدراء أين منها نظرتهم إلى واقع النضال العربي.

وقد بلغ الاستخفاف في نفوس بعض الضباط البريطانيين بمواقف فرنسا من الأحداث الجارية في المنطقة حـدّاً جعلهم يبتكرون النوادر الساخرة ويعلقون بها على مثل تلك النيات والمواقف، كأن يخاطب أحدهم الآخر بقولـه: من الذي أنبأك بأن فرنسا لن تحارب... ربما كان يجهل حقيقة الأوضاع الراهنة... لأن فرنـسا سـوف تحـارب كبل تأكيد... أنها سوف تحارب إلى آخر قطرة من دماء الإنجليز... هلاّ عرفت ذلـك الآن... زه زه !.... أمـا السلاح الذي تقدمه للعرب فحدث عنه ولا حرج.. إلى آخر المنوال.

وكان الضباط الإنجليز يرشحون الأسلحة التي تقدمها فرنسا للعرب كأفضل ما يصلح لتزيين جدران المتـاحف الأثرية، وذلك نظراً لقدمها وتفاهتها.

ومما كان يزيد في استخفاف ضباط القيادة البريطانية بزملائهم الفرنسيين أن العرب كانوا يرفـضون الأسـلحة الفرنسية بعد أن يكتشفوا بأنها غير صالحة للحرب، وأن الفرق العسكرية الفرنسية كانت مفتقـرة إلـى التنظـيم والتدريب وإلى ضباط أكفاء يتولّون قيادتها وتدريبها.

تلك هي بعض الأسباب التي شجّعت القيادة البريطانية على توجيه التقرير الذي بعث به لورانس إليهـا واحـتج فيه بشدة على المناورات التي يقوم بها بريموند، رجل فرنسا في جدّة ـ ضد الإنجليز والعرب علـى الـسواء ـ إلى الحكومة البريطانية بعد أن أضافت إليه رغبتها في أن توجّه الحكومة البريطانية احتجاجاً عنيفاً إلى الحكومـة الفرنسية.

غير أن عزيمة الكولونيل بريموند كانت أقوى من أن تنهار بسهولة تحت تأثير الاسـتخفاف الـذي يقابلـه بـه الإنجليز أو اللوم الذي وجهتّه إليه حكومته.

فقد كان بريموند متمرساً على شتّى ضروب النضال وحبك الدسائس. ويعلـم جيـداً أن القـدرة علـى ضـبط الأعصاب هي الشرط الرئيسي لنجاح كل من يعمل في حبك المؤامرات ودس الدسائس.

والظاهر أنه تمكن من السيطرة على أعصابه وضبط نفسه إذ أنه توجه إلى القاهرة واتصل هناك بمقـر القيـادة البريطانية وحاول أن يقنع أركانها بأن يتبنّوا خطته المتعلقة بتوجيه العمليات الحربية في الجزيـرة العربيـة فـي المستقبل.

وكم كانت دهشة بريموند عندما فوجئ بوجود لورانس في القاهرة! والواقع أن لورانس قد حضر إلـى القيـادة دون علم سابق منه بمجيء بريموند إليها.

وكأنه قد جاء إلى القاهرة كي يثبت وجوده، بل ليفرض نفسه على القيادة في اعقاب سلسلة مـن الانتـصارات حقّقها لنفسه بمعاونة الجيش العربي ومساندته له، فقوبل فيها بتقدير وترحيب لم يكن يتوقّعهما من ضـباط طالمـا أعلنوا أمامه من استخفافهم بقدرة العرب على الصمود في حربهم ضدّ الأتراك.

ونعود الآن إلى حديثنا عن الكولونيل بريموند. فعندما وجد نفسه وجها لوجه أمام لـورانس، ضـبط أعـصابه، وتقدّم نحوه يحييه بحرارة مفعمة بالسرور ثم هنأه على الانتصارات الباهرة التـي حققهـا، وخاصـة انتـصاره الأخير في ميناء وجه، وقال مراوغاً: "لا اكتمك القول بأنني كنت اعتقد بأنك رجـل تتمتـع بمواهـب عـسكرية نادرة... وها أنت اثبت صحة اعتقادي بك، بالانتصارات التي حققتها، مما يهيىء الشجاعة الكافيـة لمـصارحتك بما يدور في خلدي من خطط أنوي تنفيذها في المستقبل القريب إذا وعدتني بالمـساعدة... وسـوف تـرى أنهـا ستحقق لك المزيد من الانتصارات.

والجدير بالذكر أن بريموند كان يخطط لهجوم تقوم به القوات الفرنسية بالاشتراك مع القوات البريطانيـة علـى ميناء العقبة.

لقد كان ميناء العقبة المركز الوحيد على البحر الأحمر الذي ما يزال في أيدي القوات التركية.

ثم طفق بريموند يشرح له ـ أي للورانس ـ أهمية ميناء العقبة بالنسبة إلـى خطـوط مواصـلات الجيـوش الحليفة وسهولة تزويدها منه بالمؤن والإمدادات، وسهولة عبور الفرق العسكرية منه إذا ما قررت القيام بهجـوم على وادي الأردن وسوريا من منطقة السويس.

والظاهر، بل الواقع أن الكولونيل بريموند لم يكشف النقاب للورانس عن أهم ما كان يبغي التوصل إليه من وراء تنفيذ تلك الخطة، فمن الثابت أن بريموند كان شديد الحماسة لشنّ هجوم ساحق كاسح على ميناء العقبة، ولكن من الثابت كذلك أنه كان لا ينوي إشراك العرب في ذلك الهجوم، بل تركهم يحاربون في الحجاز دون هدف، بينما تقوم القوات الفرنسية - البريطانية بذلك الهجوم، وهدفه من وراء تأمين مركز مناسب لتموين الجيشين أثناء متابعة هجومهما نحو الشمال لاحتلال سوريا.

ولا ريب في أن لورانس حضر إلى القاهرة ليعرض هو أيضاً خطة مماثلة للهجوم على ميناء العقبة، ولكن بالتعاون مع الجيش العربي الذي يقوده فيصل. وشأنه شأن بريموند في ذلك، إذ لم يكشف النقاب له عن خطته ولا عن سبب وجوده في القاهرة.

وكان من الطبيعي ألاّ يكترث لورانس كثيراً بالموضوع، وألا يكون ردّه مشجعاً لزميله الفرنسي على الخوض في شرح خطته إلى النهاية.

فلما أدرك ذلك، فكّر باللجوء إلى التهويل على لورانس بما لا يرضى عنه مطلقاً. فقد هوّل عليه بأنه سيعود إلى الحجاز ويعرض الخطة على الأمير فيصل. غير أن لورانس لاذ بالصمت، ولكنه صمم في قرارة نفسه على أن ينتزع مه زمام المبادرة فيستبقه في السفر إلى الحجاز والاتصال بالأمير فيصل وتحذيره من الخطر الذي سيلحق بعرشه من جراء أية خطة يقترحها بريموند عليه ويطلب منه أن يساعده في تنفيذها.

وأسرع لورانس بالسفر إلى مقر الأمير فيصل في ميناء وجه وأطلعه على مجمل التفاصيل المتعلقة بالخطط التي يضعها بريموند، كما أطلعه على النيات الحقيقية التي يكنها الفرنسيون نحوه، وشرح له المخاطر التي ستحيق بعرشه إذا قيض لتلك الخطط أن تنجح.

كذلك تدارس معه الوضع وتباحث في الموقف الذي يحسن به أن يقفه من خطة بريموند ساعة يتصل به ليطلعه عليها.

وبعد عشرة أيام وصل بريموند إلى الحجاز فاتصل على الفور بمقر الأمير فيصل طالباً السماح له بالاجتماع به لسبب خطير، وكان له ما أراد.

في هذه المرة، فكر بريموند أن يقدم للأمير بضعة مدافع رشاشة قبل أن يعرض عليه خطته المزعومة، وذلك يقيناً منه بن هذه البادرة ستترك أثرها في نفسيته فيقف من خطته موقفاً يتفق وأهواءه ومطامحه.

وقدم فعلاً تلك الرشاشات لفيصل، غير أنه - أي فيصل - رفض قبولها بحجة أنها كانت من النوع الخفيف، الأمر الذي يجعلها تافهة بالمقارنة مع الأسلحة الثقيلة والمدفعية البعيدة المدى التي كانت القوات التركية تستعملها في حربها ضد العرب.

ثم أخذ يداوره ويناقشه بكل ما عرف عنه من لباقه ومهارة في المناقشة حتى وصل بحديثه إلى النقطة التي يمكنه منها أن ينطلق إلى إثارة موضوع المدافع الثقيلة التي كانت القوات الفرنسية تحتفظ بها في منطقة السويس - وهي منطقة بعيدة عن ساحة المعارك.

ثم قال له: "الحقيقة أننا لسنا بحاجة إلى مثل هذه الرشاشات الخفيفة وإنما بحاجة إلى مثل تلك المدافع المجمدة في السويس. ولست أرى ما يحول بينكم وبين تزويدنا بمدافع مثلها، لا سيما وأنت تعلم بأن القوات التركية مجهزة بمدافع ثقيلة مصنوعة في فرنسا.

فمن بديهات الأمور إذن، أن تكون قواتنا مجهزة بأسلحة أقوى وأمضى وأجدى من تلك الأسلحة التي يملكها أعداؤنا حتى ننتصر عليهم".

هنا تبين أ، بريموند فقد سيطرته على أعصابه بعد أن فاجأه فيصل بطلبات لا يمكن له لها أبداً أن تتفق وأهدافه الخاصة، فرد عليها بما يحقق رغبات فيصل بالحد من مداخلاته.

وقال بريموند، وقد تملكه الغضب فيما كان يرد على الأمير فيصل: "إن الجندي العربي لن يحتاج إلى استعمال المدفعية الثقيلة ما دامت واجباته الحبية ستكون محصورة في تسلق الصخور كالعنز وتخريب بعض قضبان الخط الحديدي. "

ووجد فيصل في هذا التعريض تهجّماً وقحاً على كرامة الجندي العربي، وقدره، وشجاعته، وتضحياته، فثارت ثائرته، وسولت له نفسه أن يلقّنه درساً في السلوك لا ينساه ما دام في قيد الحياة، ولكن تقاليده العربية منعته من الإقدام على عمل من هذا النوع ضدّ من يعتبره ضيفاً عليه، واكتفى بتذكير الكولونيل، وبلهجة عنيفة، أن الجندي العربي كان أصل عوداً، وأشد بأساً، وأوفر كرامة من الجندي الفرنسي.

وهنا أدرك بريموند أن فيصل كان جاداً فيما يقول، وأن المناقشة قد تتطور إلى ما لا تحمد عقباه ويحبط خطته ويكسبه عداوة فيصل إذا سمح لنفسه بالتطاول أكثر من اللزوم على سمعة العرب وكرامتهم، فابتسم ابتسامة عريضة وكأنه يريد أن يقول: "كفى، وعفى الله عما مضى."

وعاد يطرق موضوع ميناء العقبة وشرح أهميته من الناحيتين، العسكرية والمدنية. وكذلك، فإنه أخذ يشدد على ضرورة طرد الأتراك، عاجلاً أم آجلاً، من ذلك الميناء، خدمة لقضية العرب ونضالهم في سبيل الاستقلال والحرية.

وأخيراً، اقترح على فيصل أن يمارس بعض وسائل الضغط على الإنجليز كي يوافقوا على شنّ هجوم على ميناء العقبة لاحتلاله.

فتطلّع إليه فيصل وقال بتهكم ظاهر:

"لكن كيف يليق بي يا عزيزي أن أضغط الآن على الإنجليز لكي يساعدوني وذكرى مساعدتهم لنا في احتلال ميناء وجه ما تزال ماثلة في أذهاننا؟".

والمدهش في هذه القضية أن لورانس كان جالساً في زاوية الخيمة يصغي للمناقشة، ويبتسم لفيصل كلّما أعجبه رد من ردوده على أسئلة بريموند، ولكن دون أن يشترك معهما في الحديث والمناقشة.

وكان منظره وحركاته الساخرة الصامتة تثير الغيظ في نفسه بمقدار ما كان فيصل يثيره بردوده وحكمته الشديدة الساخرة.

ومع ذلك، فقد كان يستقبح أن يتقبّل الهزيمة بسهولة ويعود صفر اليدين من هذه المقابلة. وقال لنفسه: سوف ألجأ إلى آخر سلاح في جعبتي. ولكن، يا لله كم كان ساذجاً؟! وكم كان مقصراً بحق نفسه عندما توهم بأنه سيكون قادراً على إعادة الاعتبار لنفسه في حالة لجوئه إلى استعمال سلاحه الأخير.

ترى، هل كان بريموند من السذاجة بحيث توهم أن بإمكانه تحقيق المعجزة في آخر لحظة؟ فإذا توهم ذلك فنحن نظن أنه كان مخطئاً إلى حد كبير، لأن لورانس وفيصل كانا يعلمان بأن الدسيسة هي سلاح بريموند الأول والأخير، ولكن لقد فاته أن يعلم بأن لورانس وفيصل قد تفاهما وتباحثا في الموقف الذي يجب أن يقفه فيصل من خطته إذا ما جاء يعرضها عليه.

ومع ذلك، نجد أن بريموند حاول أن يبذر بذور القطيعة بين كل من لورانس وفيصل. فقبل أن يغادر الخيمة، التفت إلى فيصل وقال له بصوت وبلهجة من يريد أن يظهر نفسه بمظهر الحريص على مستقبله: "عجباً يا عزيزي، ما لي أراك ساكناً لا تطلب من الإنجليز أن يزودوك بالأسلحة الثقيلة والمصفحات والدبابات... فلديهم منها المئات في منطقة السويس.." وهنا تدخل لورانس بدوره ليقول بسخرية وتهكم:

"يجدر بك أن تعرف أن عشرات الدبابات والمصفحات هي في طريقها الآن إلى الجزيرة العربية ... " لم يكتم غيظه بين جناحيه وأخذ سبيله إلى الخارج دون أن يقول لفيصل كلمة وداع يخفي بها خيبة أمله وفشله الذريع.

وبعد ثلاثة أيام، سافر لورانس إلى القاهرة حيّث علم أن الكولونيل سبق وأطلع القيادة العامة على خطته المتعلقة بالهجوم على ميناء العقبة، وعلم كذلك أن القيادة لم تقتنع بفائدة خطته فردتّه على أعقابه.

غير أن بريموند رفض الهزيمة وفكر بالعودة إلى جدة عله يستطيع هناك بدسائسه ومؤامراته أن يزرع بذور الخلاف بين الأمير فيصل والإنجليز.

والظاهر أن بريموند كاد ينجح في زرع بذور الخلاف نظراً لخبرته الطويلة في مضمار الدسائس والمؤامرات لولا أن الحكومة البريطانية أقدمت على عمل حاسم وضع حداً لدسائسه.

فقد أوعزت الحكومة البريطانية إلى سفيرها في باريس بأن يتصل بالحكومة الفرنسية وينقل إليها رغبة حكومته في ضرورة استدعاء ممثلها من جدة.

صحيح أن الحكومة الفرنسية لم تلب رغبة الحكومة البريطانية، ولكنها، رفضت تقديم مساعدتها اللازمة له بحيث أصبح عاجزاً عن حبك الدسائس والاستمرار في تنفيذ مؤامراته.

والواقع أن الحكومة الفرنسية لم تكف عن تقديم المساعدة لممثلها في جدة إلاّ عندما بدأت تركز اهتمامها على سوريا، بدلاً من الحجاز، وذلك يقيناً منها بأن سوريا أهم بكثير من منطقة الحجاز، بالنسبة إلى مواقع نفوذها فيما وراء البحار.

هذا من جهة، ومن جهة ثانية، كان الأمير فيصل بعيد الاستيلاء على ميناء وجه منهمكاً في تنظيم رجاله واعداد العدة اللازمة لشن هجمات جديدة في المستقبل.

في هذه الأثناء، كانت الأموال والمؤن والأسلحة والذخيرة تتدفق عليه بطريق البحر من مصر.

فقد غدت القيادة البريطانية في القاهرة سخية جداً الآن في إعطاء، بدليل أنها أرسلت له أجهزة ومعدات حديثة لبناء محطة للإذاعة في الحجاز فضلاً عن عشرات المدافع الثقيلة والمصفحات والدبابات.

وبالطبع فان سخاء القيادة البريطانية في القاهرة ولندفاعها في العطاء كان مرده إلى واقع أنهـا اكتـشفت فـي العرب خير مساعد وحليف لها في الحرب التي تشترك بها لتقويض دعائم الإمبراطورية العثمانية.

أما لورانس فقد كان منهمكا بوضع خطة شاملة يتصور بأنها ستكون كافية لإلحاق الهزيمة بالأتراك وطـردهم من سائر أنحاء الجزيرة العربية.

وتجدر الإشارة هنا إلى أن لورانس كان يعتمد على النظريات الحربية التي طالع عنها كثيراً في الكتب، وعلـى خبرته الواسعة في المنطقة، لوضع خطة الهجوم الذي كان يزمع القيام به على ميناء العقبة.

وكان من بين الكتب التي استوعبها كتاب وضعه المارشال فوش وركز فيه على أهمية معرفة مواقـع العـدو للانتصار عليه.

غير ن لورانس كان يرى أن هناك بونا شاسعاً بين ما ترتئيه نظريـة فـوش والواقـع، لأنهـا كانـت تتعلـق بالحروف الحديثة، والمنظمة لا ما تقتضيه هذه الحرب غير المنظمة التي كانت تدور بين العرب والأتراك.

ولذا فإن إمكانية الخوض فيها بناء على نظرية فوش قد استبعدت. وهكذا بـات عليـه أن يقـارن بـين جميـع النظريات أخرى التي عمل بها غير فوش في حروبهم المختلفة. وراقت له الخطط التي كان هنيبعل يطبقهـا فـي معاركه، والخطط التي كانت شائعة أبان الحروب المعروفة باسم "حروب نابليون". وعلى ضوء ذلك فقد ارتـأى أن يعتمد إحدى هذه النظريات الأخيرة لوضع خطة هجومه المنتظر على العقبة.

ذلك لأنه كان يدرك ن العرب لن يصمدوا طويلاً بوجه القوات التركية المنظمة. ولكن إذا لجـأ العـرب إلـى تطبيق فنون حرب العصابات في مقاومة الأتراك فسيكونون قادرين على أن يـضايقوهم ويـدخلوا الـذعر إلـى نفوسهم.

والجدير بالذكر أن قوات الشريف حسين كانت الآن تسيطر على مكة المكرمة، وهي أهم مدينـة فـي منطقـة الحجاز، وعلى مدينة الطائف وجدة وينبع ورابع ووجه. بينما كانت القوات التركية محصورة في المدينة المنـورة وبعض المواقع القائمة على امتداد الخط الحديدي الذي يربط، أو بالأحرى يؤمن خطوط المواصلات بين المدينـة المنورة ودمشق، وذلك يعني أن العرب كانوا يسيطرون على معظم مناطق الجزيرة العربية باستثناء قسم صـغير جداً منها.

وما هو أهم من ذلك أن القوات التركية أصبحت في وضع خطير للغاية.

فلم يكن بوسعها مثلاً أن تتحرك من المدينة المنورة أو من المواقع أخرى علـى خـط الحجـاز إلاّ إذا سـمح العرب لهم بذلك.

ان شيئاً غريباً كان يحاصرهم ويقض عليهم المضاجع، ويضيق الخناق حولهم، وهو شئ غريب لا عهـد لهـم به من قبل... شئ واسع المدى، مترامي الأطراف أمامهم وحولهم، شئ بعيد الحدود... شئ لا تدرك العين مداه، وأعني به تلك الصحراء اللا متناهية بحدودها وامتدادها، ومن هنا كان مصدر ضعف الجيش التركـي وحيرتـه وارتباكه وتخبطه على غير هدى.

لقد كانت الصحراء أمامه وخلفه، وكذلك البحر. وكلاهما مصدر قلق للأتراك. وكما كان الجيش التركي يبـدي مقاومة هزيلة في المعارك المفتوحة التي كانت تنشب بينه وبين العرب، كذلك كان يخشى حتى مجـرد التفكيـر

بالاقتراب من الساحل نظراً لضعفه وقلة تمرسه على المعارك البحرية بالمقارنة إلـى خبـرة القـوات البحريـة البريطانية التي كانت تساند القوات العربية في كل هجوم تقوم به على أي ميناء.

وكلما كان لورانس يركز تفكيره في اتباع تكتيك حرب العصابات ازداد اقتناعاً بانتصار القوات العربية علـى القوات التركية متى استطاعت أن حصر القوات التركية في المدينة المنورة.

ومما كان يزيد في اقتناعه بإمكانية انتصار العرب على الأتراك في الحجاز أنه كان يعرف مواضـع الـضعف في صفوف الأتراك، وافتقارهم إلى القوة اللازمة لسحق الثورة العربية الموجهـة ضـدهم. فمـن المعلـوم أن الأتراك كانوا يحاربون على جبهة واسعة الأطراف والحدود، وتتطلب منهم وضع ما لا يقل عن نـصف مليـون جندي في الميدان، بينما لم يكن عندهم سوى مائة ألف جندي... مما أحدث ثغرة عميقـة فـي حـدة مقـاومتهم للثورة، وخاصة إذا عرفنا أن مساحة الجبهة تبلغ حوالي ١٥٠ ألف ميل مربع.

وعلى ضوء هذا الواقع كان لورانس يدرك بأنه يستحيل على الأتراك أن يحتفظوا بسيطرتهم على المنطقـة، أو أن يمارسوا أعمال اقمع اللازمة والفعالة للقضاء على الثورة إذا ظلوا يعتمدون على مثل هذا الجـيش المنهـوك القوى، القليل العدد الهزيل العدة.

وعلى ذلك، فإذا قيض للورانس أن ينجح في تنفيذ خطته فسيغدو قادراً لـيس علـى طـرد الأتـراك وتطهيـر أراضي الجزيرة العربية منهم فحسب بل والهجوم كذلك على سوريا.

وحتى يتم له ذلك كان لا بد له من إقناع زعماء القبائل بالترفع فوق الخلافات العشائرية القائمة بينهم منذ عـدة قرون، وناسيها.

وكان عليه أيضاً أن يعضدهم في الدفاع عن حرمة أراضيهم وحريتهم وبذل أرواحهـم ودمـائهم فـي سـبيل تحرير جميع البلاد العربية من نير العثمانيين وطغيانهم بدلاً من أن يظلّوا منهمكين في أعمال الثأر.

وكمك كان سرور لورانس عندما وجد الأمير فيصل يقابل فكرته هذه بالاستحسان والرضى والقبـول، حالمـا أطلعه عليها.

حتى ن فيصل وضع تحت تصرفه رجلين من خيرة رجاله كي يرشداه إلى مضارب خيام القبائل ولـيظلا معـه أثناء تنقلاته التي ينوي القيام بها للاتصال بجميع زعماء القبائل تحقيقاً لفكرته.

وفي اليوم التالي غادر لورانس مقرّ الأمير فيصل مزوداً بنصائحه وإرشاداته اللازمة، وذلك بغية القيام بمهمـة هي غاية في الخطوة والأهمية، ألا وهي الاتصال بزعماء القبائل واقناعهم بتأييد الثورة العربية والاشـتراك مـع القائمين بها ضد الأتراك.

كان لورانس فور وصوله إلى كل قبيلة يدعو شيوخها إلى الاجتماع به حيّث يطلعهـم علـى تفاصـيل مهمتـه وخطته. فكان يخاطبهم بلغة عربية أصيلة.

ولا خلاف في أن زعماء القبائل كانوا يستقبلونه بالترحيب والتكريم، وخاصة عندما كان يخبرهم أنه موفد مـن قبل الأمير فيصل.

وفي المساء، كان لورانس يجالس العرب بعد صلاة العشاء ويحدثهم عن أمجادهم الغابرة، ثم يقارن بـين تلـك الأمجاد وحالة الذل والتعاسة التي يعيشونها الآن في ظل الحكم التركي.

كذلك كان يحاول أن يطلعهم على بعض المعلومات المتعلقة بخطته ومجرى الحرب. وكأنما بـه كـان يحـاول بذلك أن يثير فيهم الحماسة ويحثهم على ضرورة الانضمام إلى صفوف الشريف حسين قبل فوات الأوان.

وكان يذهب إلى أبعد من ذلك في مخاطبته إياهم، إذ كان يذكرهم بأن ترددهم في الانضواء تحت راية الثـورة العربية لا يعتبر تهرّباً من القيام بواجب مقدّس فحسب، وإنما يعتبر أيـضاً خروجـاً علـى طاعـة الله سـبحانه وتعالى... إلى أن يقول لهم: إن الفرصة سانحة لكم الآن اكثر من أي وقت مضى للتخلص من نيـر الاسـتعباد والقضاء على عدوكم اللدود، لا سيما إذا عرفتم بأنه ينوء تحت وطأة المعارك الخاسرة التي يـشترك بهـا ضـد الجيوش البريطانية والإيطالية والفرنسية والروسية... تلك المعارك التي أفقدته القـدرة علـى مقاومـة الثـورة العربية."

وقد نجح لورانس في إقناع زعماء القبائل وإزالة خلافاتهم الدموية والاتحاد معاً في جبهة واحدة لمحاربة عـدوّ لا يكن لهم سوى فكرة التقتيل والتشريد والتعذيب.

وهذا ما أثبتته الأحداث التالية. فقد شرعت القبائل في الحجاز تعلن عن ولائها للثورة العربية وتضع مـصيرها في أيدي قادتها ولما تمض بعد سوى بضعة أشهر على بدء مساعيه.

وكانت أول قبيلة أعلنت ولاءها للحركة هي قبيلة حرب الضاربة في منطقة صحراوية تقع بين المدينة المنـورة ومكة المكرمة.

أما القبيلة الثانية فكانت قبيلة الجهينة ـ وهي قبيلة موفورة العدد تمتد مضارب خيامهـا مـن سـاحل البحـر الأحمر إلى مشارف المدينة المنورة. والقبيلة الثالثة هي قبيلة بلّلي التي كانت تضرب خيامها على طول المنطقـة المحاذية لميناء وجه.

وجدير بالإشارة إلى أن قبيلة حرب كانت واحدة من أكبر قبائل الحجاز إذ يبلغ عدد أفرادها حوالي مـأتي ألـف نسمة.

وفضلاً عن ذلك، كان الكثير من الرجال في هذه الأثناء يتصلون بمقر الأمير فيصل معربين عن رغبـتهم فـي الانضمام إلى جيشه.

بينما راح بعضهم يعلن الولاء للحلفاء ويبدي الرغبة في الانضمام إلى جيوشهم. وكـان فـي مقدمـة هـؤلاء شخص يدعى جعفر باشا.

ولا بدّ الآن من إعطاء لمحة خاطفة عن حياة هذا الرجل، ولد جعفر باشا في مدينة بغداد. ولمـا شـب التحـق بإحدى مدارس التدريب العسكرية الألمانية وتخرج منها برتبة ضابط.

ثم انخرط في صفوف الجيش التركي.

وبعد مدة قصيرة رقي إلى رتبة كولونيل نظراً لما أظهره من الـشجاعة والبـسالة فـي الحـرب. والجـدير بالملاحظة أن جعفر باشا كان قد خاض عدة معارك ضد الإنجليز في ليبيا، وأبدى مهـارة نـادرة فـي القتـال، وقدرة فائقة في توجيه المعارك.

وأخيرا وقع أسيراً بيد البريطانيين. غير أنه تمكن من الهرب من السجن بعد مدة وجيزة. وكان أن سـمع عـن الثورة العربية، وأحداثها المؤلمة، وأحكام الإعدام التي كان الأتراك ينفذونها بإخوانه السوريين، فـراح يعـرض خدماته على الحلفاء.

وما علم فيصل بانضمام جعفر إلى صفوف الحلفاء حتى أبدى رغبته بتعيينه قائداً عاماً لجيشه.

وكان يشجعه على اتخاذ مثل هذه الخطوة ما سمعه من ضروب الشجاعة والجرأة والإقدام التي أبـداها جعفـر في المعارك السابقة، غير أن الشريف حسين رفض بدافع حساسيته وشعوره المرهف قبول جعفر باشـا لا كقائـد عام للجيش كما اقترح فيصل فحسب، بل ورفض قبوله كجندي عادي في الجيش. ولم يوافق على انضمامه إلـى القوات العربية إلاّ بعد أن تعهّد فيصل بقبوله على مسؤولية الشخصية في جيشه.

أما الشخص البارز الثاني الذي جاء يعرب عن رغبته الالتحاق بجيش فيصل فهـو الـزعيم نـوّاف الـشعلان، الابن الأكبر للزعيم نوري الشعلان الذي كان قد ساعد فيصل على الهرب من دمشق. والحقيقة أن نوّاف يمتـاز بخبرة واسعة في الحروب.

هذا، وفي يوم من أيام نيسان دخل رئيس التشريفات على فيصل وهو مجتمع بلورانس في جلسة مهمـة، وتقـدّم نحوه بحماسة ظاهرة ليهمس في أذنه خبراً كان يعرف بأنه سيسره جداً.

والواقع أن لورانس لم يستطع أن يخفي شعوره بالسرور ـ فور معرفة الخبر ـ بالرغم من الجهد الذي بذلـه لضبط أعصابه وكتم مشاعره، وقال بلهفة: ماذا تقول؟! أعود هنا؟! اسمح له بالدخول فوراً."

وبعد لحظات كان "عودة" يقف في وسط الخيمة بقامته المديدة وجسمه القوي، وتقاطيع وجهه الدراماتيكة.

ولابد لنا الآن من إعطاء القارئ لمحة موجزة عن سيرة الشيخ عودة.

كان عودة بن تايه واحداً من كبار زعماء قبيل الحويطات، وواحداً من زعماء القبائل الذين كانت حياتهم أقـرب إلى الأسطورة منها إلى الحقيقة.

والواقع أن الغزوات التي قام بها وضروب الشجاعة والبطولة التي أبداها كانـت شـبيهة بالأسـاطير يتناقلهـا رجال القبائل ويروون وقائعها وأحداثها إلى أولادهم.

ومما يذكر أن الشيخ عودة صرف حوالي أربعين عاماً من حياته في شن الغزوات ضد القبائل الـضاربة فـي شمال الجزيرة العربية والمناطق القريبة من الحدود السورية.

ولكنه كان يشن معظم غزواته ضدّ الأتراك.

ويذكر أنه قتل خمسة وسبعين شخصاً من رجال القبائل وعدداً كبيراً من الأتراك.

ويقال ان هذا الشيخ المحارب الشجاع، والذي حنكته الأيام كان سريع الغضب حاد الطبع، لكنـه قـوي الإرادة بحيث يستطيع أن يضبط أعصابه ويكتم غيظه متى يشاء. كذلك يقال أنه كان سريع اللجوء إلـى أعمـال العنـف والبطش ومقابل كل ذلك، كان متواضعاً، صريحاً، أميناً، مخلصاً، طيب القلب.

وكان أصدقاؤه وأعداؤه على السواء، يكنون له كل مودة ومحبة وتقدير والآن، بعد أن أعطينا القـارئ لمحـة خاطفة عن سيرة الشيخ عودة بن تايه وأعماله، نعود به إلى الحديث عن ذلك اللقاء الرائع الذي جمع بـين رجلـين

وأتاح أمامهما الفرصة كي يناضلاً معاً في سبيل هدف واحد آتى ثماره في دمشق، وذلـك بغـض النظـر عـن اختلاف نشأتهما وتربيتهما وتفكيرهما.

فقد لبث الشيخ عودة واقفاً في الخيمة بضع دقائق دون أن ينبس ببنت شـفة، وكـان خلالهـا يتبـادل وفيـصل الابتسامات والنظرات المفعمة بالمودّة والأمل والتفاهم. وكأني به يريد أن يقول لفيصل ـ على حدّ قول لـورانس "هاأنذا قد جئت إليك طواعية لكي أضم قوتي الحربية إلى قوتك الفكرية فتضمن النصر للجيوش العربية."

ولابد من القول أن وصول الشيخ عودة في تلك اللحظة الحاسمة وطلبه الانضمام إلى صفوف الأميـر فيـصل كان بمثابة صفقة رابحة، بل انتصار عظيم حققه القدر. ذلك لأن ـ فيصل كان يعلم تمام العلم بأنه ما لم يـضمن ولاء زعماء قبيلة الحويطات للثورة العربية، أو وقوفهم على الحياد من الصراع الدائر بينه وبين الأتراك ـ فـإن قواته ستتعرض للمخاطر والمتاعب في كل هجوم تقوم به نحو الشمال، حيّث مضارب تلك القبيلة.

فقد كانت قبيلة الحويطات تحتل رقعة واسعة من الأرض تبلغ مساحتها ثلاثة آلاف ميـل مربـع تقريبـاً، بـين مدينتي وجه ومعان. من هنا كان الأمير يدرك بأن أية محاولة سيقوم بها جيشه للعبور من تلك المنطقـة سـتكون محاولة جنونية إلاّ إذا حصل على تأييد زعماء قبيلة الحويطات ومساندتهم لتلك المحاولة.

وأهم من كل ذلك، أن فيصلاً كان لا يخشى فيما لو حاول عبور تلك المنطقة دون موافقة زعمـاء الحويطـات أن يتصدّوا له فحسب بل كان يخشى أيضاً من أن يشغلوا الجيش عن أهدافه الأساسية بمناوشـات واصـطدامات لا طائل تحتها.

أما وقد حضر الشيخ عودة شخصياً لمقابلة الأمير فيصل وأعلن الولاء له، فليس هناك أي مبـرر بعـد اليـوم للتشكك في ثباته أو الخشية من سوء عاقبة أي هجوم تشنه قواته على معان أو ميناء العقبة.

وبعد لحظات تكلم الشيخ عودة وقال: "سلام الله على سيدنا وقائد المؤمنين". ثم أخذ يتحدث مع فيـصل معربـاً عن دهشته للأسباب التي جعلته يفكّر بتجميد الجيش ومنعه من متابعة زحفه إلى المناطق الشمالية بعـد اسـتيلائه على مينائي ينبع ووجه.

والذي يبعث على الدهشة هو أن الموقف الإيجابي الذي وقفه الآن الشيخ عودة من الثورة العربية كان له تـأثير عظيم على شيوخ القبائل الآخرين فحولهم عن مواقفهم السابقة من هذه الثورة.

إذ أنه لم يكد ينتشر خبر انضمام الشيخ عودة إلى صفوف الأمير فيصل وإعلان ولائه له حتى بادر كثير غيـره ممن كانوا في حيرة من أمرهم وتقرير موقفهم من الثورة، بادروا بالإسراع في الانضمام إلى الجـيش العربـي وإعلان ولائهم له.

فمنذ اليوم الأول لبدء الثورة كان الأمير فيصل في حيرة من أمره لا يـدري كيـف يـستطيع التغلّـب علـى المنازعات والخصومات التقليدية الموروثة، تلك المنازعات والخصومات التي كانت تولد الشقاق والانقـسام فـي صفوف القبائل منذ زمن مغرق في القدم.

ولو أجرينا مقارنة بسيطة بين المكاسب التي ستعود على العرب من جراء توحيد صفوفهم فـي جبهـة واحـدة ليحاربوا معاً ضد الأتراك، وبين الخسائر التي ستلحق بهم من جراء بقائهم منقـسمين علـى أنفـسهم شـيعاً ـ لأدركنا مدى الحماقة التي يرتكبها العرب بحق أنفسهم ولا شك في أنهم وحدهم سيكونون الخاسرين.

إذن كان على العرب أن يتغلبوا على أهوائهم وعواطفهم وأن يطمئنوا خلافاتهم إذا أرادوا النصر لأنفسهم. وما عدا ذلك، فيكون من المحال عليهم أن يتغلبوا على عدوّ يفوقهم عدة وعدداً.

وكانت هناك عقبة ثانية تفقد النضال كثيراً من أهميته وشدته: وهي عقبة ناجمة عن عدم الثقة التي كـان الكثيـر من أمثال الأمير فيصل وغيره من المثقفين العرب ينظرون بها إلى أولئك الذين رأوا من مصلحتهم تحريرهم.

فقد كان هؤلاء يعتقدون بأن وعود الإنجليز والفرنسيين لتحريرهم من العبودية لم تكن سـوى سـتار يحـاولون الوصول من ورائه إلى احتلال بلاد العرب بدافع القتال في سبيلها ونزعها من الأتراك.

ومما كان يزيد الحالة سوءاً هو أن معظم سكان الجزيرة العربية كانوا غارقين في لجة خلافـاتهم ومنازعـاتهم العشائرية، وفي أحداث الثأر الدموية التي كانوا يمثلونها ببعضهم بعضا، والتي كانت تحول بيـنهم وبـين توحيـد الصف والنضال تحت راية الأمير فيصل.

ونرجو ألاّ يفسر البعض هذا القول بأننا نتهم أولئك الرجال بأنهم كانوا يتهربون من حمل الـسلاح أو مـؤازرة الثورة العربية، ولكننا نود القول بأنهم كانوا لا يثقون ببعضهم بعضاً بسبب خصوماتهم المزمنة.

كان بعضهم يتردّد في حمل السلاح والانضواء تحت راية فيصل خوفاً من مغـادرة الخيـام وتـرك النـساء والأطفال وراءه تحت رحمة رجال قبيلة أخرى ربما انتهزوها فرصة مناسبة للانقـضاض بـدفاع مـن عـداوة قديمة.

وكان البعض الآخر يرفض الاشتراك في المعارك من غيرهم من رجال القبائل بسبب التقاليد التي كانت تـشده إلى قبيلة دون القبائل الأخرى. وقس على ذلك الكثير من الأمثلة التي لا تعد ولا تحصى.

اذا كان نجاح الأمير فيصل ولورانس في المدة الواقعة ما بين سنة ١٩١٦ وسنة ١٩١٨، في كسب ولاء وثقـة جميع الفئات والقبائل العربية، وصهر ذلك الولاء في جبهة واحدة متراصة الصفوف، واشتراكها في الحرب مـع الحلفاء ضد الأتراك، على اختلاف نزعاتها ومشاربها ـ من اعظم المنجزات التي توصلا إلى تحقيقها فـي تلـك الفترة.

ورب قائل يقول: لكن ذلك قد تم كله بفضل الذهب.

وهذا كذب. وينسى هؤلاء ـ كما قال لورانس ـ أن الرشوة أشبه بسف ذي حدين. ذلـك لأن الرشـوة وسـيلة غير مأمونة النتائج. فمن ذا الذي يستطيع أن يضمن صداقة المرتشي الذي لا يكتفي من الرشوة! فمثل هذا الـذي لا يشعر بالقناعة يبقى شأنه شأن عدوك مهما حاولت أن تعطيه، أو مهما حاولت أن تدفع له ثمناً لصداقته.

ولكن هناك من يهبك صداقته مقابل مبلغ ضئيل من المال يعتبره كمساعدة تقتضيها طبيعة العمل، وليس كـثمن لبيع نفسه. ومثل هؤلاء كنت تجد منهم المئات بل الألوف في أنحاء الجزيرة العربية.

والواقع انه كانت هناك عوامل أخرى لا علاقة لها بالمال ولا بالذهب مطلقاً هـي التـي حققـت المعجـزة... معجزة توحيد العرب وجمع شملهم تحت راية الأمير فيصل. وأعني بهذه العوامل... قوة الصبر والإرادة وتقديم التضحيات مهما بلغ الثمن... ولا عجب إذا وجدنا هذه الخصال الحميدة تتجسد يومذاك في ذلك الثـالوث العظـيم ألا وهو: فيصل... لورانس... والشيخ عودة ابن تايه.

الفصل الحادي عشر

معركة آبار أبو اللسان

لقد أسهبنا في الحديث عن ذلك الهجوم الذي قامت به قوات الأمير فيصل بالاشـتراك مـع القـوات البحريـة البريطانية، على مدينتي ينبع ووجه، ولم نذكر شيئاً من قوات الأمير عبد الله وتحركاتها.

وها نحن نحاول أن نلقي بعض الضوء على الدور الذي قامت به قواته أثناء المعارك التي دارت بـين قـوات فيصل والقوات التركية في ينبع ووجه. فعندما كانت قوات الأمير فيصل تشن هجومها علـى تينـك المـدينتين، كانت قوات الأمير عبد الله تتقدم نحو الشرق باتجاه المدينة المنورة.

وأثناء زحفها إلى هناك تصدت لها بعض الدوريات التركية التي كانت تحرس المنافذ المؤديـة إلـى المدينـة المنورة لتعرقل مسيرها، ولكن قوات عبد الله انتصرت عليها وتمكنت من نسف الخط الحديدي في عدة مراكـز، مما سبب خروج عدة عربات حديدية عن الخط.

وهنا فكر عبد الله في أن يبعث إلى قائد الحامية التركية التي كانت تدافع عن المدينة المنورة برسـالة ينـصحه فيها بالانسحاب، ليس فقط من المدينة وانما من جميع أراضي الجزيرة العربية قبل فوات الأوان، هـذا إذا كـان يريد حقاً الخلاص لنفسه وجنوده.

فطوى رسالته ووضعها في مكان ظاهر بالقرب من مدخل إحدى العربات، ذلك لأنه كان من عادة الأتـراك أن يهرعوا إلى أي مكان يتعرض للنسف لمعاينته وإصلاحه، ولابد من أن يهرعوا الآن إلى هذا المكـان فيلاحظـوا الرسالة، فيلتقطوها ومن ثم ينقلوها إلى قائد حامية المدينة.

في هذه الأثناء، كانت الأنباء قد وصلت إلى القوات التركية الزاحفة صوب مكة المكرمة عن سـقوط مـدينتي ينبع ووجه بأيدي القوات العربية، وكذلك وصلتها أخبار الهجمات الصاعقة التي كانت قوات الأمير عبد الله تقـوم بها، وأخبار تقدمها بعد أن وصلت في زحفها إلى نقطة لا تبعد سوى مسافة مائة ميل إلى الجنوب الـشرقي مـن المدينة. فتولاهم الرعب، ودب الذعر في صفوفهم إلى درجة باتوا معها يشعرون بالقلق الشديد علـى المـصير الذي سيحل بهم على أيدي هذه القوات الزاحفة.

ومما كان يزيد في قلقهم وفزعهم أن الأمير زيد كان بدوره يقود شراذم من الجنود العرب، يوجهون الـضربة تلو الضربة للأتراك حيثما التقوا بهم وأينما وجدوهم.

هذا، وعلى الرغم من قلة عدد الرجال الذين كان زيد يقودهم فقد اسـتطاعوا بهجمـاتهم المتتاليـة وضـروب البسالة التي أظهروها أن يوهموا الأتراك بأن جيشاً عظيماً لا يعد ولا يحصى كان يطاردهم ويتـربص بهـم فـي كل زاوية من زوايا الجزيرة العربية.

ويبدو أن الطبيعة قد تحالفت يومذاك مع العرب ضد الأتراك. فقد اشتدت حرارة الـشمس إلـى درجـة أنهـا أصبحت فوق طاقة احتمال الأتراك، وقويت العواصف الرملية إلى درجة أنها عرقلت خط مسيرهم.

ومع ذلك، فقد استطاعت القوات العربية، وقد آزرتها حرارة الشمس بلسع أجساد الأتراك واعشاء أبـصارهم ـ استطاعت أن توالي هجماتها ضد الأتراك وتلحق الهزيمة تلو الهزيمة بهم، وتسجل لنفسها في كـل سـاعة مـن ساعات النهار، انتصاراً جديداً تضيفه إلى انتصاراتها السابقة.

فقد احتل العرب في غضون أيام قليلة كثيراً من القرى والقلاع، بل انهم احتلوا العديد مـن المواقـع التركيـة القريبة من حدود المدينة المنورة. فأثاروا بذلك الرعب في نفوس قواد الجيش المرابط هناك.

وفي منطقة البحر الأحمر احتل العرب قريتي ذبى وموبلي بالإضافة إلى بعض المواقع الحـصينة، مـرغمين الأتراك على الانسحاب منها إلى بعض المراكز الخلفية.

وطبيعي ان تتأثر معنويات الأتراك بكل تلك الهزائم المتتابعة ينزلها بهم عدوّ طالما اسـتهانوا بقوتـه وقدرتـه على الحرب والمقاومة، فوجدوه في ساحة النضال قوى الشكيمة، فائق الشجاعة، يشن علـيهم هجمـات مخيفـة قلبت أوضاع الحرب التي كانت قائمة، رأسا على عقب.

وبالإضافة إلى جميع تلك العوامل التي كانت تنشر الذعر والرعب والقلق بـين الأتـراك، فقـد لجـأ فيـصل ولورانس إلى تشكيل فرق محدودة العدد أوكلوا لرجالها مهمة التسلسل إلى ما وراء خطوط العدو لترويج أخبـار مختلفة عن الانتصارات التي أحرزها العرب، بالإضافة إلى ترويج الأخبار عن انتصارات وهمية وتضخيم أنبـاء الخسائر التي كانوا ينزلونها بالقوات التركية. وبذلك أصبح الرعب شاملاً جميع أوساط الجيش التركـي بمـا فـي ذلك قادته.

ونجحت هذه الخدعة نجاحاً عظيماً. وعلى أثر ذلك قرر القادة الأتراك أن يتراجعوا إلى المدينة المنورة، والـى بعض المواقع المنتشرة على طول امتداد خط الحجاز الحديدي، وحصروا اهتمامهم فـي الـدفاع عنـه لتـأمين خطوط مواصلاتهم بين المدينة المنورة ودمشق.

وكنتيجة لذلك لم يبق من القوات التركية في الجزيرة العربية سوى حامية واحدة، لكنها قويـة وكثيـرة العـدد، مهمتها الدفاع عن المدينة المنورة، وحامية ثانية في نقطة قريبة جداً من ميناء العقبة بالإضافة إلى بعض القـوات الموجودة في الميناء نفسه، وبضع فرق صغيرة موزعة على مواقع اسـتراتيجية منتـشرة علـى طـول الخـط الحديدي لحراسته من أعمال النسف المدمرّة التي بدأ العرب يقومون بها.

والجدير بالذكر أن القيادة التركية كانت تعتبر ميناء العقبة موقعاً استراتيجياً غاية فـي الأهميـة بالنـسبة إلـى مجرى الحرب، ليس في الجزيرة العربية فحسب بل وفي مصر وفلسطين وسوريا كذلك. وخاصة بعـد ضـياع مدينتي مكة المكرمة وجدّة بأيدي القوات العربية.

كذلك كان الأمير فيصل يقدر أهمية ميناء العقبة من الناحية الاستراتيجية تماماً، كما كان يقدر أهميـة المدينـة المنورة من الناحية الروحية. وكذلك كانت حال لورانس الذي كان يأمل أن ينفذ خطة جريئة وعلى أوسع نطـاق، وهي خطة طالما حلم بتحقيقها إذا ما تمكن في يوم من الأيام من احتلال ميناء العقبة.

الثابت ان ميناء العقبة كان يمتاز بأهمية عسكرية ـ استراتيجية رفيعة منذ اقدم العصور حتى اليوم. ففي زمـن الفتوحات الإسلامية، احتل العرب ميناء العقبة وجعلوه مركزاً لقيادتهم العامة. ومنـه كـانوا يـشنون هجمـاتهم ويوجهونها ويرسلون المؤن والإمدادات والمعدات إلى جيوشهم الزاحفة.

هذا وتكمن أهمية ميناء العقبة الاستراتيجية في واقع كونه يشكل من الشرق درعاً فعالا ضد أي جـيش يعتـزم القيام بهجوم على مصر أو على منطقة السويس، بينما يشكل من الجنوب درعاً فعـالاً لـصد أي جـيش يعتـزم الهجوم على سوريا أو فلسطين.

وانطلاقاً من هذا الواقع كان الأتراك يحتفظون فيه بقوة كبيرة من الجيش، وذلـك منـذ اليـوم الأول لإعـلان الحرب العالمية الأولى. وهدفهم من وراء ذلك أن يوفروا الحماية اللازمة لخط الحجاز الحديدي، والقيـام منـه بهجوم صاعق على مصر، في الوقت المناسب بغية احتلالها وطرد الإنكليز منها.

أما خطة لورانس فكانت تستهدف إقامة قاعدة قوية للجيش العربي في ميناء العقبة لاستخدامها في شـن هجـوم كاسح على سوريا. وأنها لعمري خطة طموحة جداً لو تحققت وان كانت محفوفة بالمخاطر.

وهذه لمحة قصيرة عن الهجوم الذي كان لورانس ينوي أن يشنه على ميناء العقبة. كانت خطته بادئ ذي بـدء تستهدف عزل الحامية التركية في المدينة المنورة عن باقي الحاميات التركية وتضييق الخناق عليها مـا أمكـن، بحيث تغدو عاجزة عن التحرك لنجدة غيرها من الحاميات التركية التي كانت تحـرس خـط الحجـاز، أو نجـدة حامية ميناء العقبة.

ثم يقوم الجيش العربي بهجومه المنتظر على العقبة، حتى إذا كتب له النصر وتمكـن مـن إلحـاق الهزيمـة بحاميته التركية تابع زحفه على مدينة دمشق، بينما كانت جيوش الحلفاء ستقوم من الجهة الأخرى بهجـوم علـى منطقة سيناء وفلسطين.

وهنا تجدر الإشارة إلى أن جيش فيصل هو الذي كان ـ بموجب خطة لورانس ـ سيقوم بالهجوم علـى مينـاء العقبة.

أما القوات التي كانت بقيادة الأمير عبد الله، فقد كان عليها ان تقوم بغارات متتابعة على جميع مراكز القـوات التركية التي تحرس الخط الحديدي. كما تقوم بنسف الخطوط الحديدية بحيث لا يعود بوسـع فخـري باشـا قائـد حامية المدينة المنورة ان يضمن انسحاب قواته من المدينة في حالة الخناق عليها، أو إرسـال نجـدات لمـساندة حامية ميناء العقبة في حالة القيام بهجوم عليها.

غير ان سلوك الأمير عبد الله وموقفه المائع من الحرب الدائرة في الحجاز، كما ظهر في المدة الأخيرة، كـان يقلق لورانس. فقد هاله أن يغدو عبد الله غير مهتم بقواته مثل اهتمامه بمجـرى الحـرب الـدائرة فـي فرنـسا وحفلات تتويج الملوك في أوروبا. وعلى ضوء ذلك راح يبحث عن سبب هذا التحول المفاجئ الذي طـرأ علـى سلوك عبد الله في المدة الأخيرة وموقفه المتخاذل من الحرب الدائرة هنا فعرف ان بريموند كان يوجـه نـشاطه ناحية عبد الله، بعد ان خذله فيصل، عله يستطيع اقناعه بشن هجوم على مدينة دمشق بالاشـتراك مـع الجيـوش الأخرى التي كانت بقيادة اشقائه.

كذلك عرف لورانس أن بريموند كان يسعى ما أمكنه السعي لاحداث ثغرة في وحدة ابنـاء الـشريف حـسين، وفي تحالفهم مع الإنجليز، حتى إذا ما فرق بينهم، احدث الفرقة بعد ذلك ما بينهم والانجليز.

وتحقيقاً لهذه الغاية حاول بريموند أن يحيط عبد الله بأكبر عدد ممكن من مستشاريه الفرنسيين. واستطاع ان ينجح نوعاً ما في مسعاه هذا، بدليل ان عبد الله كشف للورانس عن رسالة موجهة إليه من بريموند عندما اتصل به لمعرفة اسباب فتوره عن تأييد الحركة، كعهده في السابق.

وقد ضمنها بريموند قوله ان الإنجليز كانوا يستغلون مشاعر العرب بالتقرب منهم حتى يمكنهم تحقيق مآربهم في الحجاز ومصر والعراق.

ثم طلب من لورانس أن يوضح له حقيقة نيات الإنجليز فرمقه لورانس وقال مراوغاً: أرجو أن تسئ الظن بنا ساعة ترانا نسئ الظن بحلفائنا ونشك في نياتهم تجاهنا.

وعلى أية حال، فقد ادرك لورانس أن الوقت كان لا يسمح له بالاستمرار في المناقشة مع الأمير عبد الله، لا سيما وان الاحداث كانت تتوالى بسرعة مذهلة، والحرب في الصحراء تستلم السرعة في التصميم والعمل والتنفيذ.

وأهم من ذلك، كان عليه ان يقوم بنسف بعض قضبان الخط الحديدي في عدة مناطق تمهيداً لشن الهجوم المتوقع على ميناء العقبة.

وهكذا، فقد عاد لورانس إلى ميناء وجه حيّث حشد قوة لا يستهان بها لشن غارات صاعقة على خطوط مواصلات العدو بغية نسفها وتدميرها. وكانت هذه القوة تتألف من ثمانمائة رجل من قبيلة الحويطات ومائتين من قبيلة الشرارات وتسعين من قبيلة ثالثة.

وفي اليوم الثامن عشر من حزيران عام ١٩١٧ انطلقت هذه القوة من ميناء وجه متوجهة إلى رأس خليج العقبة.

كان هذا الجيش بقيادة الشريف ناصر، وهو قائد من أقدر القادة في جيش فيصل، وكان لورانس يرافقه بصفة مستشار وكان من عادة لورانس أن يراقب العمليات الحربية مع أحد الزعماء المحليين. هذا، ولا مجال للانكار بأن معظم انتصاراته واسباب نجاحه تعود إلى واقع انه كان قادراً على أن يدخل في روع المناضلين العرب انهم يقاتلون لمصلحتهم، ولذا فان عليهم ان يتولوا الحرب ويقوموا بالحملات العسكرية.

ويعطينا زحف هذا الجيش على ميناء العقبة صورة واضحة عن مقدرة لورانس في توجيه جيش فيصل بالرغم مما كان يفتقر إليه من الخبرة والدراية في الشؤون العسكرية.

ومما يذكر أن لورانس قسم تلك القوة إلى وحدات، ومن ثمن سار على رأس احدى هذه الوحدات مسافة الف ميل تقريباً إلى الشمال من ميناء وجه.

ولكن بدلا من أن يتابع زحفه بمحاذاة الشاطئ نحو العقبة وجه رجاله نحو الداخل - أي إلى قلب الصحراء حيّث قام بنسف عدة اميال من الخطوط الحديدية القريبة من المدينة المنورة.

وكان يهدف من ذلك إلى ترويع قائد حامية المدينة التركي وأخذ زمام المبادرة منه. ثم وجه رجاله باتجاه وادي سرحان الذي تكثر فيه الافاعي السامة، وعبروا منه إلى منطقة قبيلة الحويطات الواقعة شرقي البحر الميت، ثم غيروا وجهة مسيرهم إلى الشمال.

وهنا كان لورانس يختار بعض الرجال ويتسلل معهم أثناء الليل إلى ما وراء خطوط الأتـراك لتنفيـذ بعـض أعمال النسف والتدمير.

ثم يعودون سالمين إلى مخيماتهم. والواقع ان لورانس استطاع أن ينسف قطاراً بالقرب من عمان، وأن ينـسف جسراً بالقرب من درعا. وادهش من كل ذلك انه نجح في التسلل مئات الاميال خلف خطوط العدو واسـتطاع أن يزرع فيها الألغام حتى حدود مدينة حمص السورية.

والجدير بالذكر أن قدرة المناضلين العرب على التحرك بسرعة وتحمل مشقات السير في الصحراء هي التـي كانت تتيح المجال للورانس أن يشن هجوماته ضد الأتراك على نطاق واسع. فقـد كـان باسـتطاعة المناضـلين العرب ان يتوغلوا في قلب صحراء إلى مسافات بعيدة جداً، بحيث كانوا يقضون عدة أسابيع يخوضـون خلالهـا عدة معارك ضد الأتراك، قبل أن تدركهم الحاجة للعودة إلى المراكز التي انطلقوا منها لأخذ قسط من الراحة أو للحصول على مؤن جديدة.

والمدهش ان المناضلين العرب كانوا يتنقلون في الصحراء بأمان وسلام.

ودون أن يخالجهم أدنى شعور بالخوف من الأتراك. والواقع أن هؤلاء المناضلين كانوا يقلقون بـال الأتـراك ويقضون مضاجعهم بكثرة الغارات التي كانوا يشنونها على مواقعهم ومراكزهم، وكان الأتراك لا يجرؤون البتة على مطاردتهم خوف ان تبتلعهم الصحراء.

ومعلوم أن حروب الصحراء تتطلب ممن يشترك فيها أن يكون مدركاً لاسرارها وخفاياها ومعالمها، ومتمرساً بركوب الجمال، وان تكون ارادته من الصلابة بحيث يمكنه أن يثابر ويكابد ويحتمل المتاعب والمـشقات، ومـا اكثرها، التي ستبرز أمامه في الصحراء.

هذه هي الصفات التي كانت تعوز الجندي التركي حتى يمكنه الصمود فـي وجـه رجـال القبائـل العـرب ومطاردتهم. وفضلا عن جميع هذه الصفات التي يتحلى بها العرب، فإنهم كانوا كذلك اكثر احتمالا من الأتـراك لمقاومة الجوع والعطش.

وقد يتصور البعض ان مثل هذه الصفات ليست من الاهمية بحيث تؤثر على مجرى الحرب، والواقع انها هـي التي تقود صاحبها إلى الانتصار، كما ثبت في هذه الحرب الغامضة الغريبة.

ولا بد لنا الآن من اعطاء القارئ فكرة خاطفة عن المخطط الذي وضعه لورانس لشن تلـك الغـارات علـى مراكز الأتراك ونسف الخط الحجازي.

بعد ان توغل لورانس ورجاله بعيداً في الصحراء، ارتأى ان يقسم جيشه إلى عدة فرق صـغيرة، وذلـك بغيـة شن هجمات صاعقة على مواقع العدو ومراكزه، من كل حدب وصوب.

وكانت هذه خطة حاذقة استطاع بها أن يثير الرعب والذعر في نفوس الأتراك، جميع الأتـراك، وأن يجعلهـم يتخبطون في لجة الحيرة والارتباك. والواقع انه اوقعهم في حيرة من امرهم. وذلك لأنه بينما كان بعـض رجالـه يشنون غارة عليهم في مدينة جرش بالاردن، كان بعضهم الآخر يشن عليهم غارة في ضـواحي مدينـة دمـشق بسوريا، كل ذلك والاتراك لا يجرؤون على مطاردة المغيرين خيفة أن تقضي الصحراء على البقية الباقية منهم.

وهكذا ظل يوالي الهجمات على مواقع الأتراك، ويقوم بنسف الخطوط الحديدية إلى أن أصبح في نقطة لا تبعد سوى ستين ميلا عن ميناء العقبة.

وهنا ارتأى أن يقوم بما من شأنه ان يوهم الأتراك بأنه لا ينوي الهجوم على هذا الميناء حتى تصل الجيوش الباقية التي كانت في طريقها إلى هناك. وعليه فقد شن هجوماً قوياً على مدينة معان الواقعة بين المدينة المنورة والبحر الميت وحيث كان الأتراك يحتفظون بحامية قوية.

وفي الوقت ذاته، كانت أخرى تشن هجوماً خاطفاً على قرية الفويلة، وهي محطة لسكة الحديد فقضت على حاميتها.

في هذه الاثناء، وصلت انباء سقوط حامية محطة الفويلة إلى اسماع قيادة حامية معان فبادر قائدها بارسال فرقة آلية متحركة لنجدتها.

ولكن الفرقة وصلت بعد فوات الاوان، إذ ان رجال لورانس كانوا قد انسحبوا إلى الصحراء حيّث اصبحوا بعيدين عن خطر الأتراك، أو أي هجوم معاكس قد يقومون به ضدهم.

ثم راح يشن الهجمات على المناطق التي نزح الأتراك عنها لنجدة المواقع التي تعرضت قبلا للغارات الخاطفة. ولم ينس لورانس شأنه دائماً، أن يزرع المنطقة بالالغام، وينسف الخطوط الحديدية والقطارات بالمتفجرات.

وبعد أيام انضم رجال قبيلة بني عطية وكان عددهم يومئذ يقارب الاربعة آلاف مقاتل إلى قوات لورانس والشريف ناصر، والفئة الموالية للشيخ عودة ابن تايه من قبيلة الحويطات. والحقيقة ان هذه الفئة كانت تتألف من رجال يعتبرون من افضل المقاتلين في الجزيرة العربية. وكان قائدهم هو الشيخ عودة نفسه الذي أصبح من أقرب الرجال إلى لورانس.

في هذه الاثناء، قرر قائد الفرقة التركية التي كانت تطارد العرب ان يقضي الليل في واد قريب من بعض الآبار في قرية أبو لسان، التي تبعد حوالي اربعة عشر ميلا عن مدينة معان.

وفي الوقت ذاته غادر لورانس معسكر قواته وتوغل في الصحراء ليبحث عن مكان الأتراك. حتى إذا أدرك بغيته عاد إلى معسكره فأيقظ رجاله وقادهم إلى التلال المجاورة لقرية أو لسان وتمركزوا هناك، بانتظار انبلاج الفجر. وفي الصباح استيقظ الأتراك ليجدوا انفسهم محاصرين من جميع الجهات.

ثم بدأت المعركة بين العرب والاتراك. وقد ظل العرب يطلقون نيرانهم على الأتراك اثنتي عشرة ساعة بلا انقطاع. والواقع ان العرب كانوا يضيقون الخناق على قوات الأتراك، ومع ذلك كان لورانس يعرف تماماً ان الأتراك كانوا يستطيعون الافلات نم الطوق المضروب حولهم إذا كان قائدهم شجاعاً.

ولكن يبدو أن قائد هذه الفرقة كان مفتقراً إلى الجرأة والشجاعة.. فراح رجاله يدفعون ثمن تخاذله وتردده من ارواحهم ودمائهم.

قلت ان الشجاعة كانت تعوز قائد الحامية التركية للاقدام على عمل ما يكون من شأنه ولا ريب أن يشق لنفسه ثغرة بين صفوف المناضلين العرب ينطلق منها إلى الخلاص وانقاذ من يمكن انقاذه من رجاله.

ولما كان ذلك هو وضع القوات التركية وشأن قائدها، فقد انتهز الشيخ عودة بن تايه هذه الفرصة ليقوم بهجـوم مباغت على الأتراك، كما ان الاستجابة لدعوة الشيخ عودة للمتطوعين اظهرت ان البلاد ستهب عن بكـرة ابيهـا لتسعى لتحريرها.

وبالاضافة إلى ذلك فقد كانوا يبعدون عن دمشق مسافة تعادل بعدهم عن العقبـة، فلمـاذا يتوجهـون إذن فـي الإتجاه المعاكس بينما في امكانهم تحقيق هدفهم من اقصر الطرق؟ وهنا قرر الـشيخ عـودة ان شـن هجومـه المباغت على الأتراك.

ولست اعتقد أن الأتراك كانوا يتوقعون من العرب ان ينقضوا عليهم بمثل هذه السرعة والجرأة. ولكن الريـاح كانت تجري على ما يبدو، بعكس ما كان يشتهي ربان سفينة القيادة التركية، إذ انقض الشيخ عودة بهجومه علـى الأتراك مع خمسين رجلاً، وراح يحاربهم في عقر حصونهم.

في هذه الاثناء، كان لورانس يراقب الهجوم بهدوء وحماس ثم هب واقفاً وأمر رجاله بالهجوم علـى الأتـراك، وقد شجعه على ذلك ما رآه من الفوضى الضاربة اطنابها بين صفوف الأتراك. وسـرعان مـا اشـتد وطـيس المعركة بين الفريقين.

والواقع ان العرب ظلوا محافظين على وحدة صفوفهم أكثر من الأتراك، لكن المعركة تحولت الآن إلى معركة بالسلاح الابيض، إذ ان العرب هبطوا عن ظهور ابلهم وراحوا يقاتلون الأتراك وجهاً لوجه.

وغاب عن بال القائد التركي انه حين أمر رجاله بالتفرق عن بعضهم بعضاً، أنه بـذلك رجـح كفـة العـرب واعطاهم الفرصة التي كان لورانس يتوقع أن تتوفر للعرب للتغلب على الأتراك. لأن العرب كـانوا متمرسـين على النضال غير المنظم أكثر من سواهم من الجنود النظاميين.

ونتيجة لذلك، تعرض الأتراك لهزيمة شنيعة في "بئر لسان"، فلاقى معظمهم حتفه على أيدي العـرب. وهـرب من استطاع الهرب تحت ستار ظلام الليل وراح يتخبط في جوانب الصحراء خبط عشواء. ومن لم يجـد وسـيلة للهرب وقع اسيراً بيد العرب الذين بسطوا سيطرتهم على هذا الموقع المهم المؤدي إلى ميناء العقبة.

الفصل الثاني عشر

الزحف على ميناء العقبة

حالما انتهى من الوليمة الكبرى التي اقامها الأمير فيصل تكريماً للشيخ عودة ابن تايه بمناسبة انـضمامه إلـى صفوف الثورة العربية، وهي الوليمة التي حضرها لورانس، والشريف ناصـر، ابـن عـم فيـصل ومـساعده العسكري الخاص، وعدد كبير من زعماء القبائل ـ دعي المجلس الحربي إلى الانعقاد بجميع اعـضائه، وذلـك لبحث الامور الطارئة، والاوضاع السائدة في الجزيرة العربية.

وبهذه المناسبة لا بد لي من التلميح إلى ان التقاليد الجارية في الجزيرة العربية تعطي لكل رجل يحـضر مثـل هذه الاجتماعات والمؤتمرات وغيرها الحق في ان يعبّر عن ارائه بمنتهى الصراحة، وان يقترح على زعيمـه أو قائده، كائناً من يكون، أي اقتراح يراه ضرورياً لنجاح الخطة المعروضة للبحث والمناقشة قبيل تنفيذها.

وهذا ما يشابه الحق الذي تعطيه قوانين القبيلة والعشيرة لكل رجل في ان يدفع ظلامته إلى زعـيم القبيلـة دون ان يكون لزعيم هذه القبيلة أي حق في عدم الإصغاء إلى شـكواه. هـذا، وبعـد مناقـشة جميـع الاقتراحـات والموضوعات المطروحة على بساط البحث، والرد عليها، يقرر القائد نوع الخطط والاوامر التي يجـب تنفيـذها والتقيد بها.

كان لورانس يعتبر هذا الاجتماع مهماً جداً له. فقد كان يرى ان من الضروري جداً الحـصول علـى موافقـة العرب على خطته التي رسمها لاحتلال ميناء العقبة كخطوة ثانية في سلسلة الهجمات التي أزمع تنفيذها.

قبل هذه الفترة، كان لورانس يستلم بين وقت وآخر بعض الرسائل التي يبعث بها إليه كلايتـون مـن القـاهرة، والذي كان يخبره فيها ان اركان القيادة العامة كانوا يعتقدون بأن القيادة التركية العليا ارسلت تأمر فخـري باشـا بالانسحاب من المدينة المنورة.

وكانت القيادة البريطانية تشدد في رسائلها على الجيوش العربية كي تبذل قصارى جهودهـا لاحـتلال المدينـة المنورة والقضاء على حاميتها التركية. ذلك ان القيادة البريطانية كانت تشدد على ضرورة قيام العـرب بهجـوم كسح على المدينة المنورة، لأن السير ارشيبالد موراي كان سيقوم بشن هجوم آخر على مدينة غزة الواقعـة فـي الجهة المقابلة، فتصيب عصفورين بحجر واحد.

هذا من جهة، ومن جهة أخرى، كان الكولونيل جويس وزميله الكولونيـل نيوكومـب يعتقـدان ان بالامكـان احتلال المدينة المنورة بمجرد تضييق الخناق حول حاميتها التركيـة والـسيطرة علـى مواقـع خـط الحجـاز الحديدي... فيتوقف سيل الامدادات الواردة إليها، فتضطر إلى الاستسلام، أو انها ستقوم بمحاولـة يائـسة لـشق طريق لها إلى البحر.

وهذه المحاولة ستكون فاشلة للإلقاء بالمائة، مهما كانت الظروف والاحوال. بيد أن لورانس لـم يكـن مقتنعـاً بفائدة هذه الخطط والتدابير التي تضعها القيادة العامة بالنسبة إلى احتلال المدينة المنورة.

كما كان مقتنعاً بفائدة عدم زج العرب في معركة ضد قوات عسكرية متفوقـة علـيهم مـن حيّـث التنظـيم والتدريب. كذلك كان لا يرى أية فائدة ترجى من اشراك العرب بهجوم ضد قوات فخري باشا بل انه كان يـرى من الخير للقوات البريطانية إذا أمكن للقيادة البريطانية القيام بذلك أن تبقي قوات فخري باشـا محـصورة فـي مكان كالمدينة المنورة.

إذ أنها ستبقى هناك بعيدة عن مجرى الاحداث، مما سيحول بينها وبين الأتراك في أية معركة تحدث بـين أيـة قوات بريطانية أو عربية اثناء قيامها بأي هجوم على مواقع الأتراك الأخرى.

وحتى يمكن تضييق الخناق حول القوميات التركية المتمركزة في المدينة، كان لورانس يرى امكانيـة تحقيـق ذلك بشن سلسلة من الغارات على خط الحجاز مما يحرمها من المؤن والامدادات التي ستبعث بها القيادة التركية إلى هناك لتعزيز الحامية، ويجعلها عاجزة عن شن أي هجوم كان، حتى وان كان مثل هذا الهجوم ربما تقـوم بـه بدافع انقاذ نفسها.

هذا، وعلى الرغم من فشل لورانس في اقناع رؤسائه بالفوائد المتوخاة من تنفيذ خطته، فقـد صـمم علـى أن يمضي برفقة شلة من المناضلين العرب لنسف خط الحجاز، بينما كان الأمير فيصل سيزحف علـى رأس جيـشه

لغاية أن يصل إلى النقطة التي ستلتقي عندها قولته مع قوات الكولونيل جيوس. والجدير بالذكر أن لورانس كـان قد اطلع كلايتون والأمير فيصل على خطته هذه.

وفي ذلك الحين، لم يبد فيصل حماساً زائداً لتنفيذها أو شن هجوم على ميناء العقبة ما لم يضمن انضمام الـشيخ عوده به تايه إلى صفوفه. أما وقد تم ذلك الآن، فقد وافق على خطة لورانس بغير تردد.

ذلك ما كان يجول في خاطر لورانس اثناء انعقاد المجلس الحربي في اجتماع عام. ونعود الآن للتحـدث عمـا جرى في ذلك الاجتماع.

ذكرت ان الأمير فيصل دعا المجلس الحربي إلى اجتماع عام اثر انتهاء الحفلة التي اقامهـا تكريمـاً للـشيخ عودة. وهناك دارت مناقشات قصيرة حول بعض الأمور، قام لورانس بعدها بعرض خطته التـي كـان ينـوي تنفيذها. فالمعلوم ان المسافة كانت لا تزال بعيدة جداً من هناك إلى العقبة، ومسالكها شاقة صعبة مما يجعل مـن المتعذر على الجيش الذي سيقوم بالهجوم عليها ان ينقل معه اسلحة ثقيلة ومعدات ضـخمة كالمـدافع مـثلا، أو كميات كبيرة من المؤن. لذا، فقد عرض لورانس أمام المجلس خطة جديدة وطلب على أساسها مـن المجتمعـين أن يسمحوا له بأخذ بعض الرجال ليقوم معهم بحركة التفاف يصل بعدها إلى المنطقة الواقعـة ضـمن المنـاطق التي تسيطر عليها قبيلة الحويطات، تلك المنطقة التي تبعد مسافة مئتي ميل إلى الشمال الشرقي من العقبة.

وكان هدفه من وراء ذلك أن يشكل من رجال قبيلة الحويطات قوة ضاربة يتوجه بها إلى العقبة مـن الـشرق. ذلك ان لورانس كان يفكر بالزحف على العقبة من الشرق. وكانت جميع التقارير السرية عن الحالة فـي العقبـة تقول ان الأتراك كانوا يركزون تحصيناتهم في جهة المدينة المواجهة للغرب، أي الجهة المواجهة للبحـر، ممـا يدل على ان الأتراك كانوا لا يتوقعون هجوماً بشن على العقبة من الشرق - أي عبر الصحراء - ولنهم كـانوا يتخوفون من هجوم يأتيهم من البحر، أي من الغرب، وذلك نظراً للمسافة الطويلة التي كانت تفصل بـين العقبـة ومواقع الجيوش العربية القائمة في قلب الصحراء.

وهكذا نجد ان الأتراك حصروا اهتمامهم في تحصين الجهة الغربية المقابلة للبحر وتركوا الجهة الشرقية تحـت حراسة زمرة من الجنود.

وما أسرع، ما كان الشيخ عوده في استجابته لخطة لورانس وموافقته على تنفيذها. وقال أيضاً فيما كـان يعـدّد الفوائد المتوخاة من تنفيذ مثل هذه الخطة، ان بالمستطاع تنفيذ أية خطة كانت متى وجـدت المتفجـرات والمـؤن والمبالغ المالية اللازمة لها.

كذلك فإن الشيخ عودة أقسم بأن يضع كافة إمكانيات قبيلة الحويطات في خدمة الهجوم المنتظر وتنفيذه.

ثم حذا حذوه الأمير فيصل فوافق على خطة لورانس بغير تردّد ووعد بتنفيـذها ومـساندتها. وبعـد مناقـشة قصيرة دارت حول الطريقة التي سيتم بها تشكيل القوة والاتجاه الذي يجب أن تـسلكه، اتخـذ المجلـس قـراره بالموافقة ورفع الاجتماع.

وفي التاسع من شهر أيار، غادر لورانس ميناء وجه يرافقه الشيخ عودة وابن عمه محمد الـدهيلان، والـشريف ناصر والشيخ نسيب البكري السوري، وخمسة وثلاثون رجلاً من رجال قبيلة العجيلي.

وقد حملوا معهم ساعة انطلاقهم بالاضافة إلى المؤن والمواد الغذائية والبنادق، مبلغ عشرين ألف ليـرة ذهبيـة تسلمها لورانس من الأمير فيصل.

وكان هذا المبلغ من المساعدة التي كانت بريطانيا تقدمها له كي يشتري بها الامدادات والمؤن ما يكفيه لمتابعـة الحرب. أما الأمير فيصل فإنه بقي في ميناء وجه بانتظار وصول المراسلات من القيادة البريطانية في القـاهرة، إذ أن جيشه كان سينضم بموجب تلك الارشادات إلى قوات الكولونيل جويس عندما يحين موعد تنفيـذ المخطـط البريطاني المتعلق بنسف خط الحجاز الحديدي.

هذا، وعلى الرغم من التناقضات التي تجمعت في العناصر التي تألفت منها هذه الرقة التي يقودهـا لـورانس، فانه يمكن القول أنها كانت فرقة رائعة.

فمن بين من ضمتهم الشيخ عدة الذي كان مشهوراً بنزعته القبلية ومعرفته عـن معـالم الـصحراء التـي لا يضاهيه فيها أحد... وضمت أيضاً الشيخ ناصر الذي كان مشهوراً بنزعته الارسـتقراطية وثرائـه الفـاحش... والشيخ نسيب البكري الذي كان مشهوراً بميله إلى قرض الشعر ونظم الالحان الموسيقية.

ومما يذكر أن الأتراك كانوا قد حكموا الشيخ البكري بالإعدام لاشتراكه في انقاذ الأمير فيصل وتـدبير خطـة هربه من دمشق... وأخيراً، لورانس، الذي كان مشهوراً باندفاعه وراء ركوب المغامرات والمجازفات فانـضم إلى صفوف العرب ليشاركهم مصيرهم المجهول... لقد انضم لورانس إلى صفوف العرب قبل أن يكون لنفـسه فكرة واضحة عن مدى الفائدة التي سوف تجنيها قضيتهم من خدماته، أو الفائدة التي كان سيجنيها هو باسـتمالتهم إلى خدمة أهدافه الخاصة.

ذلك لأن لورانس كان مندفعاً وراء حلم طالما راوده وعلّل به الاماني بتحقيق بناء إمبراطورية عربيـة شاسـعة الأطراف، وتنصيب الأمير فيصل إمبراطورا عليها بينما يبقى هو تلك القوة الدافعة لعجلة تلك الإمبراطورية مـن وراء الستار.

وعند هذه المرحلة من مراحل مغامراته، بدأ لورانس يطبع نفسه بطابع عربي بحت. ومّما تجدر الإشـارة إليـه الآن هو أن لورانس كان قبل مغادرته لميناء وجه خاضعاً لرقابة وسلطة الكولونيل جويس والقيـادة العليـا فـي القاهرة.

بيد أن الأعمال التي قام بها فيما بعد، وطريقته الجديدة في الكتابة إلى كلايتون والقرار الخـاص الـذي اتخـذه بمنأى عن القيادة بالزحف على ميناء العقبة على رأس شلة من المناضلين العرب، كل ذلك كـان بمثابـة خطـوة جريئة خطاها نحو قطع العلاقات بينه وبين رؤسائه.

وكأني به كان يتجاهل منصبه كضابط ارتباط بين القيادة البريطانية وبين الجيش العربي عنـدما بـدأ يتـصرّف كما لو أنه كان ممثلاً للأمير فيصل لدى هذه القيادة. يالغرابة أطواره وشذوذ افكاره!

ولدينا أدلة كافية عن مدى التحوّل الذي طرأ على حياة لورانس وتفكيره بالنسبة إلى تعـشقه عـادات العـرب وتقاليدهم. فقد أصبح يرتدي اللباس العربي ـ أي العباءة والكوفية والصندل ـ ويرفض بإباء أن يستبدله بغيـره من الأزياء.

وأصبح أيضاً يحمل نفسه أكثر مما تستطيع أن تتحمله من شظف الحياة الصحراوية وخشونتها. كما يحـاول أن يمارس التقاليد العربية إلى أقصى حد مستطاع.

والحقيقة أن تعلق لورانس بالحياة الصحراوية القاسية ينبع من صميم اعتقاده بـأن القـدر قـد ربـط مـصيره بمصيرها.

والحقيقة أنه قد اثبت القول بالعمل. إذ كنت تراه يسير دائماً في طليعة المواكب الزاحفة إلى أمام بعزيمة جبارة وإرادة لا تلين، غير آبه لا لحر الشمس ولا لرمضاء الصحراء ولا للجوع أو العطش.

وكأني به يريد أن يتحدى رجاله بسرعة جريه ورشاقة حركاته وتنقلاته، وبقدرته على تحمـل مـشقات الحيـاة وشظفها في الصحراء.

ليس ذلك فقط، بل انه كان يستوقف رجاله عند كل نقطة من نقاط الخط الحديدي لينسفها... حتى إذا انتهى مـن ذلك توارى ورجاله بعيداً عن الأنظار، متوغلين في قلب الصحراء... ثم كانوا يعاودون الكرة من جديد فيقومون بنسف موقع آخر من مواقع الخط الحديدي الهامة ويتوارون ثانية عن الأنظار... وهكذا دواليك.... وفـي الليـل، كانوا يبحثون عن الراحة والدفء في ظل أكمة، أو مرتفع، أو خاف منعطف.

فكانوا يصرفون ساعات الليل بحكاية أقاصيص الحب والحرب والمغامرات، واحتساء القهوة العربية اللذيذة.

وفي ذات ليلة، بينما كان لورانس مستريحاً من عناء يوم شديد القيظ، إذ به يشاهد غلامـين قـادمين نحـوه ـ وعرف فيما بعد بأنهما ينتميان إلى قبيلة العجيلي ـ وطلبا منه الحماية.

فسألهما أول ما سألهما عن المكان الذي جاءا منه وعن القبيلة التي ينتسبان إليها. فرد عليه أكبرهما سناً والـذي كان قوي البنية والعضلات وقال ان اسمه داود، واسم صديقه الذي كانت ملامحه جذابة وجميلة كملامح الفتـاة، فرّاج.

ثم تابع حديثه يقول ان صديقه فراج حاول أن يضرم النار في خيمة شخص يدعى سعد هو أحد شـيوخ القبيلـة ـ وكان أن أدركهما ووقف الفتى صاغراً يصغي إلى حديثه.

ـ ولكنه شعر به فانتهره ثم لحق به عندما هرب يهدد ويتوعد بانزال أشد العقـاب بـه. فـسر لـورانس مـن صراحة الغلام وعرض وساطته للتوفيق بينهما وبين سعد الذي صفح عنهما نزولاً عند رغبة لورانس.

أخيراً، اقترب فرّاج من لورانس ولثم يده، ثم يد سعد. وهرول مسرعاً نحو مضارب خيام القبيلـة يغمـر قلبـه الفرح والسرور. وكم كانت دهشة لورانس إذ شاهد داود وفراج، في صباح اليوم التـالي علئـدين إليـه ليطلبـا الانضمام إلى فرقته. وقبلهما لورانس وعينهما في عداد حرسه الخاص.

وهكذا ظل لورانس ورجاله متابعين مسيرهم في الصحراء وفقاً لتوجيهات الشيخ عـودة وارشـاداته. فكـانوا يمرون من فوق الجبال حيناً، ثم يمرون من بين الوهاد والوديان حيناً آخر، أو يـسيرون علـى أراضـي رمليـة ناعمة يتخللها الشوك والعشب.

في تلك الأيام، كان الحر يبلغ أقصى مداه فيخيل اليهم أن الصحراء معدومة الحيـاة... إذ أن الغـزلان كانـت تختبئ في أوكارها والطيور تبحث عن ثقب تحتمي وراءه من الحرّ الشديد، والأفاعي تلوذ بجحورهـا، والجـرذ كذلك... فلا غزلان تقفز أمامهم، ولا طيور تحلق فوق رؤوسهم، ولا أفاع تزحـف علـى بطونهـا، ولا عـشباً

تحركّه الرياح... ولا جرذاً تقرض الأعشاب بأسنانها... وكانت الرياح الخمسينية تهبّ في بعض الأحيـان لتزيـد من شدّة القيظ ولتلسع وجوههم بذرات الرمال التي كانت تنقلها معها فتسيل منها الدماء.

ومضت عشرة أيام لم يقطعوا خلالها سوى مئة وخمسين ميلاً. ولكنهم كانوا يتوقفون خلالهـا ليقومـوا بنـسف بعض مواقع الخط الحديدي، أو بتدمير بعض عواميد الهاتف والتلغراف.

وكان عليهم الآن أن يقطعوا مسافة مئتي ميلاً في الصحراء قبل أن يصل بهم المطاف إلـى أرض فيهـا ميـاه صالحة للشرب. وكانت المنطقة التي يتوقعون الوصول إليها تدعى صحراء النفود، ثم يصلون منهـا إلـى آبـار رفحة ضمن المناطق التي تسيطر عليها قبيلة الحويطات، أي القبيلة التي كان الشيخ عودة، مرافقه ودليله، ينتمـي إليها.

وفي اليوم السابع والعشرين من أيار، أي بعد مرور ثمانية عشر يوماً على مغادرتهم لميناء وجه، وصلوا إلـى آبار رفحة وهم على أشد ما يكون التعب والإرهاق والجوع والعطش. وهنا شـن بعـض رجـال قبيلـة شـمر المعروفة بعدائها لقبيلة الحويطات، شنوا غارة عليهم.

ولكن محمد ابن عم الشيخ عودة أفسد عليهم هذه المحاولة، إذ تصدى لهم على رأس زمرة من الرجال فردّوهم على اعقابهم فاشلين. ومع ذلك فقد أبى الشيخ عودة إلاّ أن يتـابعوا سـيرهم نحـو مـضارب خيـام قبيلتـه ـ الحويطات ـ وذلك بغية الحصول من بقية شيوخها المقيمين في اقصى وادي سرحان على ضمانة بعدم التـصدي لهم أو محاولة الاعتداء عليهم إذا ما وصلت طلائعهم إلى هناك.

كذلك كان الشيخ عودة ينوي الاتصال بالشيخ نوري الشعلان الذي يعتبر زعيم منطقـة وادي سـرحان والـذي كان أميراً لقبيلة الرولا، وواحداً من أمراء الجزيرة العربية العظام، والمشهور أيضاً بأنه ثعلب الصحراء.

ومن البديهي أن نذكر بأنه سبق لنوري الشعلان أن مهد السبيل أمام الأمير فيصل للهرب من دمشق. بيـد أنـه لم يكن قد أعلن بصراحة عن وقوفه بجانب الثورة العربية.

هذا، وبما أنه كان يشارك قبيلة الحويطات زعامتها في منطقة وادي سرحان، فقـد رؤي مـن الخيـر القيـام بمحاولة كسب رضا الشيخ شعلان أو اقناعهم الوقوف على الحياد في الصراع القائم بين أركان الثـورة العربيـة والإمبراطورية العثمانية، واقناعه أيضاً بعدم التعرض لقبيلة الحويطات بعد انضمام رجالها إلـى الجـيش الـذي سيقوده هو ولورانس لشن هجوم على ميناء العقبة.

ومما يذكر أن الشيخ عودة كان سيقوم بكل ذلك بطريقة سرية تنفيذاً لفكرة الأمير فيصل الـذي أراد أن يقـوم الشيخ شعلان باعلان ولائه لتركيا بعد الحصول منه على كافة تلك الضمانات والتعهدات.

فقد كان الأمير يهدف من وراء هذه الخطة إلى تطمين جمال باشا بحيث يستنكف عن ارسال جيوش إلـى هـذه المنطقة لتعزيز حامياتها التركية إذا ما أعلن الشعلان عن ولائه لتركيا.

وهكذا فقد يخلو له الجوّ ليعد العدة الكافية لشن الهجوم المنتظر على ميناء العقبـة فـي جـوّ يتخلّلـه الأمـان والاطمئنان.

والواقع أن الضرورة كانت تقضي باللجوء إلى تدبير خدعة كهذه. فقد كان الحماس يتغلغل في صدور رجـال القبائل الذين كانوا يتوافدون بالمئات إلى مركز الأمير فيصل معلنين عن ولائهم التام له وانضمامهم إلى صفوف الثورة العربية.

وخاصة، عندما علموا بعودة الشيخ عودة ووقفوا على حقيقة الهدف الذي كان يصبوا إليه.

من هنا كان فيصل يخشى من أن يتسرب شئ من هذه الأنباء والمشاهد المثيرة إلى اسـماع القيـادة التركيـة، وانباء تشكيل الجيش الذي سيحشده تمهيداً للزحف على مدينة دمشق، فتفسد عليه خطتـه، وربمـا وضـعت فـي وجهه المشاكل والعراقيل.

ويذكر أيضاً أن الشيخ نسيب البكري عرض على لورانس خطة أخرى لهجوم مفاجئ يقومون به على سوريا.

وكان الشيخ البكري يعلّل الأماني بتشتيت صفوف الأتراك عندما يفاجأون بمثل هـذا الهجـوم الكاسـح. ومـا استجابة رجال القبائل الشاملة للنداء الذي وجهه الشيخ عودة كي يبادروا إلى التطوع في الجيش العربي إلاّ دلـيلاً واضحاً على أن سوريا كانت ستهب هبة رجل واحد بوجه الأتراك والترحيب بمقـدم جـيش التحريـر العربـي وطلائعه.

ومن جملة الأسباب التي أهابت بالشيخ البكري إلى تفضيل الهجوم يقومون به على مدينة دمشق بدلاً من مينـاء العقبة هو أن النقطة التي وصلوا إليها الآن كانت أقرب إلى دمشق منها إلى ميناء العقبة.

وختم الشيخ البكري دفاعه عن خطته يقول: انه طالما سيتحقق هدفهم بمثل هذه السهولة، فلا داعي هناك للقيـام بهجوم يبعدهم كثيراً عن دمشق؟

بيد أن لورانس لم يكن مثل ذلك المغامر الذي يدفعه الحماس إلى حد المقامرة بأرواح الرجال. فإنه قد عـرض مستقبله للخطر حينما قرر أن يزحف على ميناء العقبة للاستيلاء عليه من القوات التركية هناك.

وقد خالف بذلك أوامر القيادة العليا. ولكنه كان يفعل ذلك نظراً لأهمية ميناء العقبة الاستراتيجية، وبغية توسـيع رقعة الحرب، والاقتراب من مواقع القوات البريطانية الضاربة في سيناء، وبغية تذليل الصعوبات التـي تعرقـل الاتصالات معها.

وعليه، فإنه لن يغامر مرة أخرى بمستقبله في سبيل الزحف على مدينة دمشق. من هنا كانت معارضته لفكـرة الشيخ البكري وقال: إن من الجنون القيام بمحاولة الهجوم على دمشق الآن، خاصة وان قوات الأمير فيصل لـم تكن بعد قد تحركت من ميناء وجه، والقوات البريطانية لا تزال بعيدة جداً إذ كانت فـي غـزة، بينمـا الأتـراك يرسلون قوات جديدة إلى مدينة حلب لتعزيز مواقعهم في طول البلاد وعرضها.

الفصل الثالث عشر

"احتلال العقبة"

على الرغم من أن لورانس رفض خطة الشيخ نسيب القاضية بشن هجوم فوري على سورية، على اعتبار أن هذه الخطة محفوفة بالمخاطر، إلاّ أن الجدال الذي دار حولها قد بذر في دماغه جرثومة فكرة أخرى، لا تقلّ إلاّ بمقدار قليل عن فكرة غزو سورية من حيّث الخطورة ـ ألا وهي فكرة القيام برحلة سريعة إلى سورية ليرى بنفسه ماهية الأشياء في دمشق، مدينة أحلامه.

أما ما كان يرمي إليه، وما كان يتوقع أن يجده هناك فأمر ما زال غامضاً. ولقد كان لـورانس صـريحاً علـى الدوام عند الحديث عن أي موضوع إلاّ هذا، فقد كان يقول: "إنه يريد الذهاب إلى دمشق ليـرى أكثـر أصـدقاء فيصل السريين، وليرى بنفسه المواقع التي يمكن أن نشن عليها هجماتنا المقبلة".

ولكنه اعترف بأن "نتائج مثل هذه الرحلة لا تعادل المخاطرة بالقيام بها"... والحق يقال إنـه لمـن الـصعب أن يخمّن المرء ما تستطيع مثل هذه الرحلة أن تحققه زيادة على ما تحققه الرسائل التي كان يبعث بهـا عـدد مـن الوكلاء السريين الذين يتجولون باستمرار بين دمشق ومواقع الجيوش العربية، إلاّ إذا كان لـورانس يعـدّ العـدّة للقيام بهجوم مبكّر على سورية. وهو يتركنا لنستخلص من موقفه هذا أنه لم يكن يقف الموقف الشجاع الذي كـان يقفه دائماً بالنسبة لرفاقه من العرب حاملي السلاح.

ولما عاد إلى المعسكر، كانت استعدادات قبيلة الحويطات للزحف على العقبة قائمة على قدم وساق. وقـد عـاد الشيخ عودة مسروراً عن مقابلته مع نوري الشعلان، وقسم وقته بين إرشاد أفـراد قبيلتـه، وتطويـع المحـاربين وجمع المعدات اللازمة للزحف، وتخزين كميات هائلة من الارز واللحم، مما كانـت تقدمـه قبيلـة الحويطـات إعراباً عن أريحية شيوخها.

عاد لورانس من سورية في السادس عشر من شهر حزيران، وبعد عودته بثلاثة أيام، تحركت الحملـة باتجـاه العقبة. وخلافاً للفئة القليلة التي تحركت من "وجه" كانت جماعة عودة مؤلفة من أكثـر مـن خمـسمائة مقاتـل، يمتطي كل منهم هجيناً ناشطاً، وهو يشتعل حماسة لمقاتلة الأتراك والاستيلاء على ما يمكنه الاستيلاء عليـه بعـد احتلال العقبة.

ورافق لورانس ابن أخ الشيخ عودة، "المدعو "زعل" ومائة من الرجال، وقاموا بـشن هجـوم مباغـت علـى المنطقة الشمالية الواقعة ما بين عمان ودرعا لنسف خط الحجاز، وذلك لمنع الأتراك من ارسـال النجـدات إلـى العقبة.

وكان لزاماً على هذه الجماعة أن تقطع مئة من الأميال، وقد قطعتها في ست وثلاثين سـاعة، كـان أفرادهـا خلالها يغذون السير ليل نهار ويستريحون كل ست ساعات ساعة أو ساعتين.

وبعد أن نسفت الجماعة جزءاً من الخط الحديدي ـ وكانوا يأملون أن يمر أحد القطارات ليستولوا على ما فيـه ـ فوجئوا بدورية تركية. فعادت الجماعة لتنضم إلى قوات عودة، وأثناء تقهقرهم مروا بمركز تركـي صـغير يحرس محطة للسكة الحديدية تبعد مسافة أربعين ميلاً عن عمان.

وفاجأت تلك الجماعة الأتراك على حين غرّة، واستطاعت بما اطلقته من نيران أن تحتل المركز وتـضرم فـي بنايته النار، وأن تستولي على كل ما لدى الجنود الأتراك من اسلحة وذخيرة ومؤن بعد أن قتلتهم جميعاً.

وعلى كل، فإن محاولات لورانس لإخفاء آثار جماعته عن أعين الأعداء، لم تكن ناجحة تمامـاً، فقـد اكتـشف أثناء الزحف أن الأتراك قد دمروا كل الآبار التي كان الشيخ عودة يعول عليها لتزويد رجاله وجماله بالماء.

ولكي يحول دون هذه الأعمال الشريرة، أرسل فريقاً من رجاله كدفعة استطلاعية لاحتلال الآبـار فـي "أبـي لسان" التي كان يزمع التوقف عندها في المرحلة التالية، وتقع بين سفح آخر جبل يفصله عن العقبة.

وقد قامت تلك الفرقة بما عهد إليها من عمل، بعد أن قتل أفرادها جميع من وجدوا من الأتراك، ولكـن أنبـاء المعركة عمت جميع الوحدات التركية المجاورة، وهكذا وجد عودة ولورانس لما وصلا إلـى هنـاك أن مـدخل العقبة قد سدّ بفرقة من الجنود الأتراك المسلحين بالمدفعية.

ومن حسن الحظ أن الأتراك لم يكونوا قد أخذوا احتياطاتهم الضرورية، كوضع رجال للحراسـة ممـا سـهل لرجال عودة أن يتسلقوا التلال المجاورة، وأن يقوموا بإشارة متفق عليها باطلاق النار على القوات التركية التـي كانت مرابطة عند المضيق الضيق الذي يقع اسفل التلال.

غير أن مواسير البنادق في ذلك اليوم الحار من أيام حزيران لم تحتمل حرارة الجو وحرارة البـارود، فأخـذت تنفجر، كما أن الرماية لسوء الحظ لم تكن موفقة.

ومع ذلك، فإن العرب الذين شرعوا يتمركزون في مواقعهم الحصينة في التلال، كانوا أبعد منالاً عن مدفعيـة الأتراك. وهنا هجم عودة على خيمة لورانس، وهو في حالة من الهياج الشديد، وقال: "وماذا جرى بالحويطـات؟ إنهم يتكلمون ولا يفعلون" (وكان بذلك يشير إلى وعد قبيلة الحويطات بمساندتهم عند بدء الهجوم على العقبة).

واهتاج لورانس، لأنه لم يكن يتوقع قيام العدو بإقفال الطريق بهذا الشكل وقال: "صـحيح والله... لقـد اطلقـوا الكثير من القذائف، ولكنهم لم يؤثروا علينا إلاّ قليلاً".

ونزع عودة كوفيته عن رأسه ومزقها والقاها أرضاً، ثم خف نحو التلال، منادياً علـى رجالـه بـأن يتبعـون راكبين على جمالهم. وبعد لحظات قليلة استطاع عودة أن يقود جماعة مؤلفة من خمسين خيالاً ومباغتـة بطاريـة المدفعية التركية، فأُخذ رجالها على حين غرة فراحوا يتراكضون للنجاة بأرواحهم.

وقد قام "ناصر" بمساعدة لورانس مع المحاربين من راكبي الجمال بهجوم مضاد على الأتراك الـذين أخـذوا يتقهقرون سريعاً، مخلفين وراءهم سيولاً من دماء قتلاهم وجرحاهم الذين مات معظمهم تحت سنابك الخيل.

وهنا قاد لورانس قوته من الهجانة إلى الأمام، منتهزاً فرصة الحظ هذه ، ومطلقـاً رصـاص مـسدسه علـى مؤخرة فلول العدو المتقهقرة. وفجأة سقط جواده ميتاً، واغمي على لورانس نتيجة وقوعه ارضاً، ولما ثاب إلـى وعيه اكتشف أنه قتل جواده بمسدسه الخاص.

في تلك الأثناء، كانت المعركة قد انتهت، وخسر الأتراك ثلاثمائة قتيل وأسر العرب مائة وستين جنـدياً مـنهم، ولم ينج من القوة التركية التي كانت ترابط هناك سوى نفر قليل من جنود المدفعية وحفنة مـن الـضباط الـذين استطاعوا أن يجدوا خيولا يهربون عليها، أما خسائر العرب فلم تعد القتيلين.

وجاء عودة إلى لورانس ممتلئاً حماسة وفخراً، ملقياً اللوم كل اللوم في ما أصاب العرب على خذلان قبيلة الحويطات إياهم، وعلى من اشترك معهم في القتال بسبب رداءة تصويبهم، وقلة ممارستهم بفنون القتال.

وكان واضحاً أن عودة قد أمضى يوم جهاد ممتازاً، فأزاح بذلك الكابوس الذي كان يخيم عليه، وكانت ثيابه قد تمزقت أثناء المعركة واخترقت عباءته ست رصاصات، محدثة فيها ثقوباً... لو أنها انحرفت عن هدفها إنشاً واحداً لقضت عليه، ولكن حسن حظه الذي كان دائم الملازمة إياه، جعله ينجو من موت محقق.

ومهما يكن من أمر فإن عودة سيشكر الله ولا ريب مهما كانت نتائج تلك المعركة لأن الطريق إلى العقبة قد فتح أمامه.

على الرغم من هذا الانتصار، فإن لورانس لم يكن في حالة تساعده على مشاركة عودة مباهاته بما أحرزته القوات العربية في ذلك اليوم، وكان يجلس في إحدى خيام الأتراك التي خلفوها وراءهم، لا يكاد يسمع شيئاً مما يقوله ذلك المحارب عما تم من أعمال في ذلك اليوم، إذ كان يفكر فيما ينتظره من أحداث، ثم نهض متمهلاً وتوجه نحو ميدان المعركة.

وبدا له أن القتلى من جنود العداء على جانب الكبير من الجمال، فقد كانت الأمسية براقة وضياء القمر يعكس على وجوههم خيوطاً من النور، حتى لقد بدت وكأنها وجوه من العاج.

والأتراك أنصع بشرة من العرب، كما أن أولئك الجنود الصرعى كانوا ليفاعاً وصغار السن إلى درجة تجعل المرء يشفق عليهم حتى بعد أن لاقوا حتفهم في كنف تلك الغابة التي لثقل الظل أوراق أشجارها، وهذه الغابة تلتقي عند طرفها بسلسلة من التلال.

كانت أشعة القمر تلقي عليها ضوءاً، أشبه ما يكون بانعكاس نور الشمس على صفحة البحر. ولاحظ كذلك أن الجنود الأتراك مبعثرون في فوضى لا مثيل لها، ولكن بأوضاع تدل على أنهم قد استراحوا في النهاية.

وقد كتب لورانس في مذكراته يقول: "لقد قمت بترتيبهم في صفوف متوازية واحداً اثر الآخر، وكم تمنيت عندئذ أن يستريحوا في رقدتهم تلك، وألا أضطر للاستلقاء يوماً ما مثلهم، ولكن الموت شئ لا مفرّ منه سواء ربحنا أم خسرنا، ومهما امتد بنا حبل الأجل".

وهكذا اكتشف لورانس ردّ الفعل لديه الذي نجم عن أول مذبحة يراها، وفي تلك اللحظة بالذات، أحس لأول مرة في حياته بأنه ليس بريطانياً ولا عربياً، ولكنه مخلوق غريب، لا ينتمي إلى أي معسكر، وروح تحلق في أجواء غير تلك التي يعرفها الناس.

ومن يدري أية أفكار أو تخيلات تلك التي تملكته في تلك اللحظة؟ فقد كان منذ نعومة أظفاره يعارض في الرغبات الطبيعية لتحقيق رغبات الجسد، وكان يخجل من اللجوء إلى أعمال العنف مهما كانت وضد أي كان، وها هو الآن وعلى تراب الأرض المقدسة يجد نفسه يسير بقدمين مخضلتين بدماء أناس أبرياء، لا ذنب لهم على الإطلاق.

كيف ألقت به المقادير إلى هناك، إلاّ إذا كان ذلك قد تم بقوة إلهية أو شيطانية؟ فهو لم يكن الجندي، ولا بالعربي الكبير، ولم يكن يضمر أية ضغينة نحو العدو، وإن كان يكره القسوة والإكراه في جميع أشكالهما،

وأحس بأنه يبتعد كثيراً عن زملائه من البريطانيين وأنه في الواقع كان يعيش بمعزل عـنهم كلمـا أتيحـت لـه الفرصة.

ومن الطبيعي القول بأنه لم يكن من الجنس العربي، وإن كان من المسلم به بأنه ميال إلى قضيتهم! فـإلى أيـن إذن تتجه ميوله من القضية العربية، تلك الميول التي تدفعه إلى تلك القضية دفعاً؟ ثم إلى أي هدف؟ من المؤكـد أنه لم يكن يريد إجراء مذابح في سبيل إرضاء بعض الأطماع غير الجديرة بالمجازفة، وأنـه يجـب أن تكـون مهمة حملته التهذيب والتثقيف، وأن تربح المعارك دون أن تخوضها، وأن تصون حياة الأفراد لا أن تبددها.

ومع ذلك، فإن نظريته هذه لم تكن تساعد في إراحة الموتى من الجنود الأتراك في رقدتهم التي لا عذاب فيها.

انقضت تلك الليلة في توجيه الرسائل إلى القبائل المحلّية، لإبلاغها ما تم تحقيقه من نصر، والطلب إليهـا بـأن تأسر أية وحدة تركية في جوارها.

وتم كذلك إقناع أحد الضباط الأتراك، ممن وقعوا في الأسر بأن يكتب إلى ما تبقى من مفرزات تركية مرابطة على طول الطريق إلى العقبة، بأن تستلم إذا ما أرادت أن تنقذ حياة الجنود الأتراك.

ثم توجه بالأمر للشيخ عودة بالسير قدماً، ولعله خشي مغبة بقاء القوات العربية مدة أطول بين هذا العدد الكبيـر من جثث الأتراك.

وما إن بزغ الفجر على منطقة ابي لسان، حتى رأت القوات منظراً غريباً، فلم يكن كل أسـير تركـي يمتطـي صهوة جمل فحسب، ويسير به وراء آسره العربي، بل كان أكثر من نصف القوات العربيـة ترتـدي الملابـس التركية فوق ملابسها، على عادة العرب في ارتداء ثياب القوات المغلوبة، علامة على انتصارها في المعركة.

هذا وقد أثمرت حكاية كتابة الرسائل إلى شيوخ القبائل المحليين وإلى القادة الأتراك، إذ استولت القبائل العربيـة على أول مركز تركي، قبل أن يصلوا إليه، واستسلم المركز الثاني بعد مقاومة رمزية، وبعد ذلك وجـدوا كـل مركز يصلون إليه مهجوراً، بعد ان ارتدت قوات العدو إلى العقبة.

وبانضمام القبائل المحلية على طول الطريق، تضاعف عدد قوات الشيخ عودة كلما وصلت إلى نقطة تـستطيع منها أن ترى هدفها.

وعلى بعد بضعة أميال من العقبة، عقد كل من عودة وناصر ولورانس مجلساً حربياً في منحنـى الريـاح فيـه أول وادي "عتم"، وكان كشافوهم قد نقلوا إليهم معلومات تفيد بأن المدينة لا تحرسها غير حامية لا يعدو أفرادهـا الثلاثمائة، وحتى هؤلاء كانت تنقصهم المواد الغذائية، ومع ذلك فمن الجائز ألا يستسلم الأتراك دون قتال.

ودارت مناقشات حادة ما بين رجال القبائل. فكان بعضهم يحبذ الحذر وبعضهم الآخر يدعو إلـى المغـامرة، وكانت حجة الذين يدعون إلى الحذر واهية، أما حجة أولئك الذين يدعون إلى المغامرة فكانـت ترتكـز علـى أن معظم المواقع الدفاعية للعقبة تقع في مواجهة البحر، وأن حامية قليلة العدد لا يمكنها أن تصد هجوماً يقع عليهـا من البرّ.

وفي غمرة صياح مئات الرجال الذين لم يغتسلوا فترة من الزمن، وتنضح أجسامهم بعـرق الـصيف، والـذين امضوا ثلاثة أسابيع تقريباً في سير تحت حمّارة القيظ، لم يجد لورانس بداً من أن يفـض الاجتمـاع معلنـاً أنـه سيرسل إلى الحامية التركية رسالة، مع حامل راية هدنة، يدعوها إلى الاستسلام.

وخلافاً للعادة العسكرية، اطلقت المدفعية التركية نيرانها على حاملي الراية البيـضاء قبـل أن يـصلوا إلـى الخطوط التركية، ثم حاول لورانس فيما بعد إنقاذ بعض الأسرى من الأترك، ولكن الأتراك أجـابوا علـى هـذه المحاولة بوابل من نيرانهم.

بعدئذ قام لورانس مع اثنين من حرسه الخاص هما داود وفيصل ومجموعة من البـدو، بـاطلاق وابـل مـن نيرانهم على خنادق الأعداء، حتى لقد بذل ناصر مجهوداً جباراً لحمل القوات العربية على إيقاف إطلاق النار ثـم جرت محاولة ثالثة أعطت نتائج أكثر، فقد أفاد الأتراك ألمهم على استعداد للاستسلام في غضون يومين، إذا لـم تصلهم تعزيزات من الشمال خلال تلك الفترة.

وقد قرر لورانس وناصر وعودة قبول هذا الشرط، لأنهم كانوا يعلمون بأنه ما من مساعدات ستصل إلى العدو خلال المهلة المحددة، بعد أن عرفوا عن طريق أسراهم من الأتراك بأن المراكز التركية التي تم سـحقها، هـي التعزيزات الوحيدة للقوات التركية في العقبة.

وهكذا، وفي السادس من شهر حزيران، وبعد شهرين من مغادرة "وجه" دخل عودة العقبة، وتـولى بمـساعدة ناصر ولورانس استسلام الحامية التركية المستسلمة.

وكان لورانس قد قطع ثمانمائة ميل، بدلاً من أن يقطع مائتين وخمسين ميلاً في زحفه على دمشق، ولكـن هـذه المسرة، رغم طولها وما تضمنته من مشاق، كانت دليلاً على عبقريته. وكانت العقبة قد احتلت مرتين مـن قبـل على أيدي قوات الحلفاء، الأولى من قبل القوات الفرنسية، والثانية من قبل القوات البريطانيـة، ولكـن الاتـراك الذين كانوا يتمركزون في المشرفة على البلدة، أجبروا الغزاة في المرتين على الانسحاب بحراً.

ولكن لورانس استطاع بمداهمته قوات الأعداء من الخلف. ومن ناحية البحر، أن يضع الأتـراك فـي مركـز حرج لم يكونوا على استعداد لمواجهته والدفاع عن مراكزهم.

كانت أول وأكثر مشاكل لورانس إلحاحاً في العقبة، هي مشكلة الجوع.

فقد كانت التموينات الغذائية على وشك النفاد، وبالإضافة إلى سكان المدينة شبه الجياع، جاء عـدد كبيـر مـن الأعراب المتغايري البلدان وغير النظاميين ورجال القبائل، والأسرى الأتراك الذين كان عددهم يزيد على مـائتي أسير.

أما المدينة ذاتها فكانت في حالة من الدمار لا توصف نتيجة قصفها بمدافع البحرية الأنكلو ـ فرنـسية. ولـم يكن هناك اتصال لاسلكي لا بلاغ القاهرة بضرورة إرسال المؤن بالسرعة الممكنة.

واسقط في يد لورانس، إذ لم يكن أمامه إلاّ أ، يعتلي جملاً ويذهب بنفـسه وبأقـصى سـرعة إلـى الـسويس، ليستدعي سفينة نجدة، وتبلغ هذه المسافة مائة وخمسين ميلاً، وعبر صحراء سيناء الخالية من المياه.

فأية مكافأة تافهة هذه التي يكافأ بها لمغامرته في شبه الجزيرة العربية، وأخيراً لاحتلاله العقبة! لكـن لـورانس كان يعرف أن العشرين ألف جنيه التي حملها معه من "وجه" قد نفدت أثناء الرحلة، على تجهيـز الحملـة مـن وادي سرحان، إذن فليس معه أي ذهب ليغري به رجال القبائل كي يبقوا إلى جانبه.

وكان يعرف أنه إذا لم يتمكن من الحصول على الطعام والمال بسرعة، فإن البدو سيعودون إلى الصحراء من حيّث أتوا، وسيتركونه دون جيش ليحمي الانتصار الذي تمكّن من تحقيقه بمهارة، ولن يتمكن بعد ذلك من متابعة الزحف شمالاً ليتم الخطة التي يريد تنفيذها.

وقبل أن يذهب لورانس، اتفق على أن يتوجه عودة إلى "الغويرة" كي يحمي المرتفعات المؤدية إلى العقبة، وينشئ مراكز حراسة في "البتراء" التي تقع على بعد عشرين ميلاً إلى الشمال من العقبة، وعند نقطتين أخريين تشرفان على سلسلة الجبال.

واتفق كذلك على أن يتولى ناصر، مع من يتبقى من القوات في المدينة لحراستها والدفاع عنها، مراقبة الأسرى الذين بدأوا يثورون لما يعانون من جوع.

وهكذا تحرك لورانس المتعب، برفقة ثمانية من رجال قبيلة الحويطات، إلى ما يمكن أن يسمى بأخطر مغامرات هذا الرجل.

صحيح أن رحلته إلى سكة حديد الحجاز إلى الشمال من عمان قد تمت بسرعة ولكنه كان في تلك الأثناء متمالكا قواه، بينما - في هذه المرة، وبعد احتلال العقبة - كان يعاني إجهاداً جسدياً ومعنوياً، كما كان يشعر بضعف لقلة الغذاء، ومع ذلك فغن رغبته في الوصول إلى السويس ليبلغ المسؤولين حاجات رجاله، والى القاهرة ليبلغ القيادة أنباء نجاحه - جعلته يقطع مسافة المائة والخمسين ميلاً في تسع وأربعين ساعة دون أن يتوقف إلاّ مرة واحدة ليتزود بالماء.

ووصل لورانس إلى النقطة البريطانية في "شط" التي تقع في الجانب الآسيوي من القناة بمواجهة السويس، ولكنه وجدها مهجورة.

واستطاع أن يجد هاتفاً، فاتصل بالقيادة البريطانية في السويس وطلب مركباً ليقله عبر القناة. وأجابه ضابط في مكتب القيادة، بأنه لا يملك صلاحية تنفيذ مثل هذا الطلب، إذ أن "شط" أخليت بسبب انتشار مرض الطاعون فيها، وعلى هذا فإن القيادة لا تستطيع مساعدته، كما طلب منه أن يتصل بمكتب الملاحة الداخلي".

لكن المكتب اعتذر بعدم وجود مراكب لديه في الوقت الحاضر، ووعده بأن يرى ما يمكن عمله في اليوم التالي.

وفقد لورانس هدوءه، فقد كان شعوره بأنه بعد أن اقترب من مكان يستطيع أن يستحم فيه ويرتدي ثياباً نظيفة - بعد أن أمضى أربعة أشهر في الصحراء - يفاجأ بعدد من الضباط يرغمونه على البقاء في قرية مهجورة ومويوءة بالطاعون. وكان هذا أكثر مما يستطيع احتماله. وبعد مكالمتين غير مجديتين أخريين، أشفق عليه عامل الهاتف، فأوصله بضابط مختص بالنقل البحري، الذي كان - ويا لسرور لورانس وراحته - صديقاً قديماً له في الجيش.

ومن السويس، استقل لورانس القطار إلى الإسماعيلية، حيّث رأى، - فيما كان ينتظر الاتصال بالقاهرة - الأميرال "ويمس" الذي كان في طريقه إلى السويس، برفقة عدد من الضباط الذين كانوا كما يبدو من ملابسهم، عالي الرتب.

وكانت هذه فرصة يجب ألا يضيعها، ليتأكد من أن التموينات التي طلبها من الـسويس سترسـل بالفعـل إلـى العقبة. ولكن رؤية ومقابلة الأميرال أمران على جانب بالغ من الصعوبة بالنسبة إلى لورانس الذي ـ كان رغـم الحمّام الذي استحمّه مؤخراً ـ ظل يبدو في عباءته وصندله كأي متسول عادي، على الاقل في نظـر الـضباط الكبار المرافقين للأميرال "ويمس".

ولما هم بالاقتراب من الأميرال صاح به أحد الضباط قائلاً: "قف مكانك يا هذا!" وكان الضابط يتكلم بالعربيـة، ولما اعترض لورانس على ذلك باللغة الانكليزية قائلاً إنه يريد أن يقابل الأميرال "ويمس" قال له ذلـك الـضابط: "ومن عساك تكون؟ تنّين مصّاص دماء؟".

وأجابه لورانس وسط ضحك بقية الضباط بأنه "ضابط في جيش مكة التابع للـشريف" ولكـن الـضابط أجابـه ساخراً: "جيش مكة؟ إنني لم أسمع به".

فقال له لورانس بهدوء: "ستسمع به عما قريب.."

وفي تلك الأثناء استدار "ويمس" ولمح لورانس، وتذكر على الفور ذلك الضابط الـذي رفـض أن يقلّـه علـى إحدى سفنه لأنه يرتدي ثياباً عربية، فقال: "أنت مرة أخرى"؟ ولكن لهجته لم تكن عدائية.

عندها نسي لورانس، كعادته، أن يؤدي التحية العسكرية، ومر بين الضباط الذين اعترتهم الدهشة، وراح يقـص عليه القصّة فقال الأميرال: "رائع! إذن سأرسل "دوفرين" بحملة من المؤن في الحال، على أن تعود بما لديك مـن أسرى، ولا ضرورة لاستشارة اللنبي في هذا الموضوع".

ودهش لورانس وسأل: "اللنبي"... ماذا يعمل هنا؟".

فقال الأميرال: "أوه أنه يتولى القيادة الآن... لقد عاد موراي إلى إنكلترا".

الفصل الرابع عشر

اللنبي يقابل لورانس

لم ينتظر لورانس طويلاً قبل أن يستدعى لمقابلة القائد العام الجديد. وقوبل في القـاهرة بترحـاب كالأبطـال، ورقّي إلى رتبة "ميجور" ورشح لنيل وسام الحمام، ووسام صليب الفرسان الفرنسي، ونسي الكولونيـل كلايتـون تمسكه بالتقاليد العسكرية، وخلافاً للأوامر، وافق دون تردد على أن يرسل ذهباً وأي شئ يريـده هـذا المغـامر الشاب، وبأسرع وقت ممكن إلى العقبة، كما أطلع لورانس على مجريات الأحداث في مصر.

وكان "موراي" قد أعيد إلى انكلترا بعد هجومه الثاني على غزّة الذي لم يوفـق فيـه، وبخـسارة بلـغ عـدد الإصابات فيها ستة آلاف ما بين قتيل وجريح. ولكن بوجود اللنبي انبثق أمل جديد، إذ أنه تلقى إمـدادات كثيـرة من الرجال والعتاد وكان اللنبي جندياً متمرساً ويؤمن بالحرب المتحركة، وقال له "كلايتون" إنه يعتقد بأن اللنبـي سيتبع خطة جديدة في الحرب ضد الأتراك. وسيكون قائداً عاماً أكثر تعاوناً مع العرب من سلفه "موراي".

ومن المؤكد أن لورانس لم يغضب لأول صدام له مع اللنبي، فقد دخل إلى غرفته مرتـدياً ملابـسه العربيـة، وراح يعامل القائد العام، كما لو أنه يعامل صديقاً له، بل دعاءه ليتناول معه كأساً.

ومن الجائز أن يكون أغرب ضابط استقبله الجنرال في حياته. وقد وصف لورانس هذه المقابلة وصفاً حياً فقال:

"كانت مقابلة مضحكة.... فقد كان اللنبي ضخم الجثّة، وواثقاً من نفسه، مرتفع المعنويات إلى درجة أنه لم يكن ليفهم من كانوا صغاراً مثلنا إلاّ بصعوبة... وكان يجلس في مقعده يتطلع إليّ... ولكن ليس مباشرة، بل من طرف عينه، خلافاً لعادته... ولم يكن مستعداً لمواجهة غريب مثلي... رجل ينتعل صندلاً ويرتدي عباءة ويعرض عليه أن يدمّر عدوّه عن طرق تبشيره، واذا أعطي مؤناً وأسلحة ومبلغ مائتي ألف جنيه، ليقنع بها اتباعه، ولم يستطع اللنبي أن يقدّر كم في عرضي هذا من العبقرية، ولا كم فيه من التدجيل، فقد رأيت المشكلة تبرق في عينيه، وتركته دون أن يكون لدي أمل في أن يحلها... وقبل أن أغادر الغرفة، رفع يده عن ذقنه وقال بهدوء: "حسناً، سأفعل من أجلك كل ما استطيع فعله". وهكذا انتهت المقابلة.

وقد علق لورانس على ما قاله له الجنرال اللنبي بقوله، "ان ما وعدني به يكفي لإشباع أطماع رجالي".

وهذه القصة مغربية بحد ذاتها، ليس لأنها أول صدام بين هذين الرجلين اللذين قدر لهما أن يلعبا دوراً رئيسيا في القضاء على الدولة العثمانية فحسب، ولا لأنها تظهر بكل جلاء ووضوح طبائع اللنبي، بل إنها مغربية لأنها تكشف عن خفايا أخلاق لورانس نفسه.

"كم في قوله من العبقرية وكم فيه من التدجل؟" وربما لم يستطيع لورانس أن يساعد الجنرال اللنبي على الوصول إلى الحقيقة، لأنه نفسه لم يكن يعرف الجواب على ذلك السؤال.

ومن المؤكد أنه سأل نفسه هذا السؤال في ذلك الوقت لأنه ـ وفقا لمذكراته ـ كان يصاب بخيبة أمل مستمرة، لما علمه من النيات الحقيقية الكامنة وراء اتفاقية "سايكس ـ بيكو".

ومع ذلك، فإن الحقيقة الملموسة تشير إلى أنه لم يكن هناك من سبب يدعو لورانس بشكل جدي للتخلي عن المهمة التي كرّس نفسه لها، في تلك المرحلة بالذات، بل كانت كل الأسباب تدعوه إلى الاستمرار فيها. ويقول لورانس: "لو لم أكن مجنونا لاستطعت أن أتبين، أنه إذا ربحنا الحرب، فلن تكون الوعود التي بذلناها إلاّ حبراً على ورق، ولو أنني كنت مستشاراً شريفاً لسرحت رجالي، ولما تركتهم يعرضون حياتهم للخطر من أجل هذه المغامرة، ولكن الإيحاء العربي كان أداتنا الوحيدة لكسب الحرب، ولذا أكدت لهم بأن إنكلترا تحافظ على كلمتها قولاً وعملاً... ولكن، وبطبيعة الحال.. كنت على الدوام متألما وخجلاً من هذا التأكيد".

ولم يؤكد لورانس للعرب ـ عندما تناهضت إلى مسامعهم شائعات الخيانة ـ حسن ظن بريطانيا، بل ذهب إلى القاهرة، ليضع الخطة التالية للحملة العربية، واقترح على "كلايتون" بأن احتلاله للعقبة، قد منحه الحق في التصرف كما يريد، في تنفيذ مهمته، بوصفه ضابط ارتباط مع القيادة العربية.

مستقلاً عن أوامر رؤسائه من البريطانيين، مثل "جويس" و"نيوكامب". والأهم من ذلك أنه اقترح أن يصبح جيش فيصل الجناح الأيمن لجيش اللنبي، وأن يكون خاضعا للقيادة البريطانية، واستناداً إلى هذا، كان على فيصل أن ينفصل من قيادة الشريف، وأن ينقل مقر قيادته من "وجه" التي أصبحت مركزاً خلفيا لتموين العقبة بالمياه، والتي كانت ستعتبر مركز التموين في الحملة قدماً نحو سوريا.

واذا ما استثنينا تعيين "جويس" قائداً للعقبة، فإن جميع الطلبات التي تقدم بها لورانس قـد أجيبـت سـواء مـن الجنرال اللنبي أو من اركان حربه.

فكيف أمكن لرجل مثل لورانس، متورط في الحركة العربية، ومعروف من الشعوب العربية، أن يمضي قـدما بقلب خلي رغم إطلاعه على الحقائق، وتأكده من أن الحلفاء لن يفوا بوعودهم، دون أن "يسّرح رجالـه" ودون أن يجنبهم "المخاطرة بأرواحهم لمثل هذه المغامرة"؟.

ربما شعر ذلك العبقري، بأنه بغض النظر عمن سيموت، يظل عليه هو أن يحقق مهمته، وأنـه بعـد احـتلال العقبة، "أصبح العرب في مركز يمكنهم ليس من مجرد مشاركة البريطانيين الحرب، بل وتحقيق النـصر معهـم لتأكيد حقوقهم وتحقيق الوعود التي بذلت لهم، غير أن "المخادع" رأى أن في الحماسـة العربيـة اداة الرئيـسية، لتحقيق اطماعه الشخصية في أن يكون القوة التي تقف وراء عرش إمبراطورية عربية جديدة.

ولقد كان رد الفعل عند لورانس، شأنه في ذلك شأن كثير من الرجال الذين سـجلت اسـماؤهم فـي صـفحات التاريخ، عندما ووجه بمثل هذا التحدي المعنوي وهذه الفرصة المادية ـ كان قوياً جداً.

فهل كان نادر المثال؟ إن ذلك ما يزال موضع جدال، كلما ثار النقاش حوله، ولم يـستطع أحـد أن يـستخلص حتى الآن أية ناحية من طبيعته كانت تتغلّب على الأخرى.

وإنه لمن الإنصاف القول بأن الخيانة والدسيسة، لم تكن وقفاً على الحلفاء فـي ذلـك الوقـت، إذ بينمـا كـان لورانس في جدة، ليحصل على موافقة حسين على إلحاق جيش فيصل بالقيادة البريطانية، تناهت إليـه معلومـات أكيدة، وصلته من القاهرة تفيد بأن عودة كان يراسل الأتراك عارضا عليهم طرد الانكليز، فأسرع إلى "الغـويرة" وواجه زعيم قبيلة الحويطات هذا.

ولم يكن بمقدور أحد غير لورانس أن يعالج هذا الأمر بمثل هذه المهارة وذلك التفهم، ومـن الجـائز لـو أن ضابطا غيره عالج الأمر، أن يحتدم غيظه، وربما ثار في وجه عودة لما بدر منه مما اعتبره لورانس انقلاباً.

ولكن لورانس كان مطلعاً على طبيعة التفكير العربي، ذلك التفكير الذي يبيح للعربي أن يعتد برأيه ويدافع عـن كرامته.

وعلى كل، فقد انتهت المعركة بحفلة، كان خلالها عودة، بوجهه الذي كان يقطر سمناً ودهناً من خـروف ذبـح خصيصاً للمناسبة، منشرح الصدر، وراح يروي تلك القصة التي أحسن حياكتها عن الحيلـة التـي اتبعهـا مـع الأتراك في "أبي لسان". وقد قال:

ـ "لقد اخترقت عباءتي ست عشرة رصاصة، وصرع اثنان من بغالي تحتي..."

فأجابه لورانس ممازحاً: "لكنك قلت في المرة الأخيرة إن عدد الرصاصات كان ستاً وعـشرين وعـدد البغـال الصرعى ثلاثة".

وضحك الجميع من مزاح لورانس. ثم توجه لورانس إلى العقبة ليتصل هاتفياً بالقاهرة ليبلغ "كلايتـون" أن كـل شئ على ما يرام في "الغويرة" وأنه ليس هناك شئ ما يبعث على الريبة.

وكان لورانس يعرف أنه بذلك يخدع قادته، ولكنه شعر بأن من الضروري أن يبقيهم على ثقة مـن الموقـف، فهم لن يفهموا الدافع الذي حدا بالشيخ عودة للإتصال بالأتراك، ومن المصلحة بالنسبة لهـم، أن تخفـى الحقيقـة عنهم.

الفصل الخامس عشر

"قصف السكة الحديدية"

انهى احتلال العقبة حرب الحجاز، وكانت المهمة التالية هي جعل هذا الميناء المهم الواقع على البحر الأحمـر، قاعدة فعّالة وامينة، للانطلاق منها شمالاً، بما يتفق وخطة اللنبي الرامية إلى القيام بهجوم عام على طـول جبهـة الحلفاء الداخلية قبل نهاية عام ١٩١٧.

ولذلك أصبحت العقبة مركزاً لنشاط مستعر. ووصل جيش فيصل من "وجه" في قافلة سبل المواصـلات كمـا حضرت سيارات مصفّحة من السويس، وقوات مصرية وجزائرية، وضـباط بريطـانيون وفرنـسيون، ومعهـم المدافع والبنادق، والبنادق السريعة الطلقات والمتفجرات السديدة، والاسلحة الصغيرة والـذخيرة، حتـى كـادت الأرض تميد تحت ثقل الأقدام وصناديق الأسلحة التي تراكمت حتى غدت بعلو التلال.

ولقد انشئ مطار، وشقت طرقات للإسراع في المواصلات بين الميناء ومركـزه الـدفاعي خلـف الـتلال، والمراكز الدفاعية الأخرى في الغويرة والبتراء، وكانت هذه المراكز قد عززت بكميات ضخمة من الأسـلحة، بما فيها المدافع والبنادق السريعة الطلقات، وأصبحت العقبة بعد ستة أسابيع فقط على احتلالها قلعة حصينة.

غير أن الحلفاء لم يكونوا وحدهم في نشاطهم واستعدادلتهم، إذ أن الأتراك بعـد هـزيمتهم الأخيـرة، أخـذوا يستعدون لاسترجاع العقبة، وكان ذلك مهما لسببين: الاول إعلام العرب من هم سادة شـبه الجزيـرة العربيـة، وبالتالي عدم تشجيع قبائل الشمال على الانضمام إلى قوات الشريف.

والثاني منع الحلفاء من استخدام هذه القاعدة المهمة، في القيام بهجوم على القدس وسـوريا - وهـو الهجـوم الذي كان الأتراك يعلمون بأن اللنبي يزمع القيام به.

وما إن انتصف شهر آب حتى كان الأتراك قد عززوا حاميتهم في معان بستة آلاف جندي من المـشاة وفرقـة من الخيالة فرقة من الآليات، وفصيلة من الطائرات المزودة بالقنابل، وأرسل الأتراك فرقتين مـن المـشاة إلـى "أبي لسان" التي تركها العرب دون حراسة.

وعلى الرغم من أن العدو كان يتكبد خسائر فادحة من جراء غارات العرب على دورياته ووسائل مواصـلاته، إلاّ أنه لم يتزحزح، بل على العكس راح يدعم قواته، بما يبدو أنه استعداد للقيام بهجوم كبير عن طريـق العكـس راح يدعم قواته، بما يبدو أنه استعداد للقيام بهجوم كبير عن طريق المسالك الجبلية ذاتها التي استخدمها العـرب في احتلالهم العقبة.

وقرّر لورانس أن اللحظة قد حانت لتفريق هذا التجمع المخيف، وطلب إلى اللنبـي إرسـال طـائرات لتقـوم بالمهمة.

فأرسل على الفور سرباً من قاذفات القنابل الصغيرة ليؤدي المهمة من المطار الجديد الذي أنشئ في العقبة، وكان هذا السرب بقيادة الكابتن "ستت" وكان هو والطيارون الآخرون يشكلّون عصبة من الشياطين الجريئة، ومن الخبيرين بالقاء القنابل من علو بسيط والمتمرسين في فن الهبوط الاضطراري في الصحراء.

وقد بدأوا غاراتهم على معان، حيّث القوا اثنتين وثلاثين قنبلة على محطة السكة الحديد، والثكنات، والمطار، ولم يتركوا من شرّهم - كما يدعي لورانس - حتى ولا مطبخ الجنرال التركي، حيّث أتوا على "افطاره" وانزلوا خسائر فادحة في أطواب العدو. وفي اليوم التالي أغاروا مرّتين على التجمعات التركية في "أبي لسان" وهبطوا حتى كادوا يلامسون الأرض، وشتتوا الرجال والخيول، ودمروا المدافع، وأحدثوا خراباً هائلاً.

وبعد أن أفاق الأتراك من صدمة هذه الغارات قرروا القيام بهجوم قبل أن تلحق بهم خسائر أخرى تضعف معنويات جنودهم وتضيع ما تبقى لديهم من معدات.

ومن الغريب أنهم اختاروا هدفاً لهجومهم مدينة البتراء التي تحرسها سلاسل من الصخور، والتي تشكل ممرات ضيّقة لا تتسع لجملين في آن واحد، فهي والحالة هذه قلعة حصينة، إذا ما أحسن الدفاع عنها.

وقد رأى لورانس أن يرسل إلى هناك الشيخ مولود على رأس قوة من مائتي جندي مزودين ببنادق سريعة الطلقات. وقد خسر الأتراك فرقة كاملة في هجومهم هذا، وأجبروا على التقهقر، دون أن يصيبوا أحداً من المدافعين عن المدينة الأثرية، الذين كانوا يختفون عن العيان بين الصخور الحمراء العالية المشرفة على الممر المشهور، بحيث أصبح مصيدة موت للقوات الغازية.

وهكذا أوقف تهديد العدو للعقبة، غير أن لورانس رأس أن إنزال ضربة أخرى بالعدو، ستقضي على تجمعاته نهائيا.

وواضح أن يكون خط سكة حديد الحجاز هدفاً للضربة التالية، ولكن... أين بالضبط يجب إنزال هذه الضربة، كيما تحقق أقصى ما يمكن من دمار؟ وبدا أن شمالي معان، يجب أن تكون نقطة الاختيار الطبيعية، وذلك لضعضعة تجمعات الأتراك، ومنع وصول المزيد من القوات إليهم من دمشق وحلب.

غير أن لورانس ووجه هنا بصعوبات، فقد كان في المرة السابقة عندما أغار ونسف الخط الحديدي شمالي عمان، أثناء الزحف من وادي سرحان، معتمداً على رجال عودة الذين كانوا قريبين منه، وعلى القبائل المحلّية التي كانت الدعاية قد فعلت فعلّها بينهم، فأصبح من الممكن الاعتماد على هذه القبائل، وأن تسمح للقوات المغيرة بالتسلل عبر أراضيها.

غير أن التقارير الأخيرة كانت تدّل على أن تأثير تلك الدعاية قد زال، وأن الأتراك قد انتهزوا الفرصة فأخذوا يقومون بدعاية معاكسة، قائلين ان فيصل قد باع نفسه للإنكليز الكفرة، وأنه لم يعد سوى أداة طيّعة في أيدي الاستعماريين الإنكليز والفرنسيين.

وكان الأتراك لنفسهم قد نشروا معاهدة "سايكس - بيكو" وكانوا يستعملون معلوماتهم إلى حد ما وكنتيجة لذلك رفض قسم من قوات الشريف، كان في طريقه لتعزيز قوات فيصل، مغادرة الحجاز.

كما أن مجلس الشريف لم يكن ملماً بتكتيك العدو، خاصة وأنه كان يتبع طرقاً ملتوية، مستعيناً بالدين، كما أن الانشقاق الذي حصل في نهاية الحرب بين فيصل ووالده واخوته،ربما كان قد بدأ في ذلك الوقت بالذات.

ولكي يهاجم خط السكة الحديدية من الشمال، دون مساعدة محلية، فإن الأمر يحتاج إلى قوة أكبر من تلك التـي كان لورانس يعتقد بأنها ضرورية، وهو لا يستطيع أن يخلي قاعدة العقبة من أجل القيـام بهجـوم علـى الـسكة الحديدية، مهما كان ذلك الهجوم مهماً.

وعلى هذا فقد قرّر أن يقتنع بشن هجوم على محطة المدوّرة التي تبعد حوالي ثمانين مـيلاً إلـى الـشرق مـن العقبة، وهي هدف مهم، لأنها كانت مصدر المياه الوحيد عبر عدة مئات الأميال من امتداد الخط الحديدي عبـر الصحراء.

وقد اختار للقيام بهذا الهجوم جاويشين، أحدهما استرالي والثاني بريطاني، كان يناديهمـا "لـويس" و"سـتوكس"، وبعد أن زوّدهما بمدافع المورتر والبنادق السريعة الطلقات، طلب إلى أحد الشيوخ من قوات فيصل يدعى "عيـد" بأن يصطحب معه عدداً من الجنود والجمال لنقل المتفجرات ومرافقة الجاويشين.

أما بصدد الحراسة فقد اعتمد على أفراد من قبيلة الحويطات اختارهم من "الغويرة" وهو في طريقـة لإعـداد ترتيبات الهجوم.

والطريق إلى "المدوّرة" يمر عبر وادي "رم" وهو واد طويل فسيح، تحيط به صـخور عاليـة حمـراء، يبلـغ ارتفاعها ألف قدم أو أكثر. وقد وصف لورانس مروره بتلك الطريق الرائعة، والمنطقة الصخرية التي تحيط بهـا بهذه الكلمات:

"أصبح ارتقاؤنا للطريق رفيقاً، حتى أصبح الوادي عبارة عن سهل مترامي الأطراف، أما التلال التـي كانـت ترتفع تجاهنا فكانت حادة، يقابلها من الطرف الآخر سلسلة أخرى لا تقل عن الأولى ارتفاعاً، وجميـع صـخورها حمراء اللون حتى لكأنها جبل اكتسى بالزنبق.

ولم تكن هذه الجدران الصخرية جدراناً غير منفتحة إطلاقاً، ولكنها شيّدت بطريقة عفوية، شـاءت الطبيعـة أن تجعلها أشبه ما تكون ببيوت الجن، وكانت تمتد على جانبي الطريق، وبشكل مستقيم.... وكانت الصخور متوّجـه بأعشاش من الأزهار ـ تبدو كالقباب، ولا تقل حمرة عن لون الصخور ذاتهـا، وان كانـت تبـدو فـي بعـض الأماكن مصفرة بعض الاصفرار، فكان المنظر بحد ذاته يوحي للناظر بفكرة عن جمال الطبيعـة، التـي كانـت تبدو هناك وكأن فناناً بيزنطياً قد أبدع خلقها، بشكل لا يتصوره العقل.

والوادي فسيح مترامي الأطراف حتى ليمكن القول بأن الجيش العربي لو سار على غير هـدى لـضاع فـي أرجائه، حتى إذا ما وصل إلى الممرّ المحاط بالصخور، فإن سرباً من الطيارات كان يكفي لإبادتـه مهمـا كـان كبير العدد.

وقد ازدادت قافلتنا الصغيرة وثوقاً بنفسها، وسيطر عليها هدوء غريب، رغم الخوف الذي كان يـدخل نفـوس أفرادها الذين، لاح لي أنهم، خجلوا من إظهار فرقهم بين تلك التلال الصمّاء".

ولم يمض طويل وقت حتى لفت انتباه لورانس، إلى أمر أصابه بهزة شديدة... فقد أصيب الشيخ عيـد بـالعمى نتيجة للحرارة والغبار ولمعان النور، ولما خشي لورانس أن يصطحبه معه ليشترك في الغـارة، فقـد قـرّر أن يرسله مع بعض الجنود ليبقى في مضارب بعض البدو الذين يقطنون إلى الجنوب من "رم".

وكانت حرارة شمس أيلول قد انهكت قوى بعض الجمال، وأصبح لزاماً عليه الحصول على جمال أخرى لنقـل المتفجرات.

ولكن القبائل البدوية التي وجدوها كانت من القبائل المستاءة جداً من "عودة" والتي ساورها الـشك فـي مجـرد ايوائه بينها.

وكان لورانس قد اضطر مؤخراً إلى إخماد ثورة بدائية قامت بها جماعة من قبيلة الحويطات، فـي "الغـويرة" مؤلفة من عدد من الشيوخ، هددوا بالانفصال عن عودة إلاّ إذا أعطاهم نصيبهم من الـذهب الـذي أخـذه مـن الإنكليز.

كذلك كانت القبائل البدوية في "رم" لا تقل عناداً عن شيوخ قبيلة الحويطات... ولذلك فقد أمضى لـورانس ليلـة متعبة، بعد نقاش طويل مرير جرى في طقس بلغت درجة حرارته في الظل ١٢٠ درجة، فضلاً عـن أن الظـل كان "عبارة عن حصار من أسراب الذباب".

وفي اليوم التالي وصل ابن شقيق عودة، المدعو زعل، ليلتحق، بقوات لورانس. وبعد تمثيـل دور مـاهر فـي تفريق القبائل بعضها عن بعض، تمكن لورانس من انتزاع وعد من القبائل بتأييـدها شـريطة أن يبعـث فيـصل ممثلاً يؤمن لها استقلالها عن عودة.

وقد تم تنفيذ ذلك، وإن كان تنفيذه أرغم المسكين لورانس على العودة إلى العقبة، ليطلب إلى الأمير فيـصل أن يرسل معه مبعوثاً إلى قبائل "رم".

وفي السادس عشر من شهر أيلول، توجه رجال القبائل والمغيرون معاً، نحو "المدوّرة"، غيـر أن تلـك القـوة كانت قوة غير متماسكة، وقد اندفعت من "رم" يحدوها الطمع بالنهب أكثر من أي حافز آخر.

وقد اشتبك زعل، ومبعوث الأمير فيصل، وكان يدعى "الشيخ عبد الله" في مناقشة حادة مع أفراد القبائل، غيـر أنهما فشلا في إقناعهم إقناعاً تاماً.

ولولا دبلوماسية لورانس التي استعملها خلال الأيام الأولى من الزحف، لما أمكن ايجاد نوع من التجانس بـين أفراد القوّة، وخاصة عندما ضربوا خيامهم في تلك الليلة، بعد أن أصبحوا على مرمى البصر من الهـدف الـذي يقصدون إليه.

وقد أفادت فرقة استطلاع أرسلت بعد حلول الظلام، أن المحطة محروسة بشكل يزيد كثيـراً علـى مـا كـان يتوقعه العرب، وأنهم بما معهم من قوات قليلة سيبدون أقل عدداً، وبشكل هائل، من الأتراك الذين يرابطون فـي المحطة.

ولذلك قرر لورانس أن يتجاهل المحطة بالذات، على أن يجد مكاناً ما على الخط الحديدي لوضـع لغـم تحتـه ونسف أول قطار يأتي من أي اتجاه.

وقد ساعدهم الحظ في العثور على جسر للسكة الحديدية، يمكنهم أن يضعوا تحته اللغم بحيث يحدث أقصى مـا يمكن من دمار، وحيث يشكل مخبئاً رائعاً للهجوم على الأتراك، بعد أن يتبعثروا، إثر نسف القطار.

ثم إنه تولى لورانس وضع المتفجرات، بينما تولى "لويس" و"ستوكس" نصب المدافع السريعة الطلقات ومـدافع المورتر على أطراف الصخور التي تشرف على الطريق.

وحوالي الظهر، من اليوم التالي، صاح أحد رجال الحرس من مركز حراسته الواقع في أعلى قيادة لـ ورانس، مبلغاً إياه أن ثمة قطاراً يقترب، فأمر لورانس كل رجل باستلام مركزه، وانتظر حتى وصـلت القـاطرة فـوق الجسر مباشرة، قبل أن يوعز إلى "سالم"، أخاص عبيد فيصل، الذي أولك إليه شرف ضغط زر التفجير.

ودوى إثر ذلك انفجار. ولم يعد القطار ولا الخط الحديدي يريان، بعد أن غطتهما سحابة كثيفـة مـن الـدخان والغبار الأسود. ثم تبع ذلك صوت ارتطام الحديد بالحديد وقرقعة لخشاب العربات.

ثم اعقب ذلك لحظة صمت مروعة، بعدها أطلقت الشياطين من عقالها. إذ أن البنادق السريعة الطلقـات التـي كانت مع فوات لورانس بدأت تلعلع، وراح البدو يطلقون النار بفرح غامر متخذين من القطـار المـسكين هـدفاً لنيرانهم، بينما كان الأتراك يتدفقون إلى أسفل بالسرعة التي قذفوا بها من عربات القطار.

ثم الأتراك يتدفقون إلى أسفل بالسرعة التي قذفوا بها من عربات القطار.

ثم تمكن "لويس" بقذيفتين من مدافعه المورتر، أن يسكت آخر مقاومة لمن نجا من الأتراك، وكان بعـضهم قـد حاول القيام بهجوم مضاد من وراء الصخور.

أما الذين نجوا من قذيفتي المورتر، فقد عمدوا إلى الفرار، وانقض البدو على القطار واعملوا فيه يـد النهـب والسلب، حتى أنهم لم يتركوه إلاّ وقد أصبح بدداً مبعثراً هنا وهناك. وقد كتب لورانس يقول:

"كان الوادي غريب المنظر، أما الأعراب فقد جنّوا سروراً، وراحوا يتراكضون في أرجائـه بأقـصى سـرعة لديهم، حاسري الرؤوس. شبه عراة، يصيحون في الهواء ويضرب بعضهم بعضاً بالأيدي والأرجل، بينمـا هـم يغيرون على عربات القطار، ويعودون محملين "بالبالات" الثقيلة التي كانوا يكوّمونها على جانـب خـط الـسكة الحديدية، ويقذفون بكل شئ لا يرون فيه منفعة لهم... كانت هنالك آلاف السجاجيد والفرش والبطانيات حتى لقـد كانت ترى اكواماً عالية، وملابس للرجال والنساء على حد سواء ومـن مختلـف القياسـات، وسـاعات وأدوات طهو، ومواد غذائية، وحلي، وأسلحة، وقد حمل كل منهم أقرب جمل إليه بكل ما وقعت عليه يده ثم قـاد الجمـل نحو الغرب، ليأخذ ما تقع عليه يداه. وكنت أنا أشجعهم على ذلك".

ومرة أخرى ـ كما حدث في أبي لسان ـ عندما أباد العرب الأتراك، ونهبوا مخلفاتهم، أدار لـورانس ظهـره لما يجري، ثم سار إلى حيّث سقط آخر المدافعين الأتراك، وراح يضع الخطط لإعادة تنظيم قوّاته.

وكما ثارت الضجّة فجأة، هدأت فجأة كذلك، وخيّم صمت عميق على الوادي، وتطلع لورانس حوله ليجـد انـه وزعل، واثنين برتبة جاويش، وحدهم مع عدد من الأسرى الذين نجوا من المعركة.

أما البدو فقد اختفوا في الصحراء بما حصلوا عليه من غنائم، وفيما كانوا يغذّون السير عائـدين إلـى العقبـة، لاحقتهم دورية تركية قدمت من "المدورة" لتتعقب المهاجمين، ولكنهم نجوا منها بأعجوبة.

ولما عاد لورانس إلى معسكر قوات فيصل لم يكن يعرف بين البدو بالرجل القادر على جلب الذهب والأسـلحة بكميات لا حصر لها لقوات الشريف، بل كقائد غارة وقرصان صحراء، وزعيم عـصابات لا تعـرف للحـزن معنى، وكرجل كان مجرد ظهوره في معـسكر عربـي يقابـل بـصيحات الترحـاب والفـرح "لـورانس.... لورانس....".

وكذلك كان منظر جنوده من البدو وهم عائدون مع جمالهم التي كانت لا تكاد تقوى على السير لثقـل أحمالهـا من الغنائم، التي كانت تفكي لإثراء قبيلة بأسرها، وقد أثار هذا حسد بقية قوات جيش فيصل.

ثم انه انتشرت أخبار نسف جسر "المدورة" والاستيلاء على الغنائم من القوات التركية لنتشار النار في الهـشيم، ووصلت إلى مختلف انحاء الصحراء، وإن كان تلك الأخبار لم تنقل على الدوام بشكل دقيق.

وهنا بدأت ألسنة نيران الثورة تندلع من جديد، بعد أن خبت إثر احتلال العقبة، كما أن اولئك الذين لـم يمتثلـوا لرسالة فيصل، قد تأثروا جداً للقصص التي تروى عن مغامرات قولته، تلك القصص الغريبة التي كانـت تنـشر من معسكر فيصل بالذات.

وأدرك لورانس أهمية هذا المصدر الجديد من مصادر التشجيع، فقرّر القيام بغارات جديدة علـى خـط سـكة حديد الحجاز. ولما كان قد مل مساومات القبائل البدوية في الشمال، فقد حوّل نشاطه إلى قطاع معـان، وتمكـن خلال الأشهر الأربعة التي تلت من أن يدمر سبع عشرة قاطرة ومئات من العربات والشاحنات.

وكانت تلك ضربة قوية للأتراك، إذ أنها أثرت عليهم مادياً ومعنوياً، فـأعلن سـائقو القطـارات الإضـراب، وتوقفت المواصلات المدنّية بين دمشق والحجاز، أو كادت تتوقف، وأصبح السفر خطراً غير مـأمون العواقـب للأعداء.

وبات من جراء خسارة العدو لمخزونه من المؤن والمعدات، صعباً عليه أن ينقل قولته في المدينة لدعم قولتـه في فلسطين، وراح يجمّع فلوله حول القدس، في الوقت الذي أصبحت فيه الجيوش البريطانية آخذة فـي التجمـع للقيام بهجومها العام الذي أصبحت فيه الجيوش البريطانية آخذة في التجمع للقيام بهجومها العام الذي جرى فـي شهر تشرين الثاني.

وهكذا ما إن وصلته في منتصف شهر تشرين الأول أنباء تفيد بأن اللنبي يريد أن يدرس دور الجـيش العربيـة في خطة الهجوم على غزّة، حتى أسرع لورانس إلى مقر القيادة العامة، يكاد يطير فخراً لما حققه من منجزات.

الفصل السادس عشر

شمالاً نحو الازرق

مرة أخرى دخل لورانس إلى مكتب الجنرال اللنبي، مرحاً كطائر السنونو، وهو يرفل في ثيابه العربية.

ولكن الجنرال اللنبي لم يكن في هذه المرة في حالة تسمح له بأن يدع زائره يضيع الوقت سدى، فقد كان لـدى القائد العام من الأعمال الجدّية الشئ الكثير، واستناداً إلى ذلك فإن أوقاته كانت محددة بكل دقة.

ولذلك فقد طرق الموضوع مباشرة، وسأل لورانس عما قصد بغاراته على خط السكة الحديدية، وما إذا كانـت هذه الغارات تعني أشياء أخرى غير الدعاية لقضية فيصل.

وقد فجرت هذه الاسئلة غير المتوقعة كبرياء لورانس، فدفعته إلى ان يجيب بشكل مباشر أن غرضه كان إبقـاء خط الحجاز عاجزاً عن العمل بحيث تبقى قوات "فخري" في المدينة حيّث "يمكن إطعامها بتكاليف أقلّ ممـا لـو سجنت في القاهرة".

ولكن هذا الجواب لم يعجب اللنبي الذي كان يفكر في أسباب أفضل... فقد كان يريد خطة لثورة عربية عارمة جامعة في الشمال، عندما يشن هجومه على خط غزة ـ بئر السبع.

وتلقى لورانس هذا الاقتراح بقليل من الأهمية، فقد كان يعرف ان من الجائز أن يستولي على "درعا" التي تقع بين دمشق وعمان، وذلك بمساعدة القبائل البدوية المحلّية. وكانت درعا، كما صوّرها هو، "القاعدة الرئيسية للقوات التركية في سوريا".

ونظراً لأنها نقطة الاتصال بين الخطوط الحديدية المؤدية إلى القدس وحيفا ودمشق والمدينة، فهي والحالة هذه النقطة الحساسة بالنسبة لكل جبهة.

كما أن لورانس كان يعرف أن القبائل في تلك المنطقة، كانت تعتبر من خيرة المحاربين، وممن تثقفوا وتسلحوا من قبل فيصل اثناء وجودها في العقبة، والشئ الأهم من ذلك أن زعماء تلك القبائل كانوا يلحّون على فيصل ليأمرهم باحتلال درعا.

ومع ذلك فقد تردد لورانس، وبعد فترة من التفكير رفض مقترحات اللنبي. وكان السبب الذي شرحه فيما بعد معللاً به هذا الرفض، هو شعوره بأنه لم يكن بمقدوره أن يتأكد من نية الجيش البريطاني وقيادته "غير المدربة" في القيام بهجوم ناجح على غزة، وأنه طالما كانت القبائل مستعدة للثورة مرة، فإنها تتطلب منهم القيام بمخاطرة كبيرة جداً.

والحقيقة أن السبب الأصح، كما شرح ذلك هو نفسه، "هو أنه اعتبر القيام بهذه المغامرة" بمثابة دمار محقق لمشاريع اللنبي، وليست بالمخاطرة التي قبل فيصل القيام بها إلاّ إذا كان لديه الأمل في أن يركز نفسه هناك".

ولم يكن لورانس يريد أن يحتل درعا أحد غير فيصل، فقد كان فيصل، هو مرشحه لاعتلاء عرش سوريا ولتحقيق أحلامه في العالم العربي.

وقد علق لورانس على زيارته لمقر القيادة العامة، بأنه شعر بنفسه يكاد يتمزق بين سيديه، فيصل واللنبي، وقال: إن هذا الشعور لم يكن قد انتابه لأول مرة.

غير أنه كان من الواضح أن لورانس كان يسعى منذ عدة أشهر لتفادي الاصطدام مع الأمير، وأنه على استعداد للتضحية بمصالحه في سبيل ارجاح كفة أي شخص آخر على كفة فيصل.

والحقيقة التي لا مراء فيها هي أن مصالح فيصل كانت تتفق ومصالح الحلفاء، وكان من حسن حظه أن يقود الحملة ضد الأتراك، ولكنه ليس هنالك أدنى شك في أن لورانس لن يتردد بأي شكل من الأشكال في التضحية بالربح الأكبر، الذي قد يحققه، بتنفيذ مطالب الملك البريطاني الذي اختاره هو ـ ولعله كان يبرر موقفه هذا بسبب ما ـ لأنه كان يعلم أن الحلفاء سيضحون بفيصل، حالما تنتهي خدماته لهم.

وقد اقترح لورانس كحل وسط، ومن أجل إبقاء اللنبي مخلصاً لقضية العرب، أن يقود بنفسه جماعة من الفدائيين لنسف جسر للسكة الحديدية على نهر اليرموك، بين درعا وبحيرة طبريا.

ومن الطبيعي أن يحتاج تنفيذ هذه الخطة إلى قطع مسافة تزيد على أربعمائة ميل، وراء خطوط الأتراك، ولكن، إذا أمكن نسف الجسر، فإن وسيلة المواصلات الوحيدة للأتراك بين قواعدهم في الشمال وفلسطين، ستعطّل، ولمدة أشهر، إذ أن تخريب الجسر سيحدث فجوة عريضة لا يمكن إعادة إصلاحها إلاّ بصعوبة بالغة.

وقبل اللنبي الاقتراح، وأوعز إلى لورانس بأن ينفذه بأسرع وقت ممكن، إذ أنه يريد للجسر أن ينسف بعد أيـام قلائل من هجومه العام الذي كان يعتزم القيام به في الأسبوع الاول من شهر تشرين الثاني.

وهكذا اتخذت التدابير اللازمة للغارة بسرعة، ووافق فيصل على إيفاد علي بن الحسين محل الـشريف ناصـر الذي لم يكن موجوداً وقتذاك، وعين أحد شيوخ قبيلة حارث يدعى علياً، كان قد اشترك مع فيصل في الأسر فـي دمشق، نظراً لخبرته الواسعة في أعمال النسف والتدمير.

وكان الشيخ علي معروفاً بشجاعته وحبه لركوب الأخطار، وكان قد حقق للقوات العربية عدة انتصارات علـى الاتراك، كما أنه كان يستطيع النهوض وهو راكع، رغم أن رجلين يقفان على كفتي يديه، ثم يركض وراء جمـل شارد مسافة نصف ميل، ثم يقفز فجأة إلى الهودج.

فهو والحالة هذه الرجل المناسب لمغامرة اليرموك الخطرة. وفضلاً عن ذلك كان قريباً إلى زعيم قبيلـة بنـي صخر التي يتم على المغيرين أن يمروا عبر أراضيها.

وكانت خطة لورانس تقضي بالتوجه إلى الأزرق التي تبعد مسافة مائتين وخمسين ميلاً إلى الـشمال الـشرقي من العقبة، لكي ينشئ قاعدة له هناك يشن منها هجومه على الجسر، حالما يتأكد من حصوله على التأييـد الكـافي من القبائل المحلّية.

ولكن الأمر كانت تعترضه بعض المصاعب، فقد كان من المحتمل أن تقبل قبيلة" السيراحين" التي تقطن حـول الأزرق بالتعاون مخلصة مع الحلفاء، كما أفادت آخر التقارير التي وردت من المنطقة، غير أنه لم تكـن هنالـك أية ضمانات بالنسبة للقبائل الأخرى التي تقطن حول الهدف الذي كان يبعد مسافة مائة وخمسين ميلاً عن مـوطن هذه القبيلة.

ثم إن قبيلة الرولا التي يرأسها نوري الشعلان كانت قد عادت إلى مقرها الشتوي الـذي يبعـد مـسافة مئـات الأميال، كما أن جيرانهم من قبيلة بني حسن كانوا مجهولي العدد والامكانيات.

وبينما كان لورانس يفكر في هذه المشكلة، حدثت مفاجأة أوحت إليه بالحل. فقبل أن تبدأ حملته ببـضعة أيـام، متحركة من العقبة إلى هدفها، وصل أمير جزائري، هو الأمير عبد القادر ـ الجزائري "الحفيـد" لينـضم إلـى فيصل.

والجدير بالذكر أن عائلة الأمير عبد القادر لها سجل حافل في ميدان النضال من أجل اسـتقلال العـرب، فقـد دافع جده عن الجزائر ضد الفرنسيين، كما أن شقيقه استشهد مؤخراً بأيدي الاتراك.

وكان هو كشقيقه الشهيد، يعيش في المنفى بسوريا، بعد أن هرب إليها إثر مغامرات خيالية. أما بالنـسبة إلـى لورانس، فقد كان يعتبره نصف مجنون، كما أن قصة هربه لم ترق إلى درجة تجعله يصدقها.

وقد تبين فيما بعد أن الأتراك كانوا يستخدمونه عميلا. ولكن فائدة كانت تكمن في الوعد الذي قطعه على نفـسه بتأييد زملائه الجزائريين الذين يعيشون في منفاهم الواقع في وادي نهر اليرموك.

وبالإضافة إلى ذلك، فإن فيصل، وهو المعروف بتعقله، كان يعتقد بأنه مخلص له. ونظراً لأن الـدليل الوحيـد على خيانته جاء من "بريمون" الفرنسي فقد قرر لورانس أن يعتبـره ذلـك الـدليل دعايـة فرنـسية مغرضـة، فاصطحبه معه في تلك المغامرة.

وكان ذلك خطأ فاحشاً، كما أثبتت الأحداث، إذ أن عبد القادر تخلى عن رفاقه في أحرج اللحظات دون أن يفعل أي شئ لمساعدتهم، وإن كان قد فعل الكثير لقلب خططهم رأساً على عقب.

وغادرت الحملة مدينة العقبة في الرابع والعشرين من شهر تشرين الاول.

وبالإضافة إلى الشيخ علي وعبد القادر، كانت تضم ضابطاً بريطانياً متخصصاً في أعمال العمار يدعى "وود"، كما أنه متخصص في أعمال النسف، كما تضم بعض حرس لورانس الخصوصيين الذين بلغ عددهم وقتئذ سنة، وعدداً من حملة البنادق السريعة الطلقات من سلاح المشاة في الجيش الهندي.

وقرّر لورانس أن يعتمد على حمايتهم بفضل من يستطيع استمالته من البدو المقيمين حول الأزرق، لتغطية نسف الجسر، بدلا من لتعاب نفسه مع عدد كبير من البدو في مسيرته الطويلة نحو الشمال.

وقد سارت الأمور منذ البداية خاطئاً، فقد أصيب "وود" بمرض "الديزانطاريا" إثر تسممه من رصاصة كان قد أصيب بها في فرنسا. كما أن علياً وعبد القادر تخاصما، ولم يمنع أحدهما من قتل الآخر إلاّ سهر لورانس ويقظته.

وكذلك فإن الهنود كانوا غير أكفاء لقيادة الجمال. وبينما كانت الحملة تسير جنوبي خط سكة حديد الحجاز وفي موقع جنوبي معان، وبينما كانت في طريقها إلى معسكر عودة، قابلتها دورية تركية لم يكن ظهورها متوقعاً، فاضطرت الحملة للاختباء، وبذلك تأخر موعد وصولها إلى الهدف.

والأسوأ من هذا كله، انه يوم عثر افرادها على معسكر عودة الشتوي قرب "الجفر" وجدوا الشيخ عودة قد انقلب عليهم، وانضم إلى شيوخ قبيلة "الحويطات" ورفض طلب لورانس بأن ينضم إليه في حملته تلك، إلاّ إذا دفع له مبلغاً كبيراً من المال.

وكذلك رفض زعل الانضمام إليه، وعلل لورانس هذا الرفض بأنه قد أثرى بعيد الغارة التي قاموا بها في الصيف.

وفي غمرة من يأسه من جراء هذه النكسات، والأخطاء، وأهمها أنه يضم بين رجاله عميلا للاتراك، في رحلة محفوفة بالأخطار، اندفع لورانس نحو آبار "باير" ليجرب حظه مع أقارب علي من قبيلة بني صخر.

وبعد لحظات قليلة من تحركه تناهى إلى مسامعه صوت انفجار هائل يأتيه من بعد، فصاح بفرح بالغ، وأدار جمله، قائلا إن حملة اللنبي قد بدأت، وأن الأتراك لا بد وأن يكونوا الآن يتقهقرون أمام نيران المدفعية البريطانية.

وقد انضم الشيخ علي إليه بشكل تلقائي، وشاركه فرحه، ولكن ما إن ابتعد لورانس عن النظر، حتى همس عبد القادر في أذن علي قائلا: "لا داعي للفرح... إن لنا اخواناً مسلمين يموتون الآن بقنابل الكفرة ومدافعهم".

واحتفظ الشيخ علي بصمته، ولم يقل كلمة واحدة إلى لورانس عن تعليق الزعيم الجزائري، فقد كانت الأمور حتى تلك اللحظة تسير من سيئ إلى أسوأ، ولكنهم سرعان ما وصلوا إلى أصدقاء لورانس، حيّث وجدوا منهم التأييد المخلص.

والحقيقة أنهم ما إن بلغوا "باير" بعد أسبوع من تحركهم من العقبة، حتى بدا أن حظهم قد أخذ يتغير، فقد استقبلوا هناك استقبالا ودّياً من قبل افراد قبيلة بني صخر الذين خرجوا لاستقبالهم تسبقهم صيحات الفرح، ولعلة

طلقات البنادق في الهواء، والدعاء إلى الله بأن يمنح القوة للشيخ علي وزميله لـورانس، حتـى يخلـصاهم مـن اخطار ظالميهم، القادة الأتراك.

وقد أثار المنظر حسد عبد القادر الذي حاول عبثاً أن يلفت إليه الأنظار، عندما جلس متجهماً في خيمـة زعـيم القبيلة أثناء حفلة العشاء التي تلت غروب الشمس.

وكلما ازداد الترحيب برد الفعل لمدافع اللنبي، كان عبد القادر يزداد قنوطاً. ولم تتحسن حالته، عندما تحركـت الحملة في صباح اليوم التالي متجهة "نحو الأزرق"، برفقة الشيخ "مفلح" شيخ بني صخر الذي كان مضيفهم فـي الليلة السابقة مع عشرين من أخلص رجاله المحاربين.

وكان واضحاً أن الأمير الجزائري كان يضمر الخلاف، ولذلك كان لورانس والشيخ علي لا يكفان عن التفكيـر أثناء تحرك الحملة شمالا. ولم يكن يمنع وقوع الاصطدام بين علي وعبد القادر إلاّ تقاليد الصحراء.

ورغم أن علياً لم يكن يثق بزميله عبد القادر إلاّ أنه استطاع أن يـسيطر علـى أعـصابه وأن يعتبـر الأميـر الجزائري رفيقه في السلاح.

وكان هذا الاعتبار كافياً لاحترام ذلك الرفيق، حتى تنتهي المعركة، وعندها يتحلل من تقاليـد الـصحراء التـي تمنع الاعتداء في مثل تلك الظروف، والتي تمنع حتى مجرد الشك من أن يرقى إلى مرتبة التأكد، وتمنع الرفيـق من أن يجرد سيفه في وجه رفيقه الذي يشاركه المصير في معركة خطرة، غير معروفة النتائج.

الفصل السابع عشر

فشل في اليرموك

تمخضت الأيام الأربعة التي تبقت على الزحف نحو الأزرق، عن مزيج من التطورات، كانت فـي معظمهـا سيئة.

فاذا ما أردنا أن نذكر الحسن منها، فإننا نقول إن شيخين من قبيلة "زبن صخور" قد انضما إلى لورانس. وهمـا "فهد" و"غضوب".

وكان هذان الشيخان أخوين ومحاربين شجاعين. وكان "فهد" بطبيعته رجلاً صامتاً مـتجهم الوجـه، لـه عينـان براقتان، وذلك على نقيض شقيقه "غضوب" الذي كان كثير الضجة ويتمتـع بـأنف ضـخم، وعينـين ضـيقتين، تنتقلان بجشع من هدف إلى آخر.

ثمّ، وعندما كانوا على وشك الوصول إلى "الأزرق" التقوا بعدد كبير من أفراد قبيلة "السيراحين" الـذين كـانوا في طريقهم للانضمام إلى قوات فيصل.

وبدا ان هذا اللقاء ضربة حظ موفقة، لأن أفراد قبيلة "السيراحين" كانوا يعتقدون بأنه يتحتم علـى لـورانس أن يقود جماعته إلى الأزرق على أن يتولوا هم حراستهم.

غير أن هذه النيات ما لبثت أن اتضحت، إذ أن أفراد قبيلة "السيراحين" بعد أن انتهوا من وجبة العشاء، كـشفوا عن خطتهم، على لسان زعيمهم، وهو شيخ أدرد يدعى "مطير"، قال بأن الجسر لا يمكـن نـسفه، وذلـك لـسبب واحد بسيط، هو كون المنطقة مكتظة بالأتراك.

كما أنه أوضح بأنه لا يثق بالقرويين الذين يقطنون بالقرب من تلك المنطقة - أي زملاء عبد القادر في المنفى.

ووجد لورانس نفسه في ورطة كبرى، فلو أن أفراد قبيلة "السيراحيون" بقوا في يامهم ولم يتقدموا لمساعدتهم لخذل بذلك خطة اللنبي خذلاناً شنيعاً وأحبط خطة بريطانيا في مساعدة فيصل في المستقبل، ولذلك استدعى كلا من "علي" وفهد" و"مفلح" و"غضوب" ليدعموا جهوده في إقناع "مطير" وبقية شيوخ قبيلة "السيراحين" لمساعدتهم.

وقد كتب لورانس يقول: "لقد شرحت لهم الأمر شرحاً ليس بالموجز، ولكنه كان شرحاً مفصلاً، وأفهمتهم بأن مغامرتهم قد تعني فقدانهم لأرواحهم كما قد تعني الحياة الرغيدة لهم جميعاً، وقلت لهم إن عليهم أن يتحملوا الكثير من الألم، وأنه من الجائز ألا يوفقوا في تقدمهم ولا في تقهقرهم، وقد يقتلون عن بكرة أبيهم، فاذا شاؤوا التحقوا به والا بقوا حيّث هم".

وفي نهاية الجدال الطويل الذي جرى آنذاك، تبين أن شيوخ القبيلة كانوا محرجين، ولعلم خجلوا من تأجير أنفسهم للجماعة المغيرة، فقرر لورانس ألا يضيع مزيداً من الوقت، وبعد أن أمضى ليلة راحة، وسط ما تبقى من آثار القلعة الصليبية في الأزرق، مضى قدماً نحو هدفه.

كان هجوم الجنرال اللنبي قد بدأ منذ خمسة أيام، ولذا كان على لورانس أن يعجل ما أمكن، إذا ما أراد تنفيذ الخطة المقررة.

وقبل بضع ساعات من تحركه، اكتشف أن عبد القادر قد اختفى. ونظراً لما كان واضحاً من ميله إلى الأتراك، ومن سلوكه اثناء المسيرة باتجاه الأزرق، فقد تأكد لدى لورانس أن عبد القادر هذا قد ذهب ليحذر الأتراك، ويحدثهم بالخطة المبيتة.

ولذا فقد عقد هو اجتماعاً فورياً مع كل من علي وفهد، ليطلعهما على ما تطورت إليه الأوضاع.

غير أن هذين كانا عنيدين، وليس من السهل إقناعهما، لذلك قرر لورانس، بعد مناقشة غير مجدية، أن يقامر، عله يستفيد من تأخر الأتراك في القيام بعمل ما.

وقد ساروا مسافة الثمانين ميلا المتبقية إلى هدفهم بصعوبة فوصلوا إليه قبل فجر اليوم التالي، أي خلال ثلاث عشرة ساعة من تحركهم.

ثم اتخذ لورانس الاستعدادات النهائية للخطوة الأخيرة من هجومهم، ولكن اختفاء عبد القادر افقده السيطرة على أعصابه، ولولا تصميمه على ألا يقل جرأة على هذا العنيد - علي - لما واصل العمل.

وقد اختار أسرع الجمال وأحسن المقاتلين من الرجال من قبيلتي بني صخر والسيراحين، وقرر مهاجمة الجسر بهدوء، قبل بزوغ الفجر، مصطحباً معه جماعة صغيرة، على أن يهرب الجميع فور أن يتم نسف الجسر عبر التلال. وأن يعودوا بأسرع ما يمكنهم إلى الأزرق.

ولكي ينفذ هذه الخطة، كان عليه أن يعمل بشكل مباغت. وعلى الرغم من انهم قابلوا دوريتين من الأتراك اثناء الطريق، إلاّ أنهم استطاعوا الاختفاء. وأصعب ما صادفهم من عقبات كان ممثلا في أحد الرعاة الذي أخطأ التقدير فظن أنهم خارجون على القانون، ويريدون سرقة أغنامه، فأطلق عليهم نيران بندقيته، ولما وصلوا إلى

الجسر في "تل الشهاب" تحت وابل من المطر، لم يظهر رجال الحرس الأتراك أية بادرة يمكن أن يستدل منها على أن عبد القادر قد خان جماعته، وأنه قد انذرهم بالهجوم المرتقب، ليعدوا العدة لمواجهته.

هذا وقد قام رجال المشاة الهنود المزودون بالبنادق السريعة الطلقات، والبدو الذين يحملون المتفجرات، بإنزال حمولتهم بكل حذر وهدوء عن ظهور الجمال المتعبة، وكان الصوت الوحيد الذي يسمع في تلك الليلة التي لا قمر فيها، هو خرير مياه النهر، الذي كان يتدفق على مسافة مئات الأقدام تحتهم.

وتولى "وود" مسؤولية الاشراف على الهنود الذين أوكل إليهم مهمة حراسة لورانس وعلي وفهد فيما هم يتولون بث الألغام تحت الجسر.

ومما هي إلاّ لحظة، حتى كانت فرقة النسف تتحرك منحدرة على الصخور، لتصل إلى حيّث تقوم أعمدة الجسر، وتبدو واضحة أمام العين المجردة.

وشاهدوا قبل ياردات قليلة من بلوغهم هدفهم حارساً تركياً، يروح ويغدو على الجسر الحديدي، وهمس لورانس إلى فهد بأن ينتقل إلى موقع آخر، يمكنهم أن يبثوا ألغامهم منه دون أن يراهم الحارس.

ثم ... وما إن بدأ الإثنان بالتسلل، حتى ألقى أحد البدو، وكان يحمل المتفجرات، بندقيته.

وفور ارتطامها بالصخور، اطلق الحارس التركي نفير الخطر، وراح يطلق نيرانه في الإتجاه الذي صدر عنه الصوت. ولما أصبح البدو في مركز حرج، اضطروا إلى الرد على النار بالمثل، بعد أن خرجوا عن مخابئهم وراء الصخور.

وانتبهت نقطة الحراسة التركية إلى تبادل إطلاق النار، فهب رجالها يركزون نيرانهم على البدو، الذين ما إن رأوا الرصاص يتساقط بالقرب من أكياس "الجلنجايت" التي معهم، حتى القوا بأنفسهم في النهر خشية أن ينفجر ما يحملونه من متفجرات، ويقضي عليهم. ولم يكن هنالك ما يمكن عمله غير الهرب بأقصى سرعة ممكنة، فأخذ البدو يتسلقون التلال، الشديد الارتفاع، حتى تمكن لورانس وبقية أفراد جماعته من الالتحاق ببقية الفرقة الرئيسية التي ما إن اجتمعوا بأفرادها حتى ساءت الأمور أكثر فأكثر.

إذ ان الحملة قد فشلت. واثناء العودة، حدث أن بعض أفراد قبيلة "السيراحين" لم يعجبهم فشلهم في الاستيلاء على الغنائم فهاجموا جماعة من القرويين كانوا عائدين من درعا وسلبوهم ما يحملون من أمتعة، الأمر الذي حدا بالبدو الآخرين أن يهبوا للانتقام، وخاصة أولئك الذين كانوا يقطنون الأماكن المجاورة للمكان الذي وقع فيه الحادث. وهذا ما جعل موضوع تراجعهم صعباً وشاقاً....

وكانت اصوات قنابل مدافع اللنبي ما تزال تدوي وراء صفوف الأتراك، فكانت، وهي تتناهى إلى مسامع لورانس من الجهة الجنوبية تزيد من تألمه لما أصابه من فشل في محاولته تلك.

ولقد كان للمحاولة التي قاموا بها للتنفيس عن حدة غضبهم، بنسف قطار اثناء عودتهم، أثر هزيل في رفع معنوياتهم، فقد قام لورانس بوضع حقيبة من "الجلنجيات" تحت قضبان السكة الحديدية بمساعدة زملائه من العرب، واخذوا ينتظرون مقدم القطار، ولكن سوء الحظ كان ما يزال يلازمهم، إذ أنه عندما ضغط على الزر، لم يتفجر اللغم، ومر القطار بسلام.

وكان ذلك القطار مليئاً بالقوات التركية الذاهبة لدعم الجبهة في فلسطين. وعندما مـر القطـار أدرك لـورانس فجأة، أنه أصبح مكشوفاً لقوات العدو التي كانت تتطلع إلى جماعته بواسطة المنظارات المقرّبة.

ونظراً لأنه كان يتوقع أن ينجح في تفجير اللغم، فقد أهمل تغطية جماعته، ولكي ينقذ نفسه من مزيد مـن حـرب استطلاع العدو، راح يلوح لهم، رغم استغراب العرب الذين كانوا يقبعون في مخابئهم وراء الصخور.

ولما عاد وانضم إلى الشيخ علي ومفلح، واجهاه بالاتهام بأنه تعمد ترك القطار يمـر بـسلام، وأخـذ العـرب يهزون رؤوسهم، ويتحدثون عن "العين الشريرة" التي أصابتهم. ولما انتهرهم لورانس على سوء ظـنهم، ثـاروا عليه، وهاجموه بعنف، ولكن علياً دافع عنه بنبل، رغم أنه كان يرتجف من حمى أصابته، حتـى أصـبحت حالتـه لا تطاق، وخاصة في البرد الذي كان يطغى على المنطقة، واستطاع أن يهدئ مـن سـورة غـضب العـرب، وتمكين لورانس من التقاط أنفاسه ليعود ويضع المتفجرات بشكل صحيح.

وبعد أن وضع المتفجرات في مكانها الذي اختاره لها، جلس لورانس ينتظر قدوم القطار التالي، ومـن حـسن الحظ أن القطار التالي كان هدفاً ممتازاً، تجره قاطرتان ويقل عدداً من الجنود بينهم جمال باشا نفسه الـذي كـان مسرعاً للوصل إلى القدس للدفاع عنها في وجه تقدم اللنبي.

ولما ضغط على الزر، وقع انفجار هائل، فتحطمت القاطرة الأولى. ولكن لورانس وجد نفسه يحـيط بـه سـيل عرم من الشظايا فضلا عن الرصاص الذي كان ينهال عليه من كل جانب، وأسرع عـشرون مـن رجـال بنـي صخر لإنقاذه.

وعلى الرغم من أن سبعة منهم قد قتلوا برصاص الأتراك، إلاّ أن الباقين تمكنوا من سحبه إلـى نقطـة أمينـة. ولما تأكد للورانس أن قواته لا تستطيع مواجهة قوات جمال باشا، قرر الانسحاب مع من وقع مـن رجالـه فـي المعركة، بما فيهم فهد الذي كان قد أصيب بجرح بليغ في وجهه.

واذا عاد لورانس إلى خرائب الأزرق المعمورة بالجن، تردد في العودة إلى اللنبي، وأقر بفشله. وعلـى كـل، فقد حدث نفسه قائلاً بأن المطر قد أخذ ينهمر مدراراً، ولا بد أن يتوقف هجوم البريطانيين، وعلى هـذا، فإنـه إذا لم يكن ثمة من أمل في حدوث معركة في أية جبهة من الجبهات،، فلا أقل من أن يشغل نفسه في نـشر الرسـائل التي تدعو إلى الثورة بين القبائل البدوية.

والواقع أنه كان مخطئاً، كما أن تقديراته الخاطئة كادت أن تفسد ما بينه وبين اللنبي، إذ أن القائد العام كان فـي تلك الفترة بالذات يقوم بحركة بارعة حطمت الجبهة التركية، وفتحت أمامه الطريق إلى القدس.

وقد خدع الأتراك بهجوم مفتعل، فأوهمهم بأن القوات البريطانية محتشدة قرب غزة في الطرف الغربـي مـن الجبهة، ثم قام بهجومه الكبير على أضعف نقاط القوات التركية، فأخذها على حين غرة، وتمكنت قـوات المـشاة من البريطانيين من التقدم في فلسطين.

وقد ألبس "نيوكامب" نفسه ثوب فخار في هذه العملية، إذ أنه تمكن من إنشاء طريق تربط ما بين القـدس وبئـر السبع ومنع تعزيزات الإمداد من التقدم، لدعم القوات التركية. كما تمكن بالاشتراك مع حفنة من الجنـود، مـن الاحتفاظ بموقعه ذلك مدة يومين، رغم هجومات القوات التركية العنيفة، حتى وقع أسيراً بعد أن نفدت ذخيرته.

وطبيعي ألا يكون لورانس مطلعاً على مجريات الأحداث، وهو مقيم في مقره في الأزرق، يتلقى مكالمات هاتفية يومية ويستقبل وفوداً من شيوخ البدو المحليين وزعماء الدروز الذين كانوا يتوافدون من الصحراء والجبال السورية لاستطلاع أنباء الثورة العربية. وكان لورانس لفترة من الزمن مقتنعاً بالدور الذي يقوم به، والذي يتلخص في نشر الدعاية. وقد وجد بعد النشاط المحموم، والفشل المتواصل الذي مني به في الأسبوع الماضي، أن هذه الحياة الجديدة تناسبه وتريحه، فانغمس فيها، مستمتعاً برفقة علي - الذي كان بما يتمتع به من قوة بدنية وشجاعة، وبما يتصف به من كبرياء فطري، من الرفقاء الذي يستحب المرء معاشرتهم.

ولكن لورانس بعد أسبوعين، أدرك بأن اللنبي ربما كان محقاً في طلبه إحداث ثورة حول درعا، وكانت اتصالاته اليومية مع شيوخ القبائل السورية قد أكدت له من جديد، أنهم على استعداد للقيام بأي عمل إذا ما بدأ البريطانيون الزحف.

كذلك كان لورانس قد كسب تأييداً مهماً بانضمام "طلال الحرادين" إليه، وهو زعيم قبيلة عربية كبيرة تقطن على بعد أميال قليلة من درعا.

وكان طلال هذا رجلا خارجاً على القانون، وضعت السلطات التركية ثمناً لرأسه، نظراً لأنه قتل ثلاثة وعشرين تركياً بيده، كما أنه كان يعرف المنطقة أحسن من غيره.

وهكذا وجد لورانس أن الفرصة قد حانت له كي يعاود هجومه على منقطة درعا ويحظر لتقدم الجنرال اللنبي، ولنه ليس هناك أفضل من طلال هذا القيام بدور الدليل في هذه المرحلة من المعركة.

الفصل الثامن عشر

أسر وتعذيب

أخذ لورانس وطلال يستكشفان الوضع في منطقة درعا. وبعد أن قام بجولة في القرى المحيطة بدرعا، قرر لورانس أن يحتل درعا بنفسه، ولما كان طلال معروفاً تماماً في المنطقة، فقد قرر لورانس أن يقوم بهجومه بدونه، كيلا يكتشف أمره.

وما إن قطع صاحبنا بضع مئات من الياردات، حتى أوقفته دورية تركية، ولتهمته بأنه هارب من الجيش العثماني. ولقد حاول لورانس خداع الدورية بقوله إنه شركسي، وكان الشراكسة معفيين من الخدمة العسكرية، ولكن الجزيرة العربية الجاويش أجابه بقوله: " إن ناهي بك يريد مقابلتك ... تعال معي!.."

وعندما وصلوا إلى غرفة الحرس، أوضح ذلك الجاويش الغرض الذي يريد من أجله "ناهي بك" مقابلة لورانس، فقد أوضح له أنه إذا ما اثبت كونه شركسياً، فسيترك وشأنه، والا فسيرسل إلى أحد معسكرات الأتراك الخاصة بقوات المشاة.

ويؤخذ من مذكرات لورانس نفسه أنه قد سيق إلى بيت الحاكم، ثم أخذ مباشرة إلى غرفة نوم الحاكم. وهناك أمر بالجلوس على الأرض.

وتولى أربعة من الجنود الاتراك جلد لورانس حتى أغمي عليه، وكان إذا ما أفاق من إغمائه تولى جندي آخر جلده حتى يغمى عليه مرة أخرى وهكذا دواليك، وعندما سيق ثانية إلى "البيك" كان لحسن حظه رجلا غير

صالح للتشرف بمحادثة "البيك" بعد أن اتسخت ثيابه بالدماء التي نزفت منه، وكان هـم لـورانس الأكبـر وهـو يعاني ضرورة التعذيب ألا يظهر للعدو أنه بريطاني، فأقدم على عض شـفتيه، حتـى لا تـصدر عنهمـا أيـة أصوات، ولكنه عندما أحس بتزايد ألمه لم يسعه إلاّ أن يشكو باللغة العربية، وأخيراً لم يعد يحتمل العذاب فـصاح بالانكليزية قائلا: "ارحموا مرضي واجهزوا علي إن شئتم".

ولما انتهى الجنود من تعذيبه، سيق إلى غرفة مهجورة، حيّث وجد هناك ملابس للجنود الاتراك، فارتدى قـسماً منها وانتظر حتى الفجر، ثم هبط من النافذة إلى الشارع المهجور.

ولكن ما هي حقيقة ما حدث في درعا؟ هل هي تلك التي كتبها لورانس أو أنه أخفى الحقائق بدافع خجلـه مـن مواجهة الحقيقة؟ إن أحداً ممن أرخوا حياة لورانس لم يجب على هذا السؤال، بشكل مرضي.

لقد نشر كل من "لويل توماس" و"ب. هـ ليديل هارد" و"روبرت غرافس" و"ج. ب. فيلارز" ما دونـه لـورانس دون مناقشة، أما ريتشارد ألدنجتون" الذي لم يكن يصدق الرواية، ولا ما جاء في كتاب اعمدة الحكمـة الـسبعة من ادعاءات عن بطولات لورانس، فقد قال إن لورانس لم يقاوم في الواقع رغبة شاذة للضابط التركي، وأكد أنـه استسلم إليه مستشهداً برسالة كان لورانس قد بعث بها إلى السيدة "جورج برنارد شو".

لكن "الدنجتون" كان كعادته يضلل قراءه، إذ أن هذه الرسالة توضح بكل جلاء أن لورانس قد قاوم رغبة القائـد التركي في بادئ الأمر، ولكنه اضطر للاستسلام، لتفادي المزيد من التعذيب.

والانكليز يأملون ان يلد أحدهم ملكاً على كل حال. وثمة نظرية أخرى يسوقها "تيرينس راتيجـان" فـي روايـة ألفها عن حياة لورانس، أدعى فيها أن لورانس نفسه كان صاحب مزاج جنسي شاذ، وأن الأتراك كـانوا يعرفـون هذه الحقيقة عنه، واستناداً إلى هذه النظرية، قدّر الكاتب، أن الأتراك، أو بصورة أوضح حـاكم درعـا، عـرف الطريقة التي يستطيع بواسطتها تدمير لورانس، فدمره، ظناً منه بأن هذه التجربة الجنسية ستـضع حـداً لنـشاطه، وبالتالي تنهي دوره في الثورة العربية.

وبعد أن قضى الحاكم وطره من ممثل بريطانيا، أطلق سراحه ليعود إلى أصدقائه العرب.

وعلى الرغم من أن التقاليد العسكرية التركية، كانت تتعارض مع إطلاق سراحه، رغم الجـائزة التـي كانـت مدفوعة للحصول على رأسه، وهي تتراوح بين عشرة وعشرين ألف جنيه، إلاّ أن الضابط أوضح بكل جـلاء أن الثمن المدفوع لرأس لورانس سيتضاعف ولا شك إذا ما قتل معنوياً، ولكنه إذا ما أطلق سراحه بعـد أن هـدمت رجولته، فلن تكون لديه القوة أو حتى الرغبة في قيادة العرب في ثورتهم.

وليس من الضروري أن تكون كل هذه القصة صحيحة، بل لعل الأصح القول بأنها لا تستند إلى حقيقـة وإنمـا وضعت للتشنيع زوراً على الأتراك.

إذ أن لورانس سواء أكان أو لم يكن شاذا جنسياً فلم تكن هنالك أية دلائل على أن الأتـراك فـي درعـا كـانوا يعرفونه، ولا انهم اشتبهوا في أمره، فالشراكسة مثل الأوروبيين بيض البشرة وزرق العيون، وفضلاً عـن ذلـك فإن القائد لو تعرف على جنسيته لما كان من الممكن أن يسمح له بالمغادرة، ولو أنه عرف شخصيته لمـا ترفـع عن المكافأة المعروضة لمن يلقي القبض عليه، ولو أنه كان يعرف شخـصية سـجينه لـسمح لأحـد الخـصيان

الأتراك ـ على الأقل ـ بقبض الجائزة، ولو كان أحد من جنوده يعرف شخصية لورانس لوشى بقائده ولكان قـد أعدم نتيجة خيانته للقضية التركية.

والحقيقة هي انه ما من رواية من هذه الروايات مؤكدة، ولذا فقد ظلت حادثة درعا غامضة، ولعل هناك سـبباً بسيطاً يبرر ذلك، وهو أن لورانس لم يخبر أحداً طوال حياته بما جرى له في درعا، ولذلك فقد مات ودفن الـسر معه.

وسنحاول في فصل أخير من هذا الكتاب أن نميط اللثام عن هذه الخفايا، التي كانت من غير شك هـي الـسبب الرئيسي في ما قام به لورانس بعد الحرب، وبعد انتهاء حملة الصحراء.

أما في الوقت الحاضر فنكتفي بالقول إنه مهما كانت التجربة التي مر بها، ومهما كانت فظاعتها، فإنها لا ريب قد احدثت نقطة تحول روحية في حياته، تغير على إثرها، بحيث يمكن القول إنه انقلب إلى شخص آخـر. أقـسى وأعنف في معاملته ولأولئك الذين كانوا من حوله.

ولما عاد لورانس إلى الأزرق قرر بسرعة إلاّ يبقى هناك طويلا، وبعد أن ودع علياً اصـطحب أحـد رجـال حرسه، وتوجها عائدين إلى العقبة. ولقد كانت رحلة جنونية، فقد كان المطر والبـرد والـثلج تـصفعهم صـفعاً فتمزق وجهيهما وتشل أيديهما.

وكان لورانس قد أصابته حمى البرداء، وذلك كانت كل حركة من حركات جمله بمثابة عذاب له، ورغم ذلـك فقد كان رفيقه هو الذي تعب أولا، رغم أنه كان من اشجع وأقوى اتباع لورانس، والذي تجاهـل كـل التماسـاته للتوقف من أجل الراحة، وتابع السير.

وكتب لورانس يقول: "لقد وجدت نفسي أكاد انشطر إلى ثلاث شخصيات الأولى شخصية ذلـك الرجـل الـذي واصل السير بحكمة، موفراً على جمله المتعب كل خطوة ممكنة، والثانية شخصية الرجل الـذي لا يهمـه إلاّ أن يواصل السير مهما كانت النتائج، والثالثة شخصية الرجل المفكر الذي راح يتساءل عن السبب فـي بـذل هـذا المجهود كله، وعدم الاستراحة لفترة قصيرة من الوقت.

أما كون الشخصية الثانية هي التي كانت مسيطرة عليه، فهذا أمر لا ريب فيه، لأنه كـان يـرغم نفـسه علـى تحمل ما لاطاقة للبشر عليه، حتى لقد بدا وكأنه يستعذب تلك اللحظة التي يسقط فيها منهـوك القـوى ومـشلول التفكير.

وكان يعرف بأن تلك اللحظة لم تعد بعيدة، ومع ذلك صمم على الوصول إلى العقبة، قبل أن يـصيبه الانهيـار الذي كان لا مفر منه.

ولقد انهار لورانس بالفعل، فيما كان يهم بدخول المدينة عن طريق ذلك الوادي الذي قاد نهر الأردن ذات يـوم إلى البحر الأحمر، وكان ذلك في اليوم الثالث لمغادرته الأزرق.

وفي العقبة ابلغه "جويس" انباء نجاح اللنبي، وبعد خمسة أيام لم ينطق خلالها بكلمة واحـدة، اسـتدعي لمقابلـة القائد العام ليقدم تقريراً عن أعماله.

وما إن دخل مكتب اللنبي حتى بدأ يشرح له الوجه القاتم لاحتلال العقبة. ولكن كان من حسن حظـه أن اللنبـي كان مشغولا جداً بمتابعة حملته لاحتلال القدس، ولم يكن لديه متسع من الوقت للإصغاء إلى ما قاسـه لـورانس من مصاعب قد لا يكون لديه مجرد علم بها.

وكذلك كان اللنبي من الحكمة بحيث لم يلمه على الفشل الذي مني به في اليرموك. وهكذا فبلاد مـن أن يطـرد ضابطه الصغير ـ كما كان لورانس يتوقع ـ طلب إليه أن يبقى بالقرب منه، ولما سقطت القـدس فـي اليـوم التاسع من شهر كانون الاول، دعاه للاشتراك في الاحتفال بدخول القوات البريطانية، رغم أنه ـ كمـا اعتـرف لورانس ـ "لم يفعل أي شئ لتحقيق هذا الانتصار".

الفصل التاسع عشر

معركة في الطفيلة

بعد أن عاد لورانس إلى مقر القيادة، إثر انتهاء الاحتفالات بدخول القوات البريطانيـة مدينـة القـدس، درس الخطط التالية مع اللنبي وأركان حربه. وكم كان سروره غامراً عندما اكتشف أن القائد العام لمي فقد الأمل فـي الثورة العربية، بل على العكس من ذلك كان متخماً بالآراء حول الطرق التـي بواسـطتها يـستطيع فيـصل أن يساعده في تقدمه.

وتقرر أن يتحرك العرب نحو البحر الميت بأسرع وقت ممكن ليوقفوا مرور المؤن إلى القوات التركيـة فـي أريحا، التي ستكون هدف اللنبي التالي، والذي سيسعى لتحقيقه في شهر شباط.

فكان عليهم والحالة هذه أن يتقدموا نحو الطرف الشمالي من البحر الميت ليلتقوا بالقوات البريطانية عنـد نهـر الأردن في شهر آذار. وكان فيصل قد أعد العدة للتحرك نحو الطفيلة التي تقع قرب الزاوية الجنوبيـة الـشرقية للبحر الميت، ولذا كان من الواضح أن خططهم، لا بدّ وأن تلتقي وتنفّذ.

وبعد أن قضى لورانس اجازة اسبوع في القاهرة، عاد إلى العقبة ليجد المدينة تعج بالنشاط مرة أخـرى. فقـد تلقى الكابتن "بيساني Baisani" قائد الفرقة الصومالية التابعة للجيش الفرنسي إمـدادات هائلـة، بينهـا بنـادق جديدة، ومدافع سريعة الطلقات وأسلحة أوتوماتيكية، وكان الجنود في شغل شاغل بانزال السيارات المصفحة مـن طراز "تالبوت" و"رولزرويس" و"فورد" وكذلك السيارات ناقلات الجنود.

كما وجد أن الجنود الثلاثة آلاف النظاميين في جيش فيصل قد دربوا على يدي جعفر ونـوري الـسعيد، حتـى أصبحوا يشكلون وحدة مقاتلة فعّالة. وكذلك تمكن مولود، على الرغم من البرد الشديد، أن يطرد الأتـراك مـن "أبي لسان" واصبحت قواته تهدد "معان". كما أن خط سكة حديد الحجاز، كان علـى الـدوام عرضـة لغـارات القوات العربية.

هذا وقرر لورانس و"جويس" أن يجربا السيارات المصفحة الجديدة في الغارة على المدورة ـ على أن ترافـق الحملة التي كان يجري إعدادها للتوجه إلى البحر الميت، وغالباً ما كانت تلك السيارات تقل الجنود البريطـانيين، وبينهم شخص يدعى "رولز" هو الذي كتب وصفاً للدور الذي اشترك به مع لورانس فـي الاغـارة التـي تمـت بالسيارات المصفحة.

ولم يكن هو وحده الذي اعترف للورانس بالسرعة، سواء أكان يستخدم الإبل أو الدراجات النارية أو السيارات أو المراكب، فقد كانت السرعة هي "مرضه" كما قال "رونالد ستورز"، حتى لقد بات شأنه شأن الكثيرين لفرط ما عاناه من إرهاق.

وكان لورانس يسرع بسيارته عبر البيوت الطينية الواقعة ما بين "الغويرة" و"المدورة" بمعدل ستين أو سبعين ميلاً في الساعة.

كما كان هو ورجاله يسرون لهذه الحرية في التنقل بسرعة، وبدلا من أن ينسفوا خط السكة الحديدية، تحت أحد القطارات، قرروا مهاجمة معقلين من معاقل الأعداء، ليروا كيف يمكن للسيارات أن تتحرك في مثل هذه المعركة المكشوفة.

وعلى الرغم من أن الغارة أسفرت عن نتائج ليست ذات أهمية كبرى، إذا ما استثنينا اصابة القوات التركية بالفزع، إلاّ أنها أثبتت أمراً هاماً واحداً، وهو أنه سيكون بإمكانهم، بمساعدة سرعة وحماية السيارات المصفحة، أن يشنوا هجومهم على السكة الحديدية، وعلى مراكز الحراسة الموضوعة عليها.

ومهما يكن من أمر، فقد كان هنالك درس آخر تعلمه لورانس قبل اثني عشر شهراً من بدء معركة الحجاز، إلاّ أنه ظل عاجزاً عن اقناع رؤسائه البريطانيين به، ألا وهو أن البدو لا يصلحون للقتال إلاّ في حرب العصابات، ولانهم تبعاً لذلك غير صالحين للحرب طبقاً للوسائل الأوروبية.

وقد وافقه اللنبي على هذه الفكرة في النهاية، ولكنه لم يكن مقتنعاً بها في أوائل عام ١٩١٨.

كان الجنرال اللنبي من كبار المؤمنين بسرعة التحرك، إلاّ أنه رغم إيمانه الشديد بهذه النظرية العسكرية، لم يستطع إلاّ أن يتبع هجوماً يعتمد على تشكيلات فأرسل الجنرال البريطاني "داوني" إلى العقبة، ليعلم جيش الأمير خطته الجديدة.

ولما فشل لورانس في منع تحقيق هذه الخطة، عن طريق ارسال المبعوثين إلى القيادة العامة، أو عن طريق جمع تأييد الضباط العرب النظاميين الذين تلقوا تدريبهم العسكري في الجيش التركي، والذين كانوا هم أنفسهم أشد معارضة من لورانس لخطة اللنبي - لم يسعه إلاّ أني زيد عد رجال حرسه، حتى بلغ عددهم تسعين رجلا اختارهم من بين رجال العصابات السابقين الذين صقلتهم الخبرة، وتعلموا فنون القتال في الصحراء، اشتهروا بشجاعتهم المطلقة واخلاصهم التام.

ولقد قدر أنه بقوة من هذا العدد يستطيع دائماً أن يعمل مستقلاً متى أراد. وكذلك اعترف لورانس بحاجته إلى مثل هذه الحماية، بعد أنر فع الأتراك الثمن الذي دفعوه لاعتقاله حياً إلى عشرين ألف جنيه، وميتاً إلى عشرة آلاف.

ولكن الضباط الانكليز في العقبة لم يوافقوا على تأليف فرقة الحرس هذه وأطلقوا عليها اسم حزازي الحلاقيم" فكان لورانس يجب على ذلك بقوله: "انهم لا يحزون الحلاقيم إلاّ بأمر مني".

ثم ان العرب كانوا يشتعلون حماسة في هذه المرحلة بالذات، وكان بإمكان القائد الذي يستطيع أن يكيف نفسه وفقاً لمشاعرهم، ويحيط نفسه بمثل هذا العدد من رجال الحرس المزودين بالأسلحة الحديثة، ويرتدي أفخر الثياب، أن يعتبر قائداً عظيماً حقاً.

ولم يتوقف أولئك العرب ليفكروا بأن اموال التي تدفع لهم لم تكن من لورانس، بل من الذهب الذي كان فيـصل يتلقاه من البريطانيين، وأن الأسلحة قد استعيرت بوساطة لورانس من الجـيش البريطـاني، وأن الجمـال التـي يمتطونها هي ملك لفيصل، وأن الملابس التي توزع عليهم ليست إلاّ حصيلة ما استولوا عليه مـن غنـائم أثنـاء غاراتهم التي شنوها على جيرانهم من البدو.

وحوالي منتصف شهر كانون الثاني، كانت كل الترتيبات قد اتخذت لاحتلال الطفيلة، البوابـة المفـضية إلـى البحر الميت. وكانت الخطة تقضي بمهاجمة المدينة من ثلاث جهات، هي الشرق والجنوب والغرب.

وكانت القوات التي ستهاجم من الشرق تحت قيادة الشريف ناصر، على أن يكون ن وري السعيد مسؤولاً عـن المدافع.

وقد اقتربت هذه القوة من هدفها عن طريق "الجرف" وهي محطة لسكة حديد الحجاز، ان تم الاسـتيلاء عليهـا أمكن قطع الطريق على تدفق الامدادات التركية، سواء من معان في الجنوب أو من عمان في الـشمال ـ كـيلا تدعم القوات المدافعة عن الطفيلة.

وقد سقطت الجرف بكل سهولة أمام قذائف مدفعية نور السعيد وناصر، وانضم اليهما وقتذاك الشيخ عودة.

ومن ثم تقدموا نحو الطفيلة. ولما وصلوا إلى هناك قبل يوم من موعد وصول القوات الأخرى مـن الجنـوب، وجدوا القرية بحراسة مائة وثمانين جندياً تركياً فقط يضاف اليهم بعض القرويين المسلحين.

وكان القرويون في حالة خصام مع قبيلة بدوية مجاورة أعلنت ولاءها لفيصل، فأطلق أفرادهم النار على قـوات ناصر التي كانت تتقدم الجمع، الأمر الذي أثار غضب عودة ـ لأنه كان يعتبر نفـسه سـيدهم ـ فأسـرع إلـى مدخل القرية وقصف بقنابله الحامية التركية التي أخذت على حين غرة.

وكان يصيح: "أيها الكلاب... ألا تعرفون عودة"؟... وكان قوله هذا كافياً بالنسبة للقرويين وللأتراك، وما هـي إلاّ ساعة حتى كان ناصر يشرب الشاي مع الحاكم التركي، مخالفاً بذلك تقاليد الحرب التي كانت تتبعهـا قـوات الشريف مع أسراها.

وفي مساء ذلك اليوم بالذات، وصل الأمير زيد، أصغر أبناء الشريف حسين، الذي كان فيصل قد عينـه قائـداً للحملة المتقدمة نحو البحر الميت. وقد وصل الطفيلة برفقة جعفر ولورانس.

ولقد أحدث وصولهم حالة غريبة، إذ تبين أن اثنين من حاشية زيد قد قتلا بيد ان عـودة. ولمـا احتـدم الجـدل بينهم حول الثأر، ثار الرجل العجوز، وبصق عليهم، وهددهم بجلدهم في ساحة السوق إذا ما تمادوا في مثل هـذا الحديث، ولما أبدى زيد تساهلا في الأمر، أمر عودة وجماعته من المحاربين بالعودة إلى الصحراء، الأمر الـذي أضعف قوته، وثبت فيما بعد أنه كان خطراً جداً.

وهكذا بقي زيد للدفاع عن الطفيلة مع مائة من الهجانة ورجال حرس لورانس وفـصيلة مـن حملـة المـدافع السريعة الطلقات مؤلفة من جنود مصريين ومغاربة.

ولم يعد بمقدور مدفعية نوري السعيد أن تعبر ممرات جبال مؤاب المغطاة بالثلوج، ولذلك تخلف هو والشريف ناصر للدفاع عن "الجرف".

وكانت هذه الحامية قليلة العدد بشكل مخيف فيما لو فكر الأتراك في استعادة الطفيلة بأية قوة، مهما كان عـدد أفرادها. ومع ذلك فقد صممت على أمل أن يسعفها الحظ، فيتحسن الطقس، حتى تتمكن الامدادات من الوصـول إليها.

ولكن هذا الأمل لم يتحقق، ففي الخامس والعشرين من شهر كانون الثاني، أي بعد انقضاء تـسعة أيـام علـى احتلال الطفيلة، عاد الأتراك لاسترداد المدينة، ومعهم ثلاث فرق من المشاة، وتسعمائة من الخيالـة ومائـة مـن الفرسان ومدفعان جبليان، وسبعة وعشرون مدفعاً سريع الطلقات، ونظراً لأن العرب أخذوا علـى حـين غـرة، وفوجئوا بهجوم الأتراك، فقد تركوا القرية في حالة من الفوضى، وخشي معظم سكان القرية انتقام الأتراك لأنهم استسلموا دون أن يطلقوا طلقة واحدة على عودة وناصر، فهربوا إلى التلال.

واقترح زيد وجعفر أن تنسحب القوات العربية من القرية. على أن تدافع عن نفسها من واد يقع إلـى الجنـوب من القرية لكن لورانس عارض ذلك معارضة شديدة، نظراً لأن الوادي لم يكن بالمكان الدفاعي الصالح، ثم إنهـم إذا تركوا الطفيلة، فسيلتقون بأولئك القرويين الشجعان الذين ظلوا معهم، والذين يمكنهم استخدامهم كمـدافعين لا يشق لهم غبار... لكن زيداً كان هو القائد، فأصر على اعطاء الأوامر للقوات بالانسحاب.

لم يكن زيد بحاجة إلى طويل وقت ليدرك خطل رأيه، لأنه قبل بضع دقائق من هجـوم الأتـراك، تخلـى عـن قيادته، فأسرع لورانس يضع الترتيبات اللازمة للدفاع عن القرية، مستعيناً بمن تبقى لديـه مـن قـوات قليلـة، وقرويين مسلحين.

وقد نظمهم في المرتفعات المشرفة على الطفيلة، بينما أوفد أحد رجال حرسه ويدعى "عبد الله" برفقة اثنين مـن حملة المدافع السريعة الطلقات، ليحولوا انتباه القوات التركية، يومذاك فتح الأتراك نيرانهم مـستعينين بالمـدافع الجبلية، وبينما كانت هذه المناورة تأخذ مكانها وتملأ التلال بشظايا القنابل، استطاع العرب الانـسحاب مـن تـل إلى آخر تاركين العدو يتقدم. وفي تلك الأثناء وصلت قوة عربية قوامها مائتان من القرويين المـسلحين، ومائـة من البدو، جاؤوا من معسكر قريب.

وكان ذلك هو بالضبط ما يريده لورانس، فقد كانت خطته أن يدع الأتراك يتقدمون حتى منطقـة الـتلال، ثـم يهاجم جناحي قولتهم، مستخدماً كل بندقية يملكها. وبوصول هذه التعزيزات أصبح لديه العدد الكافي من القـوات لشن هجوم من ثلاث نواح، دون أن يضطر إلى سحب قولته المدافعة عن الطفيلة، من أجل إحكام الطـوق الـذي نصبه للأتراك.

وتسلل رجال القبائل بصمت، وفتحوا نيرانهم على حملة البنادق السريعة الطلقات في القوات التركيـة، بعـد أن اقتربوا منهم إلى مسافة مائة ياردة، فأبادوهم عن بكرة أبيهم. وقام عدد من العرب من الناحية الثانيـة بمهاجمـة المدفعية التركية، وتمكنوا من تشتيتها وتحطيم مدافعها.

ولما رأى الأتراك ما حل بزملائهم في الميمنة والميسرة، هربوا في حالة من الفوضى لا توصف، تغلي الدماء في عروقهم للنصر الذي أحرزه العرب، كما أن القرويين الشركس ساعدوا بما لديهم من اتمام نصر العرب.

ولما توقف إطلاق النار أحصى العرب عدد أسراهم وغنائمهم التي تضمنت خمسين أسيراً، وكل مدفع أحضره الأتراك معهم.

ولم يعد من الألف ومائة تركي الذين شنوا الهجوم، غير مائتين على قيد الحياة بعد أن هربوا عبر الجبـال إلـى مقر قيادتهم.

أما الباقي من القوات التركية ممن لم يقتل في المعركة، فقد مات متأثراً بجراحه، أو طعناً بالمدى فيمـا كـانوا يحاولون الهرب.

وكانت تلك المعركة معركة مرموقة، انتصر فيها لورانس، وفيها أثبت قدرته وشجاعته، وإن كان هـو بالـذات لم يشأ أن يعتبرها كذلك. ولذلك جاء تقريره إلى القيادة، حاشداً بالنكات... حتى "لقد ظـن رجـال القيـادة أننـي مجرد مهرج وليس بالمحارب".

وهكذا كانت معركة الطفيلة هي المعركة الثانية التي يخوضها لورانس دون استعداد. وقد علـق علـى نتـائج المعركة بقوله: "لقد أسفت لوقوع سدس قواتي في هذه المعركة التي لا تستحق كل هذه التضحيات". ومـع ذلـك فإنه يمكن القول بأن تلك المعركة قد ساعدت لورانس على قطع خطوط مواصلات الاتراك عبر البحـر الميـت إلى قواته في أريحا.

الفصل العشرون

محاولة اعتزال

استطاع لورانس في الثامن والعشرين من شهر كانون الثاني سنة ١٩١٨، أي قبل أسبوعين من الموعد المحـدد عند اللنبي لقطع مواصلات الأتراك إلى البحر الميت بهجوم مباغت، أن يقطع الطريق على العدو، رغم أنه شـن ذلك الهجوم برفقة سبعين خيالا وسار ليلا عن طريق الكرك، البلدة التـي كـان الأتـراك يـستخدمونها لطحـن الحبوب التي يجمعونها من الحقول الخصبة المحيطة بها.

وكانت قد بلغته بعض معلومات ومفادها أن قافلة من المراكب التركية المقلة للمواد الغذائية تنـوي مغـادرة المنطقة في غد إلى منطقة أريحا، تحت حراسة قارب مسلح.

وقبل أن تنبلج أولى تباشير الفجر، كان العرب قد زحفوا إلى شاطئ البحر، ونزلوا في المياه، قبـل أن يـتمكن الملاحون الأتراك من تمالك روعهم. ولما أخذوا على حين غرة، لم يبد الأتراك مقاومـة تـذكر، ومـا هـي إلاّ دقائق قليلة حتى كانت العملية كلها قد انتهت. يومذاك أحرق لورانس مخازن المؤن بعـد أن اسـتولى جماعتـه على محتوياتها، كما جروا المراكب إلى البحر وأغرقوها. ولم يتكبد العرب أية خـسائر، بينمـا أسـروا سـتين تركياً، وعادوا إلى أماكنهم في الطفيلة يهنئ بعضهم بعضاً على ما أحرزوه من نصر سهل، ولعلهـم فـي تلـك الغارة قد حققوا أول انتصار بحري بواسطة المشاة!.

ونفذ لورانس أول مهمتين من المهمات الثلاث التي اتفق مع اللنبي على تنفيذها، وبقيت المهمة الثالثـة، وهـي الاتصال بالقوات البريطانية عند نهر الأردن، إلى الشمال من البحر الميت، في شهر آذار.

ولكن ما أن أهل شهر شباط، حتى بدا أن إمكانيات تحقيق هذه المهمة قد تعـذرت، لأن الطقـس كـان يـسوء باستمرار، وأصبح السير بما معه من جمال، وسط الثلوج، وعبر جبال مؤاب التي تقع بـين الطفيلـة والـشمال،

ضرباً من الجنون. فاذا لم تهلك الجمال من التعب، عرضتهم كهدف سهل لبضعة جنود من الأتراك وهم يرتقـون تلك الجبال الشاهقة المغطاة بالثلوج.

وفي الوقت ذاته، كان البقاء في الطفيلة لا يستحق المغامرة، فالمغريات للبقاء لم تكن تعادل أخطار المجازفـة، وكان البرد في ذلك المكان الذي يرتفع خمسة آلاف قدم عن سطح البحر قارصاً، وكان الوقود نادراً، وظـروف المعيشة قاسية.

هذا زيادة إلى ان نقود زيد كانت قد نفذت، لأنه وزع معظم الذهب الذي كان مقـرراً صـرفه علـى تنظـيم المسيرة إلى نهر الأردن، على الأعراب مكافأة لما بذلوه في معركة الطفيلة. وانتهزها لورانس فرصـة ليهـرب من هذه الأحوال القاسية فاحتج بأنه سيعود ليحضر المزيد من المؤن.

وكان الوقت أوائل شهر شباط، وثمة عاصفة تهب بعنف عندما تحرك إلى الجنوب. وكانـت الرحلـة صـعبة والجمال وراكبوها غير معتادين على السفر في مثل هذا الطقس، غير أن لورانس ـ كعادته ـ اندفع على جملـة ومعه رجال حرسه بأقصى سرعتهم حتى لم يعد للحيوانات المسكينة من طاقة على المشي بله الجري.

وبعد ظهر اليوم الثاني، وصلوا "قذرين ومنهكين يرتجفون برداً وكأنهم هررة". وفي "الغـويرة" كانـت قيـادة وحدة السيارات البريطانية المصفحة، ومقر ضابط الاتصال بالأمير فيصل.

ووجد لورانس هناك "دوناي" و"جويس" يعتريهما الوجوم، فقد حاول فيصل قبل أسبوعين أن يحتـل "المـدورة" بقوة مختلطة من رجال القبائل وأربع فرق من الجنود العرب النظاميين المزودين بمـدافع "بيزانـي" الفرنـسية، ولكنه مني بهزيمة منكرة.

فقد حدث، كما هي عادة رجال القبائل، أنهم تخلوا عن القتال عندما فشل أول هجوم شـنوه لزحزحـة الأتـراك عن مراكزهم، كما حدث أن نقل "بيزاني" مدافعه فاقترب بها أكثر مما يجب، ولم يـستطع إلاّ أن يتركهـا إثـر الانسحاب.

وقل استقبل لورانس هذه الأنباء بشيء من التفلسف قائلا إلى الهزيمة من شأنها أن تعلم فيصل في المـستقبل أن يتبع نصائحه.

ثم أن لورانس عقد مؤتمراً قصيراً مع فيصل، عاد بعده إلى الطفيلة وفي جعبته ما يعادل ثلاثـين ألـف جنيـه ذهباً. ولم تكن العودة بأفضل من مقدمه، بل لعلها كانت أسوأ، لأنه كان عليهم أن يتحملوا وطأة الريـاح الثلجيـة والمطر الغزير المصحوب بالبرد من الحجم الكبير.

التي كانت كلها مجتمعة تكاد تقضي عليه وعلى رفيقيه من قبيلة عتيبة وهم يصعدون فـي الطرقـات الـوعرة الممتدة إلى الجنوب من البحر الميت. وقد مروا في نقطة ما فوق "أبي لسان" بجماعة من رجال مولود يعيـشون في جحور حفروها في الصخور، وراحوا يراقبون تحركات الأتراك على خط سكة حديـد الحجـاز، وكـانوا لا يملكون وقوداً إلاّ بعض الحطب المبتل، ويرتجفون في ملابسهم الخاكية الصيفية، بعد أن فقدوا أكثر من نـصف قوتهم من جراء البرد والإجهاد.

ورغم ذلك ظلوا يراقبون الأتراك وتحركاتهم التي كثيراً ما كانت تصبح على مرمى بنادقهم.

وقد سر لورانس كثيراً من شجاعتهم، حتى لقد قال: "إننا مدينون كثيراً لهم، ومدينون أكثر إلـى مولـود الـذي يرجع إليه الفضل في تثبيت رجاله في مراكزهم، لما عرف عنه من أخلاق عربية ووطنيـة.." لقـد كانـت لـه شخصية قوية، مكنته من السيطرة على رجاله، كما كان قوي البنية حتى لقد استطاع أن يمـضي ثلاثـة فـصول شتاء بالقرب من معان، مع رجاله الذين يبلغ عددهم خمسمائة محارب، كل واحد منهم على استعداد لافتدائه".

وقرر لورانس ألا يكون أقل جلداً من مولود، فدفع جمله المثقل بأحماله وتحمل تجمـد أطرافـه وسـار عبـر الجبال.

وحدث ذات مرة أنه كاد يغرق في جدول نصف متجمد، ثم وقع جمله في ممر مغطى بالثلوج، ولم ينهض مـن سقطته تلك إلاّ بعد كثير من التهديد والوعيد، وأخيراً اقتنع الحيوان المسكين بأن من الخير له أن يواصـل رحلتـه إلى الطفيلة، حيّث سلم ما يحمله من كنوز إلى زيد، وسط كثير من تهليل رجال الأمير الذين أمضوا عدة أسـابيع دون رواتب ودون وسائل راحة.

وبعد أن طلب إلى الأمير، إثر دفع رواتب الجنود، أن يحتفظ بما تبقى معه من ذهـب لينفـق فـي العمليـات القادمة، ألقى لورانس بجسده المنهك طلباً للراحة.

وما إن بلغ الأرض حتى سمع صوتاً يقول له بالانكليزية: "هل لك أن تأخذ بطانيتي؟ إنـك تبـدو علـى وشـك التجمد". وكان المتحدث هو الملازم "كير كبرايد" من ضباط سلاح الهندسة الملكي، ـ وقـد أصـبح ذات يـوم سفيراً لبريطانياً لدى الأردن ـ وكان قد أُرسل من قبل القيادة العامة لدراسة إمكانات إنشاء طريق من بئر الـسبع عبر الممرات الجبلية المؤدية إلى الطفيلة، وهو مشروع اقتنع بأنه غير عملي.

وكان "كير كبرايد" شاباً في العشرين من عمره، يتقن التحدث باللغة العربية، كما يتقن أعمال النسف. ولما كـان شاباً ومتحمساً فقد رأى لورانس أنه سيقدم له المساعدة اللازمة، فقال له: "إننـي سـأطلب نقلـك إلـى قـوتي". وتصافح الرجلان، وبدءا صداقة جديدة استمرت حتى دخول دمشق، وأنقذت حياة لورانس في أكثر من مناسبة.

وفي اليوم التالي، توجه لورانس مع "كير كبرايد" وأفراد حرسه لاستكشاف الطريق إلـى نهـر الأردن. كـان الثلج قد بدأ يذوب، وبات من الممكن أن يحفظ موعده مع اللنبي، في شهر آذار، أو قبل أسبوعين من الموعد.

وقد أثبتت عمليات الاستكشاف أن كل شئ على ما يرام. لذا كتب لورانس يقول: "كانت كل خطوة من طريقنـا سهلة وتقودنا إلى حيّث تنضم إلى القوات البريطانية". وهكذا عاد إلى زيد بروح مرتفعـة، لكنـه مـا إن شـرح خطته في الزحف حتى قاطعه الأمير قائلا: "إن الرحلة تحتاج إلى كميات كثيرة من الأموال"!

وأجابه لورانس بقوله: "كلا... ليس ضرورياً على الإطلاق، إن الأموال لمتوفرة ستغطي نفقات الرحلـة، بـل وتزيد على متطلباتها"!

وانزوى زيد في مقعده الكبير، بينما بدأت الوساوس تنتاب لورانس، أو سأله كم تبقى لديه مـن الـذهب الـذي أحضره من "الغويرة"... فتطلع زيد إلى الأرض بخجل وقال: "لم يبق منه شئ... لقد أنفقته على التعويض مجـدداً على شيخ الطفيلة والقرويين ورجال القبائل". واعترض لورانس: "ولكنك تعرف بأن العـادة أن تـدفع رواتـب أفراد القبائل عندما يقومون بعمل ما، وليس أثناء استراحتهم في فصل الشتاء".

فقال زيد: "ورغم ذلك... لقد دفعت لهم أجورهم".

كانت هذه الأقوال آخر دليل على أن العرب لن يتصلوا بقوات اللنبي في شهر آذار، لأن من المستحيل القيام بالزحف دون مال. وكذلك كان من الصعب الطلب إلى القيادة العامة أن تتحمل ما هو فوق طاقتها من جراء إسراف زيد. وبينما كان لورانس يفكر في هذه المعضلة، دون أن يجد لها حلا، وصل "جويس" على غير انتظار من "الغويرة" وعرض أن يعود إلى فيصل ويسأله المساعدة.

غير أن زيداً لم يكن متحمساً للفكرة، كما أن لورانس كان قد صمم على العودة إلى القيادة ليسألها قرضاً جديداً.

وإنه لمن الصعب على المرء أن يقول كم كان هذا التراجع صعباً! وليس من شك في أن لورانس كان قد ضاق ذرعاً بتصرفات زيد الذي كان ضعيفاً وعنيداً، وأبدى حماقة منذ اللحظة الأولى التي سلم فيها قيادة حملة البحر الميت.

والواقع أن لورانس كان قد سئم تولي القيادة، حتى لقد أخبر اللنبي في مقر قيادته في بئر السبع بأنه لم يعد راغباً في إعطاء أية أوامر، وأنه يريد منصباً يستطيع عن طريقه أن يتلقى أمراً، لا أن يصدر أمراً.

غير أن الذي خفف عن لورانس ما يشعر به من ضيق، كان ما سمعه من أخبار في القيادة العامة، فقد علم بأن اللنبي احتل أريحا، وأخذ يعد العدة للهجوم النهائي على سوريا. وكان الجنرال جان سمطس... قد جاء مندوباً عن وزارة الحربية البريطانية في لندن، لبحث على ضرورة إخراج تركيا من حومة الحرب بأقرب وقت ممكن، وذلك من أجل تحرير ما أمكن من القوات البريطانية للاشتراك في الجبهة الغربية، في فرنسا والفلاندرز.

وقد أبلغ اللنبي مرؤوسه لورانس، بأنه ما زال يتطلع إلى مساعدة أصدقائه العرب في هذا الهجوم الأخير على دمشق، وأن هذا الظرف ليس بالظرف المناسب لإضعاف معنويات الجيش العربي، وذلك عن طريق سحب الثقة في مقدرته وقيادته.

كان ذلك، على ما يبدو، كافياً بالنسبة إلى لورانس، وبعد أن قدم شروحه واعتذاراته، قدم مضحياً بنفسه، وأصبح بمستطاعه أن يعود الآن لحث فيصل على أن الضربة النهائية يمكن أن تقوم بها القوات العربية، ويجب على هذه القوات أن تصل إلى دمشق قبل أية قوات أخرى. وفي الرابع عشر من شهر آذار سنة ١٩١٨ عاد لورانس إلى العقبة.

الفصل الحادي والعشرون

تقدم وانسحاب

كانت خطة العمل الجديدة تقضي ـ كما رسمها اللنبي ـ بشن هجوم عبر نهر الأردن من بلدة أريحا، في الخامس من شهر أيار، وذلك بقصد التفريق بين الجيوش التركية التي تدافع عن الخط الواقع بين يافا وشمالي البحر الميت، واحتلال مدينة السلط وتقع على بعد عشرين ميلا إلى الغرب من عمان، وكذلك، من أجل الهجوم الأخير، وتدمير خط السكة الحديدية جنوبي عمان. وكان دور القوات العربية في هذه الخطة احتلال بلدة معان، ومن ثم الالتقاء بالقوات الانكليزية في نقطة تقع شمالي أريحا.

وأختير لورانس ليحمل الأخبار السارة إلى فيصل، والتي تشمل الوعد بتسليمه مبلغ ثلاثمائة ألـف جنيـه ذهبـاً، ليشتري بها ما أمكنه شراؤه من تموينات محلية متوفرة، وسبعمائة جمل بالإضافة إلى الأسلحة.

وتدعم الفرح لهذا العرض الذي قدمه اللنبي، والذي في غمرته، نسيت هزيمة العرب فـي الطفيلـة، إذ تخلـى عنها زيد للأتراك، بعد أن شنوا عليها هجوماً معاكساً. وقد أعرب فيصل عن مخاوفه بـأن إعـادة احتلالهـا قـد يتمخض عن تدمير سمعته.

وانتهز لورانس الفرصة ليلقي على الأمير محاضرة قاسية حول عدم أهلية شقيقه الـصغير ومـسؤوليته فـي تأخير التقدم. ثم عاد الاثنان دون مزيد من المهاترات للإهتمام بأعمال المستقبل.

وقد وضعوا ترتيبات احتلال معان بالاشتراك مع "جويس" وفيصل. وبموجب هذه الترتيبات كان علـى جعفـر ونوري السعيد أن يهاجما بمساندة الجنود العرب النظاميين، وكان على "جويس" و"دوناي" أن يقطعا خـط الـسكة الحديدية عند "المدورة".

ولكن قبل ذلك كان عليهما أن يمنعا تقدم الأتراك من المدينة أما لورانس فكان عليـه أن يحـرض قبيلـة بنـي صخر في منطقة عمان.

وما إن فعل حتى وردته أنباء عن احتلال السلط، وبلغته كذلك الأوامر بأن، يهاجم الأتـراك المتـراجعين مـن الخلف.

وكانت الخطة لاحتلال معان تقضي بوضع القوات العربية على امتداد خط السكة الحديدية إلى الشمال، لقطـع الطريق أمام وصول أية إمدادات إلى المدينة بأي شكل كان، وكذلك التموينات، ومن ثـم إجبـار العـدو علـى الانسحاب إلى مكان مكشوف. غير أنه ما إن سمع مولود وضباط الجنود العرب النظاميين هذه التعليمات، حتـى عارضوها بشدة، وأصر مولود على القيام بهجوم مباشر. وقد استمر النقاش حول هذه المسألة عدة أيام، وأخيـراً تولى فيصل أضعف جوانب المسألة وسمح لمولود بأن يختار الطريق التي يريدها، لأن الأمر قد أصبح موضـوع كرامة بالنسبة للمحارب القديم وجماعته من الضباط.

ولقد قبل لورانس بهذا القرار على مضض رغم خلوه من الحكمة، ورغم ما أظهره فيصل من ضـعف أمـام مولود، وتوجه في أول شهر نيسان إلى "عطارة" ليقيم فيها مقر قيادته. وهذه القرية تعتبـر مركـز قبيلـة بنـي صخر، وتقع إلى الجنوب الشرقي من عمان، حيّث كان كل من مفلح وفهد ينتظرانه هناك.

وأثناء الطريق تلقى نبأ يفيد أن داود، أحد رجال حرسه، قد توفي من تأثير البرد في الأزرق، حيّـث أقـام مـع الشيخ علي بعد حادث درعا. وقد تأثر لورانس كثيراً لهذه الفجيعة، ولو على الأقل مشاركة منـه لـصديق داود، وحبيبه المخلص فرّاج، الذي أصيب بضرب من الذهول أفقده القدرة على القيام بواجباته، وكانـت جمـلة. ولـم يستطع لورانس أن ينهي هذا الوضع الشاذ إلاّ بعد انقضاء فترة من الوقت.

وحدثت المفاجأة بعد أسابيع قليلة، فبعد وصولهم إلى "العطارة" وردتهم أنباء تفيد أن الانكليز قد احتلـوا، لـيس السلط فحسب بل وعمّان أيضاً، فأمر لورانس بتتبع فلول قوات العدو المتقهقر، ولكنه ما إن شرع بهجومه حتـى وصلته أنباء تقول بأن الأتراك قد استعادوا المدينتين، وأنهم أخذوا يطاردون قـوات اللنبـي عبـر وادي الأردن، وأن جمال باشا قد يعود إلى القدس خلال بضعة أيام.

وفي الوقت ذاته، ولكي يزداد رعب القوات العربية، انتشرت شائعات عن دفع الأتراك جوائز ضخمة لكل مـن يدل على أولئك الذين تمكنوا من مساعدة القوات البريطانية في هجومها على السلط.

والظاهر أن لورانس لم تخفه التجربة التي مر بها في درعا لأنه قرر الذهاب بنفسه لاستقصاء الحقائق، فـدخل عمان مع فراج، وهما متنكران في زي امرأتين بدويتين. وسرعان ما اكتـشف أن الأتـراك يـسيطرون علـى المدينة. ولم يمضيا في المدينة مدة طويلة، حتى اعترضتهما جماعة من الجنود الأتراك، الذين حاولوا إقناعهمـا بإمضاء الليلة مع بعض الضباط الأتراك، حيّث ستنالان مبلغاً لا بأس به، وكان ذلك خدعة كما يبدو أو شـكاً مـن الجنود بالبدويين البيضاوين على الأقل.

ولم يكن هنالك أية بادرة توحي بقرب تقدم القوات البريطانية، ولا أية بوادر تـشير إلـى أن القـوات التركيـة مستعدة للتقهقر، أو أن القوات العربية مستعدة لتحدي انذارات الأتراك. لذلك لم يجد لورانس أمامه سوى الهرب والانسحاب إلى مقر قيادة فيصل، حيّث ينتظر هجوم اللنبي من جديد.

وحدث أثناء عودته مع رجال حرسه، أن التقوا بدورية من الجنود الاتراك، ولقد أراد العرب ن يفتحـوا النـار على الاتراك، ولكن لورانس فكر في أنه قد يكون من الأفيد لهم ألا يضيعوا ذخيرتهم على مثـل هـذه الجماعـة القليلة.

وفجأة، وفيما هو يشرح خطته لمح فراج يندفع إلى أمام، مخالفاً تعليمات رئيسه، وما لبث الجميع أن لحقوا بـه، ولكن فراج كان يتقدمهم معرضاً نفسه هدفاً سهلا لبنادق الأتراك. وقد اخترقت الرصاصة الأولى جسده ممزقـة معدته، فانفجر منها سيل من الدماء، قبل أن يلحق به أفراد جماعته.

وفيما كان هؤلاء يفكرون فيما إذا كان من الممكن انقاذه، وكيف، بلغهم نبأ مفاده أن دورية من الجنود الاتـراك تقترب من مكانهم، وأن عدد أفراد الدورية يزيد على خمسين نفراً، وانهم يتقدمون علـى امتـداد خـط الـسكة الحديدية.

وهنا قرر لورانس في غمرة غضبه أن يفعل كل شئ إلاّ أن يسمح بوقوع فراج في أيـدي القـوات التركيـة، وتحمل التعذيب الذي كان الأتراك يقومون به تجاه الأسرة من القوات العربية.

وكان من المعروف عن الاتراك أنهم يحرقون الخونة وهم أحياء. وكان لورانس قد اتفق مع رجالـه علـى أن يجهز أي منهم على أي شخص يسقط جريحاً. وقد وصف لورانس آخر لحظات فراج بقوله:

"لقد ركعت إلى جانبه، حاملا مسدسي، مصوباً إياه إلى رأسه، بحيث لا يرى ما أقـصد إليـه، وإن كـان مـن المؤكد أنه حرز قصدي، لأنه فتح عينيه ولمسني بيده المرتعشة الناحلة التي يتميز بها أهـالي نجـد، وانتظـرت لحظة فقال:" إن داود سيغضب منك" وعادت الابتسامة إلى ذلك الوجه المتجهم، فأجبته: سـلم لـي عليـه. وفـي النهاية أغمض عينيه ومات.

وقد وجد لورانس في مقر قيادة فيصل بالقرب من معان أن اللنبي قد فشل بالفعل بالاحتفاظ بمدينة الـسلط، وأن العرب، كما كان يتوقع، لم يتمكنوا من احتلال معان، فقد ثبت أن مدافع نوري السعيد غير قـادرة علـى تـدمير المدينة، كما أن مولود قد جرح، وأخذ عودة يتخاصم مع كل انسان، بما في ذلك فيصل ونوري، وكـان يتهمهمـا

بأنهما يصران على اتباع تكتيك حربي لا يناسب رجال القبائل، وهو اتهام كان نوري يرد لعيه بـألا فائـدة مـن قبيلة الحويطات.

وقد قاد نوري جماعة إلى محطة سكة الحديد في معان، ولكنه أخطر فاضطر للانسحاب عندما نفذت الـذخيرة من المدافع التي كانت تحت إمرة "بيزلني". وكان النجاح الوحيد الذي استطاعوا تحقيقه هو قطع الـسكة الحديديـة على أمل استحالة إصلاحها، في نقطة تبعد عشرة أميال إلى الجنوب من المدينة.

وكإجراء حسن، قام "دوناي" بغارة على "المدورة" برفقة لورانس واثنين من الـضباط البريطـانيين، كانـا قـد وصلا حديثاً، أحدهما "هو رنبي" الخبير بالمتفجرات و"بيك" الذي قدّر له أن ينشئ فيمـا بعـد "الجـيش العربـي" الغارة ناجحة، إذ أن المحطة قد دمرت بشكل يفوق مقدرة فخري باشا على اصلاحها من جديد.

على أن كل ما حققه قطع السكة الحديدية، لا يعدو محاصرة الأتراك في مراكزهم القوية في المدينـة ومعـان وعمان، دون أن يساعد فيصل على التقدم بامتداد الجناح الأيمن للحلفاء. ومرة أخرى خشي لـورانس أن فـشل الجنود العرب في تنفيذ خطة متفق عليها، سيعرضهم إلى غضب القائد العام، ومرة أخرى كـذلك أسـرع يقـدم اعتذاراته ويشرح أسباب ذلك التخلف إلى اللنبي.

وقد استقبلته لدى وصوله إلى القدس أنباء تفيد بأن البريطانيين قد أعادوا احتلال السلط، وشكراً للمساعدة التـي قدمتها قبيلة بني صخر، وخاصة شيوخها الذين قدموا سراً إلى أريحا ليعرضوا خدماتهم الممثلة في عشرين ألفـاً من رجال القبائل، عرضوا اشراكهم في الهجوم التالي الذي سيقوم به الانكليز.

ولم يستطع لورانس أن يصدق ما سمعه، فقد كان يسوءه أن يحقق الانكليز دورهم، بينما يعجـز العـرب عـن تحقيق دورهم. وكذلك فقد كانت إعادة احتلال المدينة، بمساعدة القبيلة التي كان من المفـروض أن يجنـدها هـو إهانة لكبريائه ومركزه.

ثم كان هنالك وجه آخر غير سار في القضية، ويتلخص في أن القاهرة قد عينت ضابطاً بريطانياً جديـداً يـدعى "يونغ" ليعمل مساعداً للورانس في مهمة ضابط الاتصال بقوات الشريف. وكان "يونـغ" هـذا مستـشرقاً يجيـد التحدث بالعربية، وجندياً مخلصاً، ولكن لورانس كرهه ولم يثق به منذ اللحظة الأولى التي وصل فيها، ظنـاً منـه بأنه إنما أرسل ليبلغ القيادة عن اتصالاته وأعماله.

ولما كان لورانس يود التخلص منه بأسرع وقت ممكن فقد أرسله ليدافع عن مركز مراقبة يقـع بـين معـان وعمان، أي في ذات المنطقة التي كانت قبيلة بني صخر تقيم فيها، وهناك أبلغ بوصفه من ضـباط قيـادة اللنبـي بأن البريطانيين قد جندوا أفراد القبيلة لمساعدتهم على استرداد السلط.

وكان ذلك كثيراً بالنسبة لاعتداد لورانس بنفسه، ويجب الاعتراف بأن الرجل قد ارتاح كثيراً، عندما سـمع بعـد ساعات قليلة بأن الهجوم قد فشل، وأن الانكليز اضطروا مرة أخرى للانسحاب، نظراً ن افراد قبيلة بنـي صـخر فشلوا في المحافظة على تعهداتهم.

وانتهز لورانس الفرصة، وأوحى إلى أركان حرب اللنبي، بأنه يستحين في المستقبل استشارته قبل الإقدام علـى أمر يتعلق بالعرب. وحدث انسحاب انكليزي آخر، علم البريطانيين أن "يصبرا أكثر" على مشاكل فيـصل، كمـا

أنه، أعطاه الفرصة لرفع اللوم عن العرب، كما اصبح بامكانهم القول بأن "عناد اللنبي قد تمخض عـن إرغامنـا على البقاء محاصرين في معان".

وعلى كل، فقد كان هناك قليل من الشك في أن لورانس قد تصرف، بدافع من غـضبه، تـصرفاً أهـوج، فـي زيارته تلك لمقر القيادة العامة، إذ كان في جميع مناقشاته يتحدث بلهجة من هو أكثر معرفة من سواه.

والواقع أنه كان باستطاعته آنذاك أن يدعي بأنه يعمل منفرداً في تحقيق عملية باسلة وناجحة، ولكنـه فـي هـذه المرة تصرف كطفل فاسد، إذ راح يبرر الفشل الذي تم على يديه، ويقلل من قيمة النجاحات التي حققها زمـلاؤه البريطانيون.

أما كيف أمكن اللنبي أن يحتمل هذا التصرف الأهوج، فأمر يمكن أن يرد ولا ريب إلى ما لدى هذا القائد العام من صبر وتفهم للطبائع الإنسانية، فقد كان لديه ما يكفيه للتفكير بما يثقله من مشاكل، وليس مـن حاجـة لتحمـل هذا الموقف الحرج، إذ طلبت إليه وزارة الحربية الامبراطورية أن ينتهي مع الأتراك بأسرع ما يمكن.

وفي الوقت ذاته كانت الوزارة الحربية في لندن تلح عليه بتوفير ما أمكنه من الجنود لدعم جبهة أوروبا.

ولكن الجنود الهنود الذين وعد بارسالهم إليه من جبهة العراق لم يكونوا قد وصـولا، ليحلـوا محـل القـوات البريطانية التي كان من المقرر أن يستغنى عنها لتدعيم الجبهة الأوروبية.

ولما كان اللنبي مضطراً للانتظار وتأخير هجومه فقد كان كل ما بوسعه أن يفعل، هو أن يأمل فـي الاحتفـاظ بمراكزه، والا يقوم الأتراك بهجوم معاكس، وبقوة تفوق قوة الانكليز.

ثم جاء لورانس ليضع على رأس هذه المشاكل مشكلة أخرى تتلخص في طلبه إلى القيادة العامة القيام بغـارات جوية، على معان وعمان، وعلى خط سكة حديد الحجاز، لتكفيك تماسك الأتراك واجبارهم علـى الخـروج إلـى ميدان المعركة بشكل مكشوف.

واستدعى اللنبي الجنرال المسؤول "سالموند" الذي كان يقود القوات الجوية، واتفق معـه علـى القيـام بتلـك الغارات. وهنا طلب لورانس أن يعطي الجمال الالفين التابعة لقوة الهجانة الامبراطورية، وكان قـد تقـرر حـل تلك الفرقة، باستثناء فصيلة واحدة تبقى تحت قيادة كولونيل المشاة "بوكستون".

واستدعى اللنبي الضابط المسؤول عن الممتلكات وسأل لورانس أمامه عن السبب الذي يريد مـن أجلـه هـذه الحيوانات.

وقد أجاب لورانس دون أن يضيع لحظة في التردد، "لكي أضع تحت تصرفكم وفي أية لحظة الفي رجـل فـي درعا، بل وفي اليوم الذي تحددونه. وابتسم اللنبي وهز رأسه للضابط وقال موجهاً حديثـه لـه: "لقـد خـسرت الرهان يا سيدي".

وقد يتراءى للمرء أن لورانس، أو أي شخص في مكانه في تلك اللحظة بالذات سيكون قـادراً علـى اعطـاء الأمر، رغم أنه كان يحادث قائده العام، نظراً لما كان يتمتع به من شخصية قوية.

ولكن الحقيقة هي أن اللنبي كان يثق ثقة عمياء بهذا الضابط الشاب، بل ربما كانت ثقته به تفوق ثقـة لـورانس بنفسه.

واعترافاً بحكمته في القيادة الحربية كتب الجنرال اللنبي يقول: "لقد كانت تحـت إمرتـي ... ولكننـي بعـد أن أطلعنه على خطتي العامة، اطلقت يده... وكان تعاونه يتميز بالإخلاص المطلق، حتى لم يكن لدي ما أقوله فيمـا يفعله، غير الإطراء والثناء، ذلك لأن ما كان يفعله كان له أكبر الأثر في نجاح الحملة".

ولو أن الجنرال اللنبي لم يكتشف هذه الخصائص في لورانس، لكان هذا قد انتهى بعد أول فشل صادفه، وذلـك لكثرة ما كان له من أعداء في القيادة العامة وفي القاهرة، وما كان في مقدوره أن يمضي قدماً لولا تأييد القائـد العام.

وقد أدرك لورانس إدراكاً تاماً مدى الدّين الذي يثقل كاهله بالنسبة للقائد العام.

وعلى الرغم من أنه كان مشغولا في استلام ما يستطيع استلامه من القيادة العامة، من ذهب ومؤن، فقد أسـرع بالعودة إلى فيصل ليبلغه انباء انتصاراته، وليعلن إليه بأنه لن يكون مضطراً في المستقبل، لتنفيـذ الخطـط التـي يرسمها الأمير، ما لم تحظ بموافقته.

الفصل الثاني والعشرون

نبذ فيصل

كان أحر استقبال لاقاه لورانس ـ هو ذلك الاستقبال الذي قوبل به لدى عودته إلى معسكر فيصل الـذي سـر كثيراً عند سماعه نبأ حصوله على الألفي جمل. وقد بلغ من شدة سروره أنه عجز عن الكلام لفترة من الزمن.

ولكنه ما لبث أن قفز واقفاً وراح يقبل لورانس، ثم أخذ يصفق بيديه فأسرع إليه خدمه، فأمرهم باستدعاء عـودة وزعل وفهد وغيرهم من الشيوخ الذين يتولون قيادة جيشه.

ولما اجتمعوا كلهم قال لهم: "إن الله قد بعث الينا بهدية من شأنها أن تحمل العرب الآن على السير قـدماً نحـو النصر، دون أن يهددهم أحد، ومن ثم فسينالون حريتهم". وشكروا لورانس بحرارة وهنأوه على نجاحه البارع.

ثم انقلب الشيوخ إلى مجادلة بعضهم بعضاً حول أفضل الطرق التي يمكنهم بها استخدام هذه القـوة الإضـافية التي أرسلها إليهم الله!.

وأسرع لورانس ليبلغ "جويس" تلك الأخبار الطيبة، إذ كانت تلك اللحظة هـي اللحظـة الحاسـمة، لأن وسـائل النصر كانت واضحة أمامه. فهو قد أصبح، وبعد طول انتظار، يملك المفاتيح التي ستفتح له بوابات دمشق.

ولقد أحس بأن الآلام التي عاناها خلال السنتين الماضيتين قد ولت، وأنها كانت تستحق أن يعاني ما عـانى مـن أجلها بعد أن أصبح متأكداً من حصوله على النصر المؤزر في النهاية، فعرش سوريا أصبح جاهزاً للملك الـذي سيتربع عليه، وأصبح "صانع الملوك" مستعداً لتقديم الملك ليستلم العرش.

ولذا فقد وقف لورانس وسط الشيوخ الذين كانوا يضحكون بسرور طاغ، مستمتعاً بما اسـتطاع تحقيقـه حتـى الآن للأمير.

وقد أصبح متأكداً من حصوله على الجائزة القيمة التي سيقدمها له هذا الأمير المعطاء. ولكي يتأكد أكثر مـن صدق تخميناته قال لفيصل، إن لحظة النصر ستعني لحظة تسريحه من الخدمة، الأمـر الـذي اعتـرض عليـه

فيصل، كما كان لورانس يأمل ويتوقع، وأسرع يقول: " يجب أن تبقى معنا دائماً... وليس حتى دمشق، فقط، كما وعدتك في أم لحج". والواقع أن لورانس كان في ذلك الوقت هو القوة الكامنة وراء عرش شبه الجزيرة العربية.

غير أن إشراقة شمس هذه اللحظة البطولية، سرعان ما اختفت، بل وبأسرع مما بزغت فيها.

وكما يكون الحلم أحياناً زاخراً بالآمال، فإن الأشباح السوداء سرعان ما تشوبه، حتى يصبح كابوساً. إذ أنه لم يمض أكثر من شهر، حتى وجد لورانس أن كل شئ جاهد من أجله قد أخذ يتلاشى تدريجياً، إذ بلغه بأنه لن تكون هناك شبه جزيرة عربية حرة ومتحدة، لأن العرب كانوا مختلفين فيما بينهم، ولان فيصل أضعف من أن يوحدهم أو يبعث فيهم الحياة. وكان لورانس حتى تلك اللحظة يرفض الإذعان لكل ما كان بادياً له من إشارات، وواصل سعيه رغم علمه بأن الحلفاء يتآمرون لجعل شبه الجزيرة العربية مستعمرة لهم، اعتقاداً منه - بل لعل من الأصح القول إنه أجبر نفسه على الاعتقاد بأن العرب سيظهرون قوتهم، ويرغمون بذلك البريطانيين على تنفيذ ما بذلوه لحسين من وعود، بعد أن يتم طرد الأتراك من بلادهم.

لقد كان يغضب... ولكنه ما كان ليعارض أو يعترض، عندما كان العرب يظهرونه بمظهر الفاشل، وعندما يعللون عدم تحقيقهم للانتصارات بسبب نقص الرجال والأسلحة والجمال. ولكنه كان يكتشف كل أسبوع أنه مرد عدم إقدام العرب على الحرب بحماسة، يعود إلى قلة الثقة في قلوب آل الشريف الحسين، وليس لقلة الامكانيات الحربية.

وقد هبط الوحي على لورانس في منتصف شهر حزيران، بعد أن عاد هو وناصر وعودة من شن غارة على خط حديد الحجاز لمنع الأتراك من إرسال أية إمدادات إلى حاميتهم المحاصرة في معان، بعد أن وردت الأنباء تفيد بأن القوات التركية تتجمع في عمان.

وكانوا على الرغم من تعرضهم لقنابل الطائرات التركية قد تمكنوا من تحقيق مهمتهم، فنسفوا مسافة أربعة أميال من خطة السكة الحديدية، بالإضافة إلى ثلاثة جسور وبعض بنايات المحطة في "الحسا" التي تبعد مسافة ستين ميلا عن معان، ومحطة أخرى تقع إلى الشماء من "الحسا".

وقد شرح لورانس أمر العملية للأمير فيصل بقوله: "إن هذه العملية تعني تجميد القوات التركية في مركزها قرب عمان مدة لا تقل عن شهر، وربما امتدت إلى ثلاثة أشهر، وخلال هذه الفترة ستصل الإبل الجديدة وستكومن جاهزة للعمل".

وكان على اللنبي أن يؤخر هجومه حتى شهر تشرين الأول لأنه لم يكن يملك العدد الكافي من القوات، واذا ما كان العرب على استعداد للهجوم منفردين في شهر أيلول، عندما تصل الإبل، فستكون أمامهم كل فرصة لاحتلال دمشق وحدهم.

واقترح لورانس على فيصل أن يطلب إلى ابيه الحسين نقل وحداته النظامية لتلتحق بقوات فيصل، كي تشترك تحت قيادة عبد الله وعلي وفيصل في هذا الهجوم العربي. ولو جاءت هذه الوحدات لرفعت عدد قوات فيصل النظامية إلى عشرة آلاف مقاتل، وهذه يمكن تقسيمها إلى ثلاثة أقسام، القسم الأول للدفاع عن معان، والثاني ليقوم بالهجوم في قطاع درعا - دمشق، أما الثالث فلكي يلحق بقوات اللنبي في أريحا.

فالهجوم على قطاع درعا - دمشق سيضطر الأتراك إلى سحب فيلق من فلسطين، وبذلك يمكن مساعدة اللنبـي لدعم هجوم العرب، كما أنه يعني أن العرب سيدخلون دمشق في ذات الوقت الذي تتقدم فيه القوات البريطانيـة، وهكذا يكون بامكانهم الاستفادة من الدعم البريطاني، بدلا من أن يعرقل تقدمهم.

ووافق فيصل فوراً على هذه الخطة، وبعث بالرسائل الضرورية إلى والده في مكة. ثم طلـب لـورانس إلـى "وينغات" الذي خلف مكماهون في القاهرة، أن يضيف رسالة أخرى إلى مجموعة الرسائل هذه، يؤكد فيها علـى الشريف حسين بأن البريطانيين يؤيدون مطالب فيصل الخاصة بدعمه بالقوات النظامية، وأن الشريف حـسين لـن يكون مسروراً إذا ما رفض طلباً يدعمه الضابط البريطاني للمدفوعات.

وقد تم له ما أراد، وإن كان لورانس يقول: ان لهجة رسالة المندوب السامي البريطاني "وينغـات" كانـت أشـد كثيراً مما ينبغي. وبعدها ذهب لورانس إلى مقر القيادة العامة ليبلغ اللنبي آخر التطورات.

وابتسم القائد العام وأبلغه بأنه جاء متأخراً، فالقوات الهندية أخذت تصل، كما أن اللنبـي قـرّر تقـديم موعـد هجومه العام إلى أيلول، قبل وصول لورانس بثلاثة أيام، وعلى هذا فإن الجيوش العربية لن تهـاجم منفـردة بـل جنباً إلى جنب مع حلفائها البريطانيين.

وقد تقبل لورانس الأمر على علاته، وإن كان قد تألم لتأكده من أن العرب لـن يتمكنـوا مـن لعـب دورهـم منفردين.

ثم نزلت الضربة الفعلية. فبعد أن حصل على تأييد اللنبي على خطته بفعل الوحدات النظاميـة التابعـة لقيـادة علي وعبد الله إلى قوات فيصل، ذهب إلى جدة ليقابل الشريف حسين.

ولكن الشريف لم يعر قدومه أي اهتمام، واحتج بحلول شهر رمضان ولجأ إلى مكة للتعبد، حيّث لا يجوز لغيـر المسلمين أن يدخلوا تلك المدينة. وقد اتصل به لورانس هاتفياً من جدة ليحاول حمله على اتخـاذ قـرار، ولكـن الشريف رفض أن يقيد نفسه بوعدٍ ما.

والواقع أن الشريف حسين كان يحسد ابنه فيصل على ما حققه من انتـصارات وراح يـشك فـي تقربـه مـن البريطانيين، وعلى هذا الأساس أوضح أمراً واحداً، هو أنه لن يرفع إصبعاً فـي سـبيل مـساعدة فيـصل علـى احتلال دمشق، ولنه يكرس كل قواه لرفع مستوى كل من علي وعبد الله اللذين اعلن أ،هما على التـوالي وريثـا عرش الحجاز وعرش سوريا. أما فيصل ومستشاره الانكليزي فقد كانا يتبعان سياسة تخالف رغباته، ولذلك فهـو لن يشارك بها.

ولكن الشريف حسين بدافع من حسده وشكه ارتكب حماقة كبرى، إذ أنه لم يـدرك أن سياسـته التـي يتبعهـا ستلقيه في أيدي الفرنسيين الذين كانوا رغم شكه في البريطانيين شكاً عميق الجذور - يعتزمون ضم سوريا ومـا يمكنهم ضمه من البلاد العربية إلى منطقة نفوذهم بعد تحرير شبه الجزيرة العربية.

والواقع إن شكوك لورانس في ذلك اليوم القاتم الذي قضاه في جدة، كانت تعبيراً عن شكوك الـشريف حـسين، تلك الشكوك التي أحيى بها الفرنسيون بما قدموه من دسائس وأكاذيب لاقت قبولا لديه. ألم يكـن "بريمونـد" هـو الذي حرض عبد الله على الوقوف ضد البريطانيين؟ ثم... ألم يكن غريباً بينما كان فيصل بعيداً أن يقوم عبـد الله

بتسميم أفكار والده عليه وعلى حلفائه البريطانيين، مستخدماً الشائعات عن الـصفقة الانكلـو ـ فرنـسية حـول اقتسام شبه الجزيرة العربية، من أجل زيادة غضبه؟.

ومع ذلك، فإن ما هو أسوأ كان سيتبع كل ما حصل، إذ أن شكوك الشريف حسين في ابنه فيـصل قـد انقلبـت إلى اتهام مباشر بعد شهرين فقط من تلك الحادثة، بل وتعدت تلك الشكوك الأمير فيصل إلى قواته.

وحصل في أحد أيام شهر آب أن تلقى الأمير فيصل برقية من مكة فيها نبأ تعيين جعفر باشا قائداً عاماً للجـيش العربي الشمالي، وهو لقب لا يمكن أن يحمله غير الأمير فيصل ذاته.

ولما لم يشأ جعفر أن يقحم نفسه في مثل هذه الخلافات العائلية، فقد أبرق إلى مكة عارضا اسـتقالته، غيـر أن فيصل رفض ارسال البرقية، وبعث ببرقية إلى والده يحتج فيها عليه لمحاولته انتزاع القيادة منه لمجرد حـسد لا مبرر له ولمجرد شبهات لا أساس لها تحوم ضده وضد قواده في الحملة على سوريا.

وتلقى فيصل برقية جوابية تصفه بأنه خائن وخارج على القانون، وعنـدها عـرض فيـصل اسـتقالته فقبلهـا الشريف، وعين زيداً مكانه غير أن ابنه الأصغر رفض قبول المنصب رفضاً باتاً.

وكان من الواجب إملاء الفراغ بأسرع وقت ممكن، لأنه لم يبق على هجوم العرب سوى بضعة أسابيع، وكـان على الجنرال اللنبي أن يقرر، بل وطلب إليه أن يتدخل وقرر، ما إذا كان يجـب علـى فيـصل أن يـستمر فـي منصبه رغم إرادة والده، أم انه يجب أن يعلن استقلاله عن مكة.

ومضت عدة أيام حافلة بالقلق، كان كل شخص ينتظر خلالها، وقام اللنبي بضغط على الشريف حـسين ليقنعـه باعادة تعيين الأمير فيصل، غير أن خطوط اللاسلكي من المدينة المقدسة كانت تحمل رسائل تزيد من الاتهامـات الموجهة إلى فيصل. ولكن لورانس نجح في تخفيف محتوياتها قبل أن يعرضها على فيصل، وذلك فـي محاولـة منه لتخفيف حدّة الخلاف. وخلال ذلك حدث تمرد في صفوف القوات العربية النظامية التي تناهت إليها شـائعات الأزمة، الأمر الذي فسر انسحاب فيصل ولو بشكل مؤقت، من ميدان توزيع الأموال. غير ان هذا التمرد امكـن السيطرة عليه بعد أن قام لورانس بتقديم الأمير لقواته وتذكيرهم بأن وجوههم ميممة شطر دمشق، وليست شـطر مكّة.

وأخيراً أقنع الشريف حسين بسحب إرادته غير العادلة، ولكنه لم يستطع، في البرقية التي حملت نبأ عدوله عـن عزل فيصل، إلاّ أن يكرر اتهاماته له ولكل من يؤازره من الأشراف.

ومرة أخرى تمكن لورانس من تخفيف لهجة البرقية قبل أن يسلمها إلى فيصل الذي صرح بـأن "البرقيـة قـد انقذت شرفه"، ثم همس في اذن لورانس قائلا: "إنني أعني شرفنا جميعاً".

وهكذا انتهى الحادث بضحكة... ولكن ما كانت تخفيه من نذير كان واضحاً، فإن وحدة شبه الجزيـرة العربيـة التي عمل كل من لورانس وفيصل على تحقيقها بمختلف الطرق وبمنتهى الحذر، وبكـل الوسـائل الدبلوماسـية الممكنة، وأعدّا لها الخطط ورسما المشاريع ـ قد بدأت تنهار، وفي اللحظة ذاتها التي كان يترتـب فيهـا علـى جيوش الشريف أن تشن هجومها على دمشق وتحرر سوريا، حتى يكون فيصل الأولى بالعرش.

وفي تلك اللحظة بالذات كانت الحركة العربية بأسرها مهددة بخطر الانقسام بدوافع الحسد والغيرة.

ولقد عاد لورانس إلى القاهرة رجلاً محطماً، قد انقلبت حماسته إلى يأس، كما أن شعوره بمسؤوليته وأطماعـه الشخصية قد اضمحلت حتى غدت كنقطة في بحر!

الفصل الثالث والعشرون

تحليلات شخصية

لما عاد لورانس إلى القيادة العامة، القى بنفسه في خضم العمل من أجل إعـداد الترتيبـات اللازمـة للحملـة الأنكلو ـ عربية المشتركة على دمشق. وكان ذلك يتضمن إعداد خطط مخاتلـة، تـوحي للأتـراك بـأن هنـاك تجمعات هائلة من السيارات والخيام والطائرات، سيستخدمها اللنبي في إعادة الهجوم على الـسلط وعمـان، فـي الوقت الذي تكون فيه القوات البريطانية زاحفة باتجاه الشاطئ في حركة التفاف سريعة.

وكان على القوات العربية أن تساعد في إبقاء الأتراك يتوقعون حدوث المعركة في قطاع عمّـان ووادي نهـر الأردن، مع قيام حركة تمرد في درعا "النقطة الحسّاسة بالنسبة للجيوش التركيـة" وهـدف القـوات البريطانيـة الرئيسي.

ونظراً لأن قوات فيصل لن تكون على أهبة الاستعداد حتى شهر أيلول، فقد اتفق على أن ترسل فرقة الهجانـة بقيادة الكولونيل "بوكستون" للقيام بسلسلة من الغارات على خط سكة حديد الحجاز، من "المدوّرة" حتى عمان.

وكان المأمول أن تساعد هذه العمليات في إبقاء الضغط على الأتراك، بينما تيسر للقوة العربيـة الـضاربة أن تتمركز في الأزرق، استعداداً للزحف على درعا.

وبعد أن قاد لورانس رجال "بوكستون" حتى وادي "رم" لتلقينهم الطرق والعادات التي تتبعها القبائـل العربيـة، تلك الطرق والعادات التي ينتظر أن يلاقوها اثناء هذه الحملة، أسرع إلى مقر قيادة فيصل في سهل "الجفر" الـذي يقع إلى الشمال الشرقي من معان.

وقد وجد لورانس المكان يعج بالنشاط، ذلك النشاط الذي يسبق الزحف في العادة. وكان مقر قيادة فيصل كـذلك يتميز بالتوتر الذي نجم عن زيارة "نوري الشعلان" الذي جاء في النهاية ليعرض تأييد قبيلة "الرولا".

وأخذ لورانس بهذا الهرج والمرج، ولكنه لم يستطع أن يقاوم رغبته في خوض الحـديث عـن الحريـة، ذلـك الحديث الذي كان يملأ خيام الأمير فيصل. وعلى الرغم من أن لورانس كان يعرف بأن مستقبله النهائي مـرتبط بمستقبل قضية العرب، إلاّ أنه كان يشعر في قرارة نفسه بأنه ينبغي عليه أن يشعر بنوع مـن التبكيـت وتأنيـب الضمير.

حتى لقد كتب يقول: "عندما أتحدث عن الشرف، أشعر وكأنني قد فقدته قبل سـنة، عنـدما أكـدت للعـرب ان انكلترا ستحافظ على كلمتها".

ولكن لورانس بدافع من حقده، وشعوره بالخيانة للقضية التي كرّس نفسه من أجلها، وما كان ينتابه من نـوازع الشك في مقدرة العرب على التغلب على دوافع خيانة قضية الحلفاء بأسرها، راح يستمع إلـى تقـارير فيـصل يومياً، وكأنه يستمع إلى رواية.

ولم يمض طويل حتى كان أحد الأشخاص الرئيسيين في الميدان، وإن كان دوره لا يعدو المراقبـة والانتظـار، بينما يقوم الممثلون بتمثيل أدوارهم على المسرح حتى نهاية المأساة.

وفي تلك الأثناء، انصرفت شكوك لورانس التي كانت تعذب دماغه إلى جهة أخرى، فقد وصل "دوناي" يحمـل أنباء سارة عن نجاح "جويس" في احتلال "المدورة" كما يحمل إنذاراً إلى فيصل بـالا يـستعجل الهجـوم علـى دمشق، إلاّ عندما يتأكد من أن الانكليز قد اخترقوا خطوط الاتراك الدفاعية.

وقد أجاب فيصل مبتسماً بأنه "سيحاول الهجوم خلال الخريف على دمشق، حتى ولـو سـقطت الـسماء علـى الأرض، وحتى لو لم يكن الانكليز على استعداد لتحمل قسطهم في ذلك الهجوم، بل حتى لو اضطر إلـى انقـاذ شعبه عن طريق عقد صلح مع الاتراك".

وكان لورانس يعلم منذ مدة بأن الأمير فيصل كان يكاتب جمال باشا، ولكنه اعتبر ـ بطريقته البيزنطيـة ـ أن تبادل الرسائل بين الطرفين مجرد محاولة لتقسيم صفوف الأتراك، على اعتبار أن قسماً من أركان حرب جمـال باشا كان يعارض في التحالف مع الألمان ـ وهذا يمثل القسم المتعـصب للإسـلام ـ ويعـارض فـي اتخـاذ إجراءات انتقامية ضدّ الحجاز، كيلا تمتدّ المقاومة للحكم التركي إلى أجزاء أخرى من الامبراطورية العثمانية.

وكانت الاتصالات قد بدأت بعيد فشل اللنبي في احتلال السلط، وعندما جاء شقيق عبد القادر، المـدعو محمـد سعيد كمبعوث من قبل جمال باشا، ليجس نبض الأمير فيصل حول امكانية عقد مفاوضات للتسوية.

وكان جمال باشا يدرك بأن ورقته الرابحة هي اتفاقية "سايكس ـ بيكو"، ولذلك فقد دعا بـشدة إلـى ضـرورة تحالف المسلمين واتحادهم معاً، حتى يتمكنوا من إبعاد الغربيين الكفرة.

ولكن فيصل اعاد ذلك الرسول ليبلغ جمال باشا بأنه مستعد لوقف القتال "إذا ما اخلى الأتراك عمـان وسـلموا اقليمها لإدارة عربية".

وكاد جمال باشا أن يشنق محمد سعيد لفشله في الوصول إلى احسن من هذا الحل، ومنذ ذلك الوقـت اسـتمرت الرسائل بين الجانبين. وعلى الرغم من انتظامها إلاّ أن فيصل كان لا يرد بشيء إيجابي ويكتفي بأجوبـة غامـضة على كل طلب تركي.

ولكن لورانس حذره عن حكمة، بوجود الاتفاق الانكلو ـ فرنس، وناطه قد اعتقد بأنـه أقنعـه بـأن مـصلحته تقضي بألا يعقد معاهدة صلح مع الأتراك بل أن يثبت ولاءه للانكليز الذين لا يمكن أبـداً ـ ويـا للعـار ـ أن يتنكروا للوعود التي قطعوها لوالده. والآن.

وعلى الرغم من أن هذا الاعتقاد كان يهتز بشدة لدى فيصل، والشخص الذي اختاره ليجعل منه ملكاً يهدد بعقد صلح مع الأعداء فقد حس لورانس بأن الكابوس يقترب.

ولم يعد قادراً على الجزم ـ وحده ـ بمن يثق وبمن يضع عليه اللوم لتلك الخيانـة والخـداع، اللـذين كـان يمارسهما، واللذين أصبحا عبئاً ثقيلاً على ضميره.

ولكي يريح دماغه، قرر لورانس أن يتوجه برفقة "جويس" وفرقة من الـسيارات المـصفحة ليعيـد اسـتطلاع منطقة الأزرق، حيّث كان من المقرر أن تحتشد قوات فيصل استعداداً للهجوم النهائي.

ولقد وجد لورانس في هذه الرحلة عزاء بين الجنود البسطاء لفرقة السيارات المصفحة أثر على تطـوير آخـر اثنتي عشرة سنة من حياته. وكان لورانس عندما يتحدث إلى من هم في مثل رتبته أو أعلى مـن رتبتـه، يتحـدث بلهجة لا تخلو من هياج، أما عندما كان يتحدث إلى من هم دونه رتبة، فقد كان يتحدث بلطف، على الـرغم مـن أن أولئك الذين قابلهم اثناء الحرب لا يملكون عشر ما يملكه من معرفة وثقافة.

وذلك لأنه بين اولئك الجنود كان لا يحس بضرورة اظهار نفوذه حتى يظهر في المركز الأعلى، وحتى يتغلـب على الشعور بالنقص الذي لازمه منذ ولادته. وكان يجد بين هؤلاء الناس، سـواء أكـانوا عربـاً أم بريطـانيين راحة نفسية، لم يضعفها كون الرياح تجري بعكس ما كان يتمنى، والتي كانت تضاعف من شعوره بالنقص فـي كونه رجلاً كبقية الرجال.

وكان يجد في تلك الحالة النفسية مهرباً من حقيقته، ومن المسؤولية التي بات يؤمن بأنه لـم يعـد قـادراً علـى تحملها أكثر مما تحملها.

غير أن أحداً ما كان ليعر ما يعتمل في صدر لورانس من مشاعر متناقضة، فقد غدا عبء المسؤولية الملقـاة على عاتقه فجأة غير محتمل، لاسيما بعد أن أصبح حلمه الخاص الذي كان يأمل في تحقيقه يتلاشى.

وقد احتمل كل عذاب وألم جسديين، كما احتمل بالإضافة إلى ذلك كل ضروب العذاب الروحي بما يكفي، لـو كان هذا الصبر ضرورياً، ليريح العرب قضيتهم، وها هو يجد نفسه أعجز من أن يقرر ما إذا كان سيقود بنجـاح أو يسئ قيادة العرب. فيدفعهم إلى التحالف مع الآخرين.

كان لورانس في غمرة هذه اللحظات الحرجة يكاد يصل إلى درجة الجنون، فقد دفع نفسه أكثر ممـا يـستطيع عقله أو جسمه أن يتحمل، وأصبحت الخاتمة الآن شيئاً لا مفر منه: نصراً أجوف أو انسحاباً مروعـاً، والـسؤال الآن هل كان بمستطاعه أن يتحمل أياً من الاحتمالين؟.

الفصل الرابع والعشرون

قطع شرايين العدو

حدث تجمع كبير للعرب، قبل أسبوع من بدء هجوم اللنبي، وذلك في الأزرق اسـتعداداً لـشن آخـر هجمـات الربيع. فقد كان هنالك فيصل ومعه جنوده الخمسمائة تحت قيادة نوري السعيد، بالإضافة إلـى رجـال مدفعيـة "بيزاني" أو "بيساني" وفرقة من الهجانة المصرية بقيادة "بيك".

وقد انضم إليها عودة ونوري الشعلان والشريف ناصر وفهد وغضوب وطلال ومحمد الفـيلان، وعـدد مـن الشيوخ الآخرين مع بضعة آلاف من رجال القبائل الذين يؤيدون هؤلاء الشيوخ من الحويطات والـرولا والـزبن والسيراحين.

وكذلك عد من الدروز الذين قدموا من تلال سوريا ومدن الشمال. وكان لورانس قد وصل بـسيارة مـصفحة برفقة "جويس" و"يونغ" واثنين من الضباط الشباب هما "سترلنغ" و"ينترتون" وفرقة من السائقين البريطـانيين يقـدّر عددها بأربعين سائقاً، وعدد من حملة البنادق السريعة الطلقات.

وكذلك وصلت طائرتان من العقبة بقيادة الضابطين "مورني" وجونور" اللذين كانا قد كوفئا مـؤخراً لبـسالتهما في الغارات التي شنوها على القوات التركية وخطوطها الدفاعية.

وكانت خطة تطويق درعا تتضمن القيام بثلاث غارات على خطوط السكة الحديدية التـي تقـود إلـى خـارج البلدة، بحيث تبقى الخطوط معطلة لمدة لا تقل عن أسبوع، حتى لا يقوم الأتراك بأيـة تجمعـات أو يهبـوا مـن الأردن وسوريا لنجدة قواتهم في جبهة فلسطين، عندما يبدأ الحلفاء هجومهم.

ونظراً لأن ما كان لدى الحلفاء من طائرات لم يكن كافياً للقيام بغارة مباشرة على درعا وتدمير محطتها، فقـد تقرر البدء بنسف خطة السكة الحديدية إلى الجنوب، لقطع دعم عمان (وكان بركستون وفرقته مـن الهجانـة قـد أمر بالقيام بهذه المهمة، غير أنه لم يستطع تنفيذها لوجود قوة تركية تفوق القوة التي كانت معـه) ثـم يتجهـون شمالا لنسف خط سكة حديد دمشق، ثم ينسفون أخيراً خط السكة الحديدية لفلسطين.

وواضح أن المخاطرة بهذه العمليات من الأمور التي يصعب تصورها، فقد كان كل شئ يعتمـد علـى نجـاح هجوم اللنبي، وهذا الهجوم يعتمد بدوره على القدر الذي يمكن فيه إيهام الاتراك بأن الهجوم الرئيسي موجه إلـى درعا.

فاذا فشلت القوات العربية في خداع الأتراك، أو إذا فشل اللنبي في التغلغل غرباً، فان ذلـك يعنـي أن جـيش فيصل سيقع بكامله، كما يقع الفأر في المصيدة. وكان هذا الجيش يعمل ضمن عدة مئات مـن الأميـال، داخـل الخطوط التركية، والطريق الوحيدة له للتراجع مهددة بالحامية التركية التي كانت ما تزال موجـودة فـي معـان وعمان.

ونظراً لتفوق قوات الأعداء في كل من عمان ومعان ودرعا، فقد كان ما ينبغي على العدو عمله هو أن يـتعلم ـ في حالة فشل الخطة ـ أن يهجم من الشمال والجنوب ـ ومن ثم يقطع قوات فيصل قطعاً صغيرة.

ولم يكن أحد ليعرف مدى خطر هذه المغامرة، التي كان من المقرر أن تقوم بها القوات العربية، أكثـر مـن لورانس الذي كان سيرافق تلك القوات. غير أن حالته النفسية لدى وصوله إلى الأزرق، كانت لا تقـل حماسـا، حتى ليمكن القول بأنه كان غير مبال بالأخطار التي كانت تهدّده.

وخلافاً للبهجة التي كان يشعر بها اثناء الزحف على "الوجه" والهجوم الصعب علـى العقبـة، فقـد كـان الآن عاجزاً عن الشعور بأي حماس لذلك الجو الذي كان يخيم على معسكر فيصل.

وقد كتب يقول:"لقد كان كل واحد مبتهجاً وبصحة جيدة ما عداي... فقد كنت متعباً لدرجة الموت مـن هـؤلاء العرب، الذين كنت اشعر نحوهم بالشفقة... إنهم يدركون عدم ثقتنا في مقدرة معداتهم الحربية، أو حتى مقـدرتهم على القيام بخير أو شر".

وأحس لورانس بشيء من الراحة، فعاد وترك اتخاذ القرار لزميله "جويس" وكان "بيك" قد أوفد ليقوم بعمليـات النسف مع فرقة الهجانة التي يقودها، والتي درب أفرادها على فنون العمار من أجل هذا الغرض.

ولكن.... بينما كان لورانس يستعد للسفر في اليوم التالي مع قوات الطليعة إلى قاعدة "أم طـابع" التـي تبعـد مسافة أميال قليلة إلى الجنوب من درعا، جاءته رسالة مفادها أن فرقة الهجانة التي أوكلت إليهـا مهمـة نـسف

الخط الحديدي، قد اعترضتها جماعة من القبائل الموالية للأتراك، بالقرب من النقطة التي كان مقرراً أن يجـري النسف فيها لقطع السكة الحديدية المؤدية إلى عمان.

وجمع لورانس، الرجل المتعب، قواته، وأسرع برفقة "جويس" و"ينترتون" واثنين من الـضباط، فـي سـيارتين مصفحتين، ليقوم بالمهمة بنفسه.

وقد اندفعت هذه القوّة على صغرها، فنسفت المركز التركي ودمرته ولم ينجح من جنوده غير خمسة، أخـذتهم أسرى، كما دمرت جسراً يبلغ طوله ثمانين قدماً لقطع اتصال درعا بالجنوب.

وأثناء عودة هذه القوة من غارتها هذه، كادت تقع في أسر دورية تركية، ولكـن المـصفحتين راحتـا تطلقـان المدافع، حتى كادت الذخيرة أن تنفذ، قبل أن يتمكن أفراد القوة من الهرب، تاركين العدو فـي حالـة ذهـول لا توصف.

وقد حدث شئ ما، أثر على لورانس، فغيره من ذلك الشخص اللامبالي الذي كـان فـي الأزرق، إلـى رجـل مجنون، انهمك خلال الأسبوعين التاليين في القتال كرجل أصيب بكرب شديد دفعه إلى ما يشبه الهذيان.

ولكنه عندما عاد والتحق بالقوة الرئيسية التي كانت بقيادة نوري السعيد شمالي درعا، كانت فـي عينيـه نظـرة غريبة تنطوي على مزيج من الكره والقسوة على تلك الروح التي كان يتحلى بهـا والتـي كانـت تحملـه علـى المحافظة على الحياة ما استطاع إلى ذلك سبيلا.

لقد أحاله اليأس إلى رجل غضوب، ثم أصبح فاتكاً لا يتورع عن تشجيع البدو على عـدم الاكتفـاء بالثـارات، حتى ليمكن القول بأن تهوره والأعمال التي قام بها خلال اليومين أو الأيام الثلاثة التي تلت، إن دلت علـى شـئ فإنما تدل على عزمه على الانتحار، إذ أنه لم يسبق له أبداً عرض نفسه لرصاص العدو، أو قام بأعمال جنونيـة، كما فعل في تذلك الأثناء.

وقد قام خلال الزحف حول الجانب الشرق من درعا، بمجهود لا يكاد يذكر لإخفاء نفسه أو تحركاتـه، فكـان يتقدم على مرأى من سكان البلدة التي كان يعلم بأنها محصنة بثلاثة آلاف جندي، بينها فرق ألمانيـة ونمـساوية، وكان من الممكن في أية لحظة أن تشاهد قواته القليلة العدد، والتي لا تزيد على بضع مئات، منق بـل دوريـات العدو الجوية، وكانت كثيرة النشاط.

وبالتالي كان من الممكن أن تباد قوته عن بكرة أبيها نظراً لتفوق العدو في العدد والعدّة.

ولكن العدو ظلّ وراء أبوابه بعد أن خدع بشائعات كاذبة مفادها بأنه سيحاصر بقوة مـن العـرب المـزودين بأسلحة كاملة، يبلغ عدد افرادها ثمانية عشر ألف مقاتل. وكانت النقطة التي اختار لورانس أن ينسف فيهـا جـسر السكة الحديدية بين درعا ودمشق، قريبة جداً من المدينة، ولا تبعد عنها غير ستة أميال.

ولقد حالفه الحظ مرة أخرى، إذ أن الأتراك ما كانوا ليفكروا في أن ثمة من يجرؤ على مهـاجمتهم مـن هـذه النقطة القريبة إلى درعا، ولذلك فإنهم لم يدعموا مراكز حراستهم. وقد تمكن العرب، بمساعدة قـذائف "بيزانـي" من مهاجمة المركز الذي يتولى حراسة الجسر واجهزوا على كل من كانوا فيه.

ثم قام الأتراك بهجوم عارم قبل أن تم عملية النسف، مستخدمين أعداداً كبيرة من الجنـود، واسـقطوا إحـدى الطائرتين اللتين كانتا قد استدعيتا من العقبة، بعد محاولة بطولية قام بهـا قائـدها "جونـور" لتحطـيم تجمعـات الأعداء.

وتشاء الصدف أن يقوم لورانس وحده بانهاء المهمة. فبعد أن وضع قوة صغيرة من حملة البنـادق الـسريعة الطلقات، لحماية تراجعه، ولاشتغال أية دورية تركية قد تجيئ لإصلاح الجسر ـ تقدم لانجاز المهمة التي كانـت تقضي بعزل درعا، وذلك عن طريق تدمير خط حيفا والوسائل المؤدية التي تـسلكها التعزيـزات التركيـة مـن الجيشين السابع والثامن التي كان من المفروض أن تقف في وجه هجوم اللنبي. وكان ذلك في اليوم السابع عـشر من أيلول، أي قبل يومين فقط على موعد هجوم الحلفاء النهائي.

في تلك الأثناء كان العدو قد أخذ علماً بالأحداث، ولكنه ظل، كما كان اللنبي ولورانس يتوقعان، مخـدوعاً فـي أن كل هذه العمليات إنما تهدف إلى القيام بهجوم عام على درعا، ولذلك فقد كان "ليمان فوق سـاندرز" الجنـرال الألماني الذي أرسل لدعم القوات التركية في دفاعها عن فلسطين، مخدوعاً بشكل كلي بما كان لورانس يقوم بـه من هجمات مفتعلة، على خط السكة الحديدية.

فشغل بذلك عن التجمعات البريطانية الهائلة التي كانت تحتشد في وادي الأردن، وهكذا بعث بتعزيزات فوريـة إلى قطاع درعا.

وما ان وصلت هذه التعزيزات إلى وجهتها، حتى نصب لها لورانس المصيدة التي كان من المفروض أن تبقي تلك القوات محاصرة في درعا. ومن أجل اتمام هذا العمل، اختار هدفين، الاول محطـة "المزيريـب" والثـاني جسر اليرموك، الذي كان قد نجا من التدمير في شهر تشرين الثاني الماضي.

وتوجه لورانس، برفقة رجال حرسه وعدد من رجال القبائل، وفصيلة من قوات نوري السعيد النظامية، وعـدد من رجال مدفعية "بيزاني" الذين كانوا قد تعلموا بسرعة ان يصبحوا خبراء في المدافع المضادة للطائرات، بعـد أن وقعت عليهم كثير من غارات الأتراك ـ توجه إلى محطة "المزيريب". وتمكن من احتلالها بعد قصف قليـل بالمدفعية، أدى إلى مقتل معظم المدافعين عن تلك المحطّة.

وترك رجال القبائل يستولون على الغنائم وتوجه نحو الجسر، وكان في هذه المرة يأمل أن يحقـق أملـه عـن طريق الرشوة، فقد كان الضابط المسؤول عن حراسة الجسر أرمنياً، وعلى استعداد تام لعمل كـل شـيء ضـد الأتراك الذين يكرههم.

ولكن الخطة لم تنفذ بشكل صحيح عندما اعتقل ذلك الضابط بتهمة الخيانة، فتحتم على لورانس أن يتوجـه نحـو هدف آخر، وهو جسر عال فوق نهر اليرموك:

كان الأتراك هناك بأعداد كبيرة، وعلى الرغم من نجاح مدافع "بيزاني" في تدمير تحصيناتهم، إلاّ أنهـم لجـأوا إلى صف من الخنادق على امتداد خط السكة الحديدية. ومن هناك واصلوا صـب وابـل مـن النيـران علـى المغيرين، الأمر الذي جعل فرقة لورانس للتدمير تخشى نقل المتفجرات تحت هذا الوابـل مـن النيـران، إذ أن رصاصة واحدة لو أصابت "الحلنجيات" لكانت كافية لتمزيقهم إرباً.

ولكن رجال حرسه كانوا أجرأ من اولئك، وتمكن بمساعدتهم من أن يضع الألغام تحت قوائم الجسر. ولما كـان هذا الجسر، هو الذي شاء القدر أن يكون التاسع والسبعين في سلسلة الجسور التي هـدمها لـورانس، فكـان ـ وهذا هو الأهم ـ له مركز ستراتيجي، وكان عليه أن يعيش مقابلة في "ام طابع" حتى يصل اللنبي وينفـذه. وقـد أكمل المهمة.

وعندها دوى الانفجار. وكانت الألغام تحتوي على ثمانمائة رطل من "الحلنجيـات" وبعـد أن انقـشع الغبـار والدخان، لم يكن هنالك أي شيء قد تبقى غير مجموعة من الحجارة والحديد المكسرة.

وهكذا أنهى لورانس المهمة الموكولة إليه قبل أربع وعشرين ساعة من بدء هجوم اللنبـي، وبـذلك أصـبحت درعا معزولة من الشمال والجنوب والغرب، ولم تعد هناك أية إمكانية لتحرك الأتراك من وإلى فلسطين بطريـق السكة الحديدية، وبات على الجيوش التركية أن تصمد بحزم وإلا أبيدت، إذ لم يعد أمامها أي خـط للتراجـع ولا أي أمل في الحصول على تعزيزات بسرعة.

والواقع أن مهمة لورانس قد نفذت، وكانت التعليمات المعطاة إليه، تقضي بـأن ينتظـر حـدوث مزيـد مـن التطورات، ولكنه بدافع من نوبة الطيش التي كانت تستولي عليه في تلك الأثناء، لـم يـستطع أن يلبـث شـرقي درعا، منتظراً وصول القوات البريطانية.

وقد كتب يقول: " بعد أسبوعين أو ثلاثة، يجب أن أصر على إعفائي من مهام عملي ... لقد انهارت أعـصابي، وسأكون محظوظاً لو أن انهيارها لم يكتشف بسرعة". وقرر العودة للالتحاق بقوات فيصل في الأزرق، فقد كـان في تلك الأثناء يعلم علم اليقين، بأنه ينبغي عليه أن يطلب اعفاءه من مهامه بعد اسبوعين أو ثلاثة، ولكن... لـيس قبل أن يرى فيصل في دمشق. وبعدئذ يعتزل مهامه في حملة شبه الجزيرة العربية.

الفصل الخامس والعشرون

مذبحة... وانتقام

كانت الانباء التي استقبلت لورانس لدى عودته إلى "ام طابع" قط جعلته يؤمن بأنه لن يحتاج إلى الانتظار أكثـر مما انتظر، حتى تنتهي أعماله. فقد جاءت إحدى الطائرات من فلسطين تحمل رسالة من القائد العام يقـول فيهـا: إن القوات البريطانية وقوات الحلفاء قد تمكنت خلال اليومين الأولين على هجومها أن تحطم وتمـزق الجيـشين السابع والثامن للعدو، كما استولت من مدينتي نابلس وحيفا، وأن العدو يتقهقر شمالا في فوضـى تامـة. وكـان ناصر وطلال موجودين ليسمعا هذه الأنباء السارة.

ولما كانا قد حصلا على وعد شفهي من القبائل، فقد طالبا بزحف عربي فوري على دمشق، غيـر أن لـورانس الذي تحمل الكثير من شظايا قنابل الأتراك اثناء محاولتيه الأخيرتين لنسف السكة الحديدية، شـعر بـأن الجـيش العربي يجب أن يكون لديه دعم جوي أكثر، إذا ما أراد العرب الزحف على دمشق، رغم سلاح الجو التركي.

فأسرع يستقل الطائرة إلى مقر قيادة اللنبي، حيّث وجد القائد العام غير مكترث إلاّ بأنباء نجاح حملتـه... فقـد أصبحت فلسطين تحت سيطرته، وعليه الآن أن ينتقل للمهمة التالية التي كان يراها حقيقة مقرّرة.

وكانت المهمة التالية كما أخبر لورانس بها القائد العام تقضي بتوجيه ثلاث ضـربات، واحـدة إلـى عمـان، بوساطة فرقة الجنرال "شايتور" النيوزيلندية، وأخرى إلى درعا بوساطة الفرقة الهندية بقيـادة الجنـرال "بـارو" وثالثة إلى دمشق بوساطة الفرقة الاسترالية بقيادة الجنرال "شوفيل".

وكانت الأوامر التي أعطيت إلى لورانس تقضي بأن يساعد هذه الهجمات الثلاث، شـريطة "إلاّ أنفـذ تهديـدي الوقح باحتلال دمشق، حتى نكون جميعاً معاً". وقد أتاحت هذه الأوامر الفرصة أمام لورانس فطلب دعماً جويـاً، ووصف بالتفصيل ما لقيه هو وفرقة التدمير، عندما هاجموا درعا.

وكان لورانس ورجاله يعيشون في قاعدتهم في "ام طابع" بحالة هي أشبه ما تكون بعش للدبابير. فقد كانت تلـك القاعدة محاطة بمطارات الأتراك، والقوات الموجودة فيها معرضة لينكشف أمرها لدى أدنى تحـرك مـن قبـل طيارات المراقبة، ومهاجمتها بالقنابل ورصاص البنادق السريعة الطلقات.

وكانت قوات لورانس قد حاولت تدمير المطارات والطيارات، ولكنها لم تنجح، فاذا كان عليها أن تـساهم فـي دعم قوات الحلفاء لدى قيامها بهجماتها الثلاث والتحرك باتجاه دمشق، فان التغطية الجوية إذ ذاك تغدو أمـراً لا مفرّ منه.

وقد استمع اللنبي إلى هذا الوصف ومعه قائدا سلاحه الجوي، "سالموند" و"بورتون"، اللذان ما إن فرغ لـورانس من طلبه حتى وعدا بتقديم مقاتلتين من طراز بريستول، وطائرة نقل تستعمل كقاذفة للقنابل وكورشـة لإصـلاح المقاتلتين فيما إذا أصيبت أي منهما بعطب. وقد تبدو اليوم هذه المساعدة قليلة، ولكنها كانـت كافيـة فـي ذلـك الوقت لإرضاء لورانس الذي عاد إلى "أم طابع" راضياً بما كان يعتبـره معاملـة كريمـة مـن قبـل رؤسـائه البريطانيين الذين لم يطلبوا منه غير أن ينتظر دخول الحلفاء إلى دمشق.

ولم يمزق هجوم اللنبي الجيشين التركيين في فلسطين فحسب، بل وأرغم جيش جمال باشا الـذي كـان يعـرف بالجيش الرابع، على الانسحاب من شريد في الأردن. وكانت الأوامر المعطاة إلى لورانس تقضي بـأن يواصـل ضغطه على تلك القوات المتقهقرة حتى تتمكن القوات النيوزيلندية من طردها خارج عمان ثـم الإجهـاز عليهـا اثناء تراجعها نحو درعا ودمشق، ولكن بعد نسف مسافة كبيرة أخرى من خط سكة الحديد عمان ـ درعا، حتـى يقطع الأمل من إمكان التراجع شمالاً بوساطة السكة الحديدية.

وقد قام لورانس بإلهاء الأعداء بالقبائل البدوية، بينما اسرع هو بنفسه إلـى درعـا، ليواصـل الـضغط علـى الأتراك، ومنعهم من تحقيق أية إعادة تنظيم لصفوفهم لتصبح مؤخرة للجيش.

وقد قام بالاشتراك مع عودة ونوري الشعلان وظلال وناصر ونوري السعيد، وقـوة ازداد عـددها بانـضمام المزيد من رجال قبيلة "الرولا" حتى أصبح أربعة آلاف، بالتوجه إلى مكان الأسبوع الماضي.

فاتجه اولا إلى الشمال، ثم، وبعد أن نسف عدة أماكن من خط سكة حديد دمشق، إلى غرب درعـا. وقـد قـام عودة وظلال ونوري الشعلان اثناء الطريق، بقيادة فرق عسكرية كانت مهمتها اختبار قـوة الحاميـات التركيـة الباقية بين د رعا ودمشق، وعاد كل منهم ليعلن وقوع مئات من الأسرى الأتراك الذين تركوا دون اسلحة.

وكذلك القت الطائرات منشورات تقول إن القوات الهندية بقيادة الجنرال "بارو" والقـوات الأسـترالية بقيـادة الجنرال "شوفيل" تقود أمامها آلافاً من الأسرى الأتراك.

ثم وردت رسالة إلى طلال تفيد بأن الألمان في درعا يضرمون النار في طيارلتهم ومخازنهم، استعداداً لإخلاء المكان، وقد شوهدت أعمدة الدخان الأسود ترتفع بشكل لا يدع مجالاً للشك في طبيعة ما يقدم عليه الألمان.

ولكن طلالاً لم يكن ليفكر في درعا في تلك اللحظة، فقد قدر بأن الأتراك المتقهقرين أمام الهنود، كما أفادت التقارير، لابد وأن يمروا بقرية طفس" التي هي قريته الخاصة. وكانت التقارير تفيد بأن عدد الأعداء يزيد على الألفين ولذلك فقد خشي على سلامة أهله وذويه.

ولذلك وافق لورانس على طلبه بأن تقوم القوة العربية وباقصى سرعة ممكنة لقطع الطريق على الأتراك المتقهقرين، قبل أن يصلوا إلى "طفس" وأسرهم. ولما وصلوا إلى منتصف الطريق بلغهم أنهم قد تأخروا، فقد ابلغتهم جماعة من الأعراب قابلتهم بأن القوات التركية دخلت بالفعل "طفس".

وكان العرب يقودون أمامهم جماعة من الأسرة الأتراك في اسوأ حال، ظهورهم العارية زرقاء اللون من الضربات والسياط التي تلقوها من آسريهم، ولكن نظراً لأن لورانس والآخرين كانوا يعلمون بأن اسراهم هم من قوات البوليس في درعا، تلك القوات التي ذاقوا على أيدي أفرادها أشد العذاب، لم يشعر أحد بأية شفقة تجاههم، بل لقد شجع لورانس العرب على التنكيل بهم.

وربما كان لدى لورانس نوع من الشعور ـ كما كان لدى طلال ـ أوحى إليه بما سيجده في "طفس" بعد أن دخلتها القوات التركية. فمن المؤكد أن الشعور الذي ساورهم وهم يسيرون باتجاه القرية لا يمكن أن يكون هناك شعور افظع منه، فقد قام الأتراك بارتكاب أفظع أنواع الجرائم، في اهل تلك القرية.

وقد وصف لورانس الحادث بقوله: "كانت القرية عندما دخلناها ما تزال تلفها سحب من الدخان، ورأينا كتلاً رمادية، بدت وكأنها اختفت بين الحشائش عن أعين القوات التركية. ولما تفحصنا تلك الكتل، وجدناها بشراً محترقاً ميتاً، وكان من بينها طفل صغير قتل بوحشية. كان هذا الطفل في الثالثة أو الرابعة من عمره، تجمد الدم على كتفه بعد أن نزف من جرح كبير، ربما كان طعنة حربة.

وقد جاءت هذه الطعنة في المكان الذي يتصل فيه العنق بالجسم... ومررنا بأجسام أخرى لرجال ونساء... وخارج القرية توجد أكواخ طينية واطئة، لعلها زرائب للغنم، ووجدنا في أحدها شيئاً ابيض وأحمر، فاقتربت فوجدته جسد امرأة نزعت ثيابها، وطعنت بحربة في المكان الحساس من جسمها، وكان المسكينة حاملا، وحولها ترقد أخريات، ربما كان عشرين، وجميعهن قتلن بوحشية لا مثيل لها... "

لكن كل هذا الوصف معظمه مبالغة قصد منه استثارة العرب.

ورأى طلال بعض أهله قتلى، واطلق صرخة كحيوان جريح، والقى بكوفيته على وجهه وتلثم، وأعد بندقيته وانطلق وراء الأتراك المتقهقرين، الذين كانت صفوفهم ما تزال ترى من القرية، بعد أن غادروها.

ولقد دهش الأتراك لرؤيتهم هذا الشخص الفرد يطاردهم على حصانه. ولما وصل طلال على بعد ياردات قليلة من العدو المذهول، وكان ما يزال يركض بحصانه بجنون، وقف على سرجه وصاح صيحة الحرب التي اعتادها "طلال... طلال... " وفي اللحظة الثانية اطلق الأتراك النار من بنادق ومدافع سريعة الطلقات، وسقط المحارب القديم ميتاً عند أقدامهم، وقد تمزق جسده برصاصهم.

وقد شاهد عودة ولورانس الحادث من أوله، ولما انتهى قال زعيم الحويطـات "فليرحمـه الله... إننـا سـنأخذ بثأره!". وعاد لورانس إلى رجاله، وكان كل تردد لديه في ارتكاب القتل الجماعي قد تبخر، ولم يعـد يفكـر فـي تلك اللحظة إلاّ بالثأر.

وقال لرجاله: "إن احسنكم هو الذي يحضر لي أكبر عدد من الأتراك" ثم... مضى مع قولته للعمل، وأمرهم ألا يأخذوا أي اسير.

ولما لحقوا بالقوات التركية المتقهقرة، انقضوا عليها، وكما قال لورانس: "في جنـون، مبعثـه الرعـب الـذي شاهدناه في طفس... ورحنا نقتل ومن نستطيع، بل ونسحق رؤوس الموتى بحوافر الخيل.

وكأن وفاتهم ورؤيتنا لدمهم المسفوك سيخفف من حزننا". ولم يبق من القوات التركية غير فرقة واحدة مؤلفـة من مائتي شخص، أسرتهم جماعة من العرب، لم تسمع أوامر قائدها. وكان لورانس ينوي الإبقاء علـى هـؤلاء الأسرى ، عندما شاهد على مقربة منه رجلا ملقى على الأرض، قد غرزت الحراب في ساقيه وكتفيه.

ولكنه كان لم يفارق الحياة بعد، وكان له من القوة ما استطاع بها أن يقول إن هؤلاء الأسرى هم الـذين فعلـوا به ما فعلوا.

وعلى الأثر أصدر لورانس اوامره الوحشية باطلاق النار عليهم وهم اسرى عزل من السلاح. فهل كـان ذلـك بايحاء سابق من اللنبي!

وما إن غابت شمس ذلك اليوم حتى كانت تلك المعركة اليائسة قد انتهت بمقتل عدد لا بأس بـه مـن الجنـود الاتراك الذين دخلوا "طفس" وبأوامر من لورانس عالم الآثار الرقيق الذي يكره احتراف الجندية. والـذي هـاجم قبل أشهر قليلة أحد الضباط البريطانيين هجوماً مريراً لأنه أوقع عشرين قتيلاً في احتلال بلـدة "وجـه"... هكـذا كان ثقل الكابوس الذي كان يرزح تحته. وقد قال له فراج: "إن الله سيعفو عنك" والواقع أنه لو كان بمقـدوره أن يرى روحه في أواخر أيام حرب الصحراء، وما يعتمل فيها من حب لسفك الدماء، ذلك الحب الذي أحـاط عقلـه وغير اخلاقه، لو كان قادراً على ذلك فلابد وان يكون من اكثر مخلوقات الله تعذيباً.

وهكذا صار لورانس "بطل الامبراطورية" سفاكاً وقاتلاً ونذلا فيما بعد.

الفصل السادس والعشرون

"دمشق"

أصبحت جذور الجيوش التركية ميتة، وفي فجر اليوم التالي على مذبحة "طفس" دخل لـورانس درعـا، ليجـد الشريف ناصر قد اتخذ له مقراً في دار البلدية بعد أن تقهقر الأعداء. وكان ناصر قد قام بمذبحـة فظيعـة فـي القوات التركية والألمانية لدى انسحابها من درعا، فقتل ثلثي الفرق الثماني التي حاولـت مغـادرة المدينـة فـي السابع والعشرين من شهر أيلول، قبل أن تصل دمشق.

وبينما كان لورانس يدرب الشريف ناصر على واجباته الجديدة، بوصفه السيد الجديـد لمدينـة درعـا، وردت رسالة تقول بأن قوات الجنرال "بارو" تقترب من المدينة، فأسرع لورانس ليقابل الجنرال.

وقد نجا من الموت بأعجوبة، عندما اطلق فريق من القناصة الاستراليين النار عليه، بعـد أن أسـاؤوا معرفـة شخصيته وافراد الجماعة التي كانت ترافقه للترحيب بالجنرال ، وظنتهم عصابة من القتلة. وقد اسـتقبل الجنـرال "بارول" لورانس بتجهم، واستناداً إلى ما رواه شاهد عيان، فإن لورانس قد اسـتقبل الجنـرال اسـتقباله لطالـب مدرسة، وبترفع كبير، مع إشارة إلى تعاونه مع الجنرال اللنبي.

ولما كان الجنرال "بارول" ضابطاً محترفاً صارماً، فقد استنكر هذه المعاملة من قبل ضابط برتبة "ميجور" يقـل عنه رتبة كما يقل عمراً.

وعندما ركبا معاً في طريقهما إلى درعا، أوضح الجنرال "بارو" أن قواته هي التـي ستـسيطر علـى المدينـة وأعمالها الإدارية، وبدا مندهشاً، عندما أخذ يشرح مختلف الأمور التي يجب العناية بها كالصحة وحفظ النظـام، لما قال لورانس إن كل شيء قد يتم تنظيمه.

وعندها انتقل "بارو" إلى المرحلة التالية... الدخول إلى دمشق، وأوضح بأنه سـيغادر المدينـة غـداً ليلتحـق بالجنرال "شوفيل" والقوات الأسترالية، كي يدخلا المدينة معاً، وعرض بكبرياء على لورانس أن يرافقه مع قواتـه العربية على أن تشكل هذه القوات جناحه الأيمن، ولكن لورانس كان يملك أفكاراً أخرى، وإحدى هذه الأفكـار أن يتنقل فيصل من الأزرق إلى درعا، استعداداً للزحف النهائي لقوات الحلفاء.

وقد تقدم كل من عودة وافراد قبيلته ونوري الشعلان وقبيلة الرولا والشريف ناصر لتعقب آخر فلـول قـوات الجيش التركي الرابع، وهي عبارة عن فرقة مؤلفة من الفي جندي مهلهلي الثياب، يحاولون عبثاً تجنـب هجمـات العرب أو صدها بعدد قليل من المدافع الجبلية استطاعوا إنقاذها من المركز الذي أخلوه.

وعلى الرغم من أن الأتراك المنهزمين كانوا في مركز يستطيعون منه بشق النفس إنزال أية خسارة بأي أحـد، إلاّ أن رجال القبائل لم يستطيعوا مقاومة رغبتهم في الاستيلاء على الغنائم. فشددوا هجـومهم، حتـى أصـبحت القوات التركية الألفين بين قتيل أو أسير، واستولت القوات العربية على كل ما كان مع الأتراك.

ثم أخذ الاستعداد للمعركة النهائية يقترب، فتوجه لورانس إلى "الكسوه" وهي قرية تبعـد بـضعة أميـال إلـى الجنوب من دمشق، كان الجنرال "شوفيل" وقواته الاسترالية ينتظرون فيهـا وصـول الجنـرال "بـارو" وقواتـه الهندية.

ولا شك في أن عشية النصر، بالنسبة لرجل عمل وحلم طوال سنتين من أجل ان يدخل دمشق مع الملـك الـذي اختاره دخول الفاتحين ـ لا شك في أن عشية كهذه لا بد وان تكون مثيرة لدرجة مميتة.

ولكن الحقيقة كانت عكس ذلك، فبدلاً من أن يفخر وينفعل، أحس بالخـذلان والخجـل، واذ كـان يـسير فـي المعسكر، دون أن تلتفت إليه القوات البريطانية والاسترالية، وقد أحس فجأة وبكثير من الألم بالوحدة القاتلة التـي يعيش بها وبتفاهة مركزة، إذ كانت تلك القوات تعتبره ضابطاً من العرب.

في تلك الليلة بالذات، ليلة الثلاثين من أيلول سنة ١٩١٨، انسحبت آخر القوات التركية والألمانية مـن دمـشق، وما إن ابتعدت مؤخرتها عن سراي المدينة، حتى رفعت الراية العربية، رفعها أعضاء لجنة فيصل في دمشق.

وكان ناصر ونوري الشعلان تواقين للزحف على المدينة في المساء ذاته. غير أن لورانس ثناهما عن ذلك.

وكان لورانس ما يزال يملك قوة الإقناع التي يجب أن تتوفر في القائد، وهكذا اقنعهما بأنه من الخير لهما أن يدخل الشيوخ المدينة مع فيصل ومعه هو "بهدوء فجر اليوم التالي". فقد بقي أمامه يوم واحد قبل أن يتحرك الاستراليون، وكان عليه أن يفعل الشيء الكثير في ذلك اليوم.

ولما تحركت القوات مع أول إشراقة الفجر، يقودها ناصر، تكريماً له للمعارك الخمسين التي خاضها ضد الأعداء، وصل فارس من جهة المدينة، وعلم أنه أرسل من قبل شكري الأيوبي، قائد لجنة المقاومة في دمشق، وكان فيصل قد اتصل به في الليلة الماضية. وبعد أن أدى الفارس التحية لفيصل ولورانس وهو يكاد يطير فرحا، سلمهما كمية من العنب الأصفر قائلاً: "أخبار طيبة، إن دمشق تحييكما".

ثم، عندما اقتربوا من مداخل المدينة، وجدوا استقبالاً غريبا في انتظارهم، فقد تجمع الناس لتحيتهم، ولكنهم كانوا صامتين من تأثير فرحتهم، بتحررهم، فاختنقت أصواتهم في حناجرهم.

وقد كتب لورانس يصف هذا الاستقبال فقال: "كانت الطريق غاصة بالناس الذين اصطفوا على جانبي الطريق، أو تجمعوا في النوافذ أو على الشرفات واسطحة المنازل. كان كثيرون منهم يبكون، وقليلون يرددون هتافات خافتة، وهتف بعضهم باسمائنا، ولكنهم في الغالب كانوا ينظرون، ولا يملون النظر والفرحة تلمع في اعينهم".

ولكن بعد أن دخلوا دمشق، انقلب هذا الفرح الصامت إلى فرح صاخب، عندما اندفعت جموع غفيرة لتحية القادمين، وراح أفرادها يصيحون بأعلى أصواتهم "فيصل - لورانس - ناصر" بينما راح آخرون يرقصون ويهزجون، ويقتربون من السيارة التي كانت تقل ملكهم ومحررهم إلى العاصمة.

ودوت الصيحات والهتافات في الشوارع والميادين، حتى لقد بدت دمشق وكأنها تمر بعاصفة. وقد نسي لورانس للحظة من الزمن مخاوفه من المستقبل، عندما رأى هذه الهتافات المدوية، وقدر بأنها لابد وأن تكون كافية لتقف وراء فيصل وتدعم عرشه وتجعله سيداً على سوريا.

غير أن الحلم كان قصير العمر، فقد كان ناصر ونوري الشعلان قد وصلا إلى قاعة المدينة وجلسا على مقاعد المجلس، وتمكن لورانس أخيراً من أن يشق طريقه وسط جموع أهالي دمشق، الذين كانوا يحيطون بكرسي الحكومة، ولشد ما كان استغراب لورانس عندما رأى أن الأمير عبد القادر يجلس إلى جانب ناصر ونوري، ومعه شقيقه محمد سعيد، الأداة التي استعملها جمال باشا لإغواء فيصل.

وقبل أن يتمكن لورانس من ان يتمالك نفسه، تقدّم محمد سعيد منه وقال له إنه وشقيقه وشكري قد شكّلوا حكومة تحرير، واعلنوا أن الشريف حسين الموجود في مكة هو "ملك العرب".

ولما أخذوا لورانس بهذا البلاغ التفت إلى شكري راجياً الحصول منه على نفس أو تكذيب، ولكن الرجل لم يكن بقادر إلاّ على أن يؤيد ذلك، قائلا أن الجزائريين - ومعظمهم من المتطرفين بالنسبة للدين، قد سيطروا على لجنته بالقوة.

وقال إنه ليس راضيا عما تم على ايديهم لأنه رأى بنفسه كيف وقفوا مع الأتراك، حتى ولى الأتراك الأدبار، ولكن ماذا يستطيع أن يفعل؟ إنه لم يكن من القوة بحيث يستطيع مقاومتهم.

ولم يشعر لورانس بأية مرارة نحو شكري، لتسليمه للجزائريين ، فقد ظل يعمل أثناء الاحتلال التركـي، رغـم كل ما قاساه على يدي جمال باشا، وها هو الآن يصل إلى نهاية عمره.

ولكن الضرورة تقضي بأن يفضح أحد ما خيانته، فالتفت لورانس إلى ناصر ليتولى زمام المبادرة. وفـي تلـك اللحظة سمع في الغرفة زئير مألوف لصوت معروف، وصمت العرب الذين كانوا في الغرفـة الداخليـة. ثـم تكشف الأمر ليتضح أن صاحب الزئير هو عودة ولنه يضرب أحد مشايخ الدروز، إذ أهانـه فغلـى الـدم فـي عروقه، حتى كاد يفقده صوابه. وبعد أن أبعد الرجلان عن بعضهما، وأخرج المضروب من قاعة المدينـة، راح لورانس يبحث عن ناصر.

لكنه كان قد اختفى مع الجزائريين، تاركاً لورانس وحده وسط خليط عجيب مـن العـرب والـدروز والبـدو ورجال القبائل وأهالي دمشق والفلاحين، وكانوا منتشين بالنصر المفاجئ الذي حقق لهـم، ويـصيحون باسـماء زعمائهم وابطالهم، ويتعارك بعضهم مع بعض بقبضات الأيدي. إن صـيحة خطـر تتبعـث الآن مـن هـؤلاء الحمقى، وثمة عرش يتهدده غاصبون.

وراح لورانس يعمل بمرارة من أجل إنقاذ دمشق لصالح فيصل، فبعث يستدعي عبد القادر وشـقيقه، ولكنهمـا رفضا في بادئ الأمر الامتثال لدعوته، ثم أذعنا فيما بعد، ليجدا نفسيهما مطوقين بفرقة من قوات نوري الـسعيد، وفرقة أخرى من قواته النظامية، وفرقة ثالثة من قوات نوري الشعلان.

وأبلغهما لورانس أنه بوصفه يعمل نيابة عن الأمير فيصل، فقد أمر بالغاء حكومة عبد القادر، علـى أن يعـين بدلاً عنها شكري الأيوبي بمنصب نائب حاكم ونوري السعيد بمنصب حاكم عسكري.

وقد تحدى محمد سعيد على الفور هذا القرار، ووصف لورانس بأنه كافر بريطـاني، ودعـا ناصـر ليؤكـد سلطانه. ولكن الشريف لم يكن باستطاعته إلاّ أن يجلس بخزي، وهو يرى نفسه يجرد من أصدقائه. وهنـا حـاول عبد القادر القيام بهجوم مباشر، فاستل خنجره وهو يقسم الأيمان المغلظة على قتل الانكليزي الذي بـدد خططـه، ولكن عودة انقض عليه كالصقر ومنعه من ذلك.

ثم ان لورانس والآخرين انهمكوا في معالجة المشاكل العملية التي من شأنها أن تعيد للبلاد حكومتـه ونظامـه، وكان من الضروري إنشاء قوة بوليس، كما ألفت فرقة مطافئ، وراحوا يعملون من أجل إعادة التيار الكهربـائي، واتخذوا الاجراءات الصحّية، ونظفت الشوارع من القاذورات وشظايا سيارات الأتراك وغير ذلك من الانقـاض التي تخلفها الحرب. وكان من الضروري إحضار المؤن والمساعدات لسكان نصف جياع منذ أيام، وكذلك كـان عليهم أن ينظفوا المستشفيات ويحضروا الأدوية ليستطيعوا التغلب على انتشار مرضي التيفوس والديزنطاريا.

وكذلك الحال بالنسبة للمواصلات والسكك الحديدية والمواصلات اللاسلكية ـ كـل ذلـك كـان بحاجـة إلـى إصلاح. وقد عملوا طيلة الليل كالمجانين، يحدوهم تصميم على أن يظهروا لقوات الحلفاء متى وصلت في اليـوم التالي ماذا يستطيعون عمله من أجل أن يحكموا أنفسهم، وأن يخلقوا النظام وسط الدمار، لكن المنجزات لم تكـن بالنسبة إلى لورانس سوى واجهة البناء، أما واقع الأمر فقد كان ما رآه في قاعة المدينة والمنازعات التي قـسمت عائلة الشريف.

وأخيراً عندما أغمض عينيه ليأخذ قسطاً بسيطاً من الراحة سمع المؤذن يدعو الناس للصلاة. وبعد أن انتهى الأذان، ولبى أهل دمشق النداء للصلاة وشكر الله على تحريرهم، أحس لورانس مرة أخرى بوحدته، وطيشه في كل ما قام به، إذ أنه كما كتب يقول: "كم كانت الأحداث يومذاك مؤسفة والنتائج لا معنى لها".

وبعد ساعة استيقظ لورانس ليبلغ أن عبد القادر قد أعلن الثورة، فقد دعا رجاله إلى اجتماع كما دعا الدروز أيضاً الذين كانوا قد أعلنوا سخطهم والذين راحوا ضحية سهلة لدعايات الجزائريين القائلة بأن فيصل واتباعه ليسوا سوى أذناب للكفرة الانكليز، ويجب إزالتهم إذا ما أريد للدين الاسلامي أن يصان من الفساد.

وأسرع لورانس ونوري السعيد يتخذان الترتيبات اللازمة لمواجهة هذا التمرّد. فأمر نوري فريقاً من حملة المدافع السريعة الطلقات بالمرابطة في نقطة استراتيجية، بينما توجه لورانس برفقة كيرك برايد فقط يخطبان في الناس ويشرحان لهم إخلاص فيصل ابن الملك حسين لقضية العرب.

وكانت مهمة شاقة تعرض خلالها للموت أكثر من مرة، على أيدي الدروز المتطرفين في وطنيتهم، الذين اشعلتهم دعاية عبد القادر بنار الحقد والكراهية، فكانوا يهاجمونه محاولين قتله، ولكن "كيرك برايد" كان يستعمل مسدسه في صدهم.

وكان الجنرال "شوفيل" وقواته الاسترالية قد وصلوا في الوقت الذي اندلعت فيه نار الثورة فعرض بأن تساهم قواتهم في إخمادها، غير ان لورانس رفض العرض... ربما لأنه كان يرى في الأمر ما لا يستحق الاهتمام، وربما بدافع العرض... ربما لأنه كان يرى في الأمر ما لا يستحق الاهتمام، وربما بدافع من كبريائه.

وبعد ساعات قليلة على فتح نيران المدافع السريعة الطلقات على المتمردين، هرب عبد القادر، تاركا شقيقه ليقع أسيراً في أيدي القوات العربية.

هذا وقد بلغ لورانس في تلك اللحظة أقصى حدود الإعياء، فهو لم ينم غير ثلاث ساعات منذ أن غادر درعا قبل أربعة أيام. وكان عليه أن يحمل عبء تركيز عرش فيصل وحكومته، وان يكشف مؤامرات المتربصين، كما يعيد الحكم المدني إلى بلاد تركه محتلوه السابقون في حالة من الفوضى لا مثيل لها.

والأصعب من ذلك كله أن يحاول جعل مواطنين ثواراً حفظة على القانون، مواطنين امضوا سنين من حياتهم، والسنتين الأخيرتين بصورة خاصة في تحدي السلطة وخرق القوانين، على اعتبار أن هذين العملين من أعمالهم الوطنية.

وهكذا فقد كانت مهمة لورانس تفوق احتمال شخص واحد، ناهيك عن شخص مجهد جسمياً يكاد يصاب بانهيار الاعصاب.

ومع ذلك، فقد كان هنالك خطر آخر يجب تفاديه. ففي العشاء الذي أقيم في اليوم الثاني لدخولهم دمشق، طلب أحد الأطباء الاستراليين إلى لورانس أن ينظف أحد مستشفيات الأتراك مع القاذورات التي تراكمت فيه، حتى لقد هجره أطباؤه وممرضوه، ولم يكن هذا الطبيب مغاليا في وصفه، عندما شاهد لورانس بنفسه ما يحتويه من قاذورات، وقد كتب لورانس يقول في وصف ذلك المستشفى:

"اوساخ تجعل السليم مريضاً، ولما فتحت عيني، رأيت منظراً مفزعاً، كان بلاط المستشفى مغطى بجثث القتلى الذين رصوا الواحد إلى جانب الآخر، بعضهم في بزلتهم العسكرية الكاملة، وبعضهم في ملابسهم الداخلية

وبعضهم عارون تماماً... وكان القليل من هؤلاء جنوداً قتلوا حديثاً، والباقون قد قتلوا منذ أمـد طويـل، وكانـت الوان بعض الذين قتلوا حديثاً صفراء وزرقاء وسوداء. وبعضهم قد انفتحت بطونهم وتدفقت منها سوائل نتنـة لا يمكن لمخلوق أن يشمها".

ومضى لورانس و"كيرك برايد" يبحثان عن المساعدة، بعد أن رفض الاستراليون تقديم أية مـساعدة، غيـر أن بعض الأطباء الأتراك الذين وقعوا في الأسر، وبمساعدة فريق باسل للحفر من الأسرى الأتراك، جنـدوا للعمـل ودفن الموتى وتنظيف العنابر التي كانت، لدهشة لورانس، ما تزال تضم عدداً من الأتراك الجرحى الـذين كـانوا من أن يأتوا بحركة غير التلويح بأيديهم طلباً للرحمة.

وقد أشرف "كير كبرايد" على دفن الموتى، أما لورانس فإنه بعد أن تلقى قائمة الإصابات من الأطباء، وكانـت تتضمن ستة وخمسين ميتاً، ومائتين يحتضرون، وسبعمائة من الجرحى أو المرضـى، ذهـب لينـال شـيئاً مـن الراحة.

ولكنه لم يسترح قبل أن استدعاه الجنرال "شوفيل" وطلب إليه أن يسجل شكوى من أن قسماً من قواتـه العربيـة ترفض تأدية التحية لضباطه!.

وكانت الأحوال في المستشفى في اليوم التالي لا تقارن بأحوالي اليوم السابق كما شاهدها لـورانس، فقـد ظـل "كيرك برايد" ساهراً مع الأطباء حتى أتموا تنظيف المكان وعينوا ممرضين من الأتراك الأسرى ليرعوا شـؤون المرضى.

ومع ذلك، كان هنالك الشيء الكثير الذي ينبغي عمله. وبينما كان لورانس يقوم بجولـة تفتيـشية، تقـدم منـه ضابط من سلاح الصحة برتبة "ميجور" وسأله عما إذا كان هو المسؤول.

وقد أجابه لورانس قائلا: "انني المسؤول، إلى حد ما!".

فانفجر الضابط قائلاً: "يا للفضيحة والخزي والقذارة... يجب أن تقتل".

وكان لورانس قد بلغ حداً من الصبر لم يعد لديه بعده ما يستطيع الصبر عليه، وثارت ثائرتـه لهـذه الإهانـة المفاجئة، ولكنه كظم غيظه، ولم يقم بأية محاولة ليشرح للضابط كيف كانت الأحوال في اليوم السابق، وبدلاً مـن ذلك انفجر في قهقهة عالية.

وقال الميجور: "يا لك من قاتل دموي". ورفع يده وصفع لورانس على وجهه، ثم مضى وهو يدمدم بكلام عـن الشرقيين الذين هم أدنى مرتبة من الحيوانات، بينما وقف لورانس للحظة في حالة مـن الـذهول، دون أن يـشعر بغضب من ذلك الذي صفعه، وإن كان قد شعر بخجل من نفسه وعدم نقاء روحه.

ولكن تلك الصفعة قد أعادت لورانس إلى وعيه، وأشعرته بما يعانيه هو من إجهاد، وكان يعلم في تلك اللحظـة بانه لن يستطيع المضي قدماً أكثر مما مضى، وأنه لا يستطيع أن يستعمل عقله أو جسمه، أكثر مما استعملهما.

ولما غادر المستشفى لمح سيارة اللنبي الرولز رويس خارج الفندق الرئيسي في المدينة. فأسرع تجاهه ودخـل الفندق. وبعد بضع دقائق كان يقدّم تقريره النهائي إلى القائد العام. وقد استمع اللنبي باهتمام، وأيد بكلمـات قليلـة كل التعيينات التي أجراها لورانس والأوامر التي أصدرها، ووضع المسؤولية في يد فيصل وحكومتـه وقـوات الحلفاء.

ثم طلب لورانس تسريحه، ولكن اللنبي رفض في بادئ الأمر توقيع المرسوم على اعتبار أن خدماته الآن مطلوبة أكثر من أي وقت مضى في شبه الجزيرة العربية، ولكن هذا لم يجده نفعاً.

فقد كان يعلم أن لورانس قد صمّم وانتهى الأمر، فما الذي حصل لتحقيق هذا التغيير؟ ولماذا اصبح النصر الذي عمل له لورانس طويلا شيئاً محزناً بالنسبة له، ولم يعد يريد أن يعيشه؟ ان اللنبي، على الأغلب لم يستطع أن يفهم السبب، ولكنه كان يحترم ويحب مرؤوسه إلى درجة كبيرة تمنعه من إرغامه على البقاء خلافاً لرغبته.

وهكذا غادر لورانس مسرح انتصاره بشكل مفاجئ دون أن يقدم إلاّ القليل من التفسير لنفسه عن السبب الذي حدا به إلى دخول هذه المغامرة منذ البداية. وكان في بعض اللحظات التي كان يهاجمه فيها حتى اقسى منتقديه، لا يحركه شيء غير الخجل من كل ما قد فعل، والخجل من وجوده، ومن جميع الأصدقاء الذين وثقوا به واقترف بحقهم ما اقترف.

ولما وجد نفسه محصوراً في سجن من تبكيت ضميره، لم يجد ما يستطيع أن يفكر فيه سوى الهرب.

الفصل السابع والعشرون

خروج وعودة

لم يتفق اثنان من مؤرخي لورانس، على ما يبدو، على الأسباب التي تكمن وراء ميله إلى الهرب من ميدان النصر. ويقول "دافيد غارنيت" إنه قد ترك لأنه شعر ان الجولة الثانية في دراما خيانة الانكليز للعرب ستجري على مائدة المؤتمر، وأنه لذلك سيفيد العرب اكثر إذا أسرع بالذهاب إلى لندن مما لو بقي في دمشق لجني ثمار انتصاره.

أما "لويل توماس" فيرجع سبب سفره إلى إجهاد جسمي وعقلي، ويؤيده في ذلك الدكتور "ارنست التونيان" وهو طبيب بريطاني وشاعر أرمني الأصل، وأحد أصدقاء لورانس المقربين.

ويقول "ليدل هارت" إن لورانس قد أخبره بأن "كل شيء قد انتهى فأي سبب أفضل للعودة؟". أما الشرح الذي أورده لورانس نفسه فقد قال فيه إنه أصبح خائفاً جداً من رغبته في السلطة والمركز، فآثر الهرب.

ومن الجائز أن يكونوا جميعاً مصيبين في تقديراتهم، نظراً لعدم وجود تناقضات حقيقية بينها، فقد كان تعباً وهذا أمر مؤكد، والتعب سبب وجيه، والهرب من مطامحه الخاصة تفسير آخر مقبول، وكانت التقارير التي كتبت عنه في الأشهر الأخيرة لحملة الصحراء تفيد بأنه أصبح رجلا رأى انعكاس نفسه على مرآة تحليله لشخصه، فافزعه ما رأى.

وفي الوقت ذاته فإن نداءاته المتواصلة للدعوة للقضية العربية واستقلال العرب، عقب وصوله إلى لندن وخلال انعقاد مؤتمر الصلح، تظهر أنه ما زال راغباً في أن يبقى، كما كان ، في خدمة أصدقائه العرب، ولكن خارج شبه الجزيرة العربية.

وكذلك فإن "مهمة لورانس قد انتهيت" في الشرق الأوسط. وقد كشفت السير "رونالد ستورز" في "شرقياته" النقاب عن أنه في حوالي نهاية التحالف العسكري، كانت علاقة لورانس بالأمير فيصل، علاقة مرة، وأن الأمير

فيصل فيما بعد، قد تحدث بلهجة تنم عن عدم الشكر عن حليفه في وقت ما، وقد أضاف "ستورز" قـائلا: "الأمـر الذي قد استنكره أكثر لو انني تصورت مطلقاً ان الملوك يمكن أن يكونوا مثل صانعيهم".

ومن هنا يمكن القول بأن هناك قليلا من الشك، بان الأمير فيصل لما وصل إلى دمشق قد أوضح للورانس بـأن مهمته في شبه الجزيرة العربية قد انتهيت. فقد جلس الملك على عرشه، أما صانع الملك فقـد أصـبح بالإمكـان صرفه الآن، بل يجب صرفه، إذا ما أراد فيصل أن ينفي الشكوك التي كانت تسود مكة، والقائلة بأنه كان متـأثراً أكثر من اللازم بهذا الكافر البريطاني.

ورقي لورانس إلى رتبة كولونيل وعاد إلى لندن، وذهب إلى وزارة الحرب، قبل أيام قليلة مـن عقـد الهدنـة العامة في تشرين الثاني سنة ١٩١٨ وإعلان هزيمة المانيا نهائياً وهزيمة شركائها كذلك.

وما إن وصل حتى باشر العمل لمصلحة استقلال العرب. وعندما استدعي للمثول أمام اللجنـة الـشرقية فـي الوزارة البريطانية، قدم مذكرة مكتوبة بأبلغ عبارة، تذكر أصل وأهداف ثورة العـرب، واقتـرح وضـع خطـة لترتيبات ما بعد الحرب بالنسبة لشبه الجزيرة العربية.

فالحجاز يجب أن تنال استقلالاً كاملاً، أما بلاد الرافدين فيجب أن توضع تحت الانتـداب البريطـاني، ويجـب وفق اقتراحه هذا، اعطاء فيصل سوريا باكملها باستثناء شريط ساحلي يتضمن بيروت التـي يـبج منحهـا إلـى فرنسا.

وبالنسبة إلى وعد بلفور الصادر في سنة ١٩١٧، والذي يدعو إلى إنشاء وطن قومي لليهود في فلـسطين، فقـد أكد بأن العرب جميعاً متفقون على أنهم يفضلون ان تكون تحت إشراف بريطانيا، وألا ينشأ فيها وطن لليهود.

وكانت هذه الآراء غير مفهومة ولا بشكل من الأشكال في اوساط الدوائر البريطانية الرسمية في ذلك الوقـت لسبب واحد اوضحه "جين بيرود فيلارز" في كتابه "ت. ل. لورانس" عندما قال: "كان عدم الميل إلـى الفرنـسيين منتشراً ببريطانيا في اعقاب الحرب العالمية الأولى.

وبعد اربع سنوات من الحرب" وذبح قسم كبير من قوات الجيش البريطاني، وبعد أن اصبح الشعب علـى أهبـة الاعتقاد بأن "ما قاساه البريطانيون قد فرض عليهم لمصلحة الفرنسيين".

وثمة سبب آخر هو أن بريطانيا كانت حريصة كل الحرص على عدم تلبية مطامع فرنسا في الـشرق الأوسـط. وصحيح أن بريطانيا قد أرغمت بدافع عن ملابسات الحرب وارضاء حلفائهم الفرنسيين علـى إعطـاء تعهـدات معينة، تمكن فرنسا من أن تركز نفسها في المشرق بعد أن تريح الحرب، ولكن... إذا أمكن شراء فرنسا بـالثمن الذي اقترحه لورانس، فإن ذلك سيترك بريطانيا هي المسيطرة، بينما تنفذ في الوقت ذاته وعلى الأقـل، تعهـداتها للشريف حسين.

ولكن، لم تكد هذه الحالة من القناعة تستقر في اوساط "الوليت هول" حتى بدأت أول بوادر الاضـطرابات مـن دمشق. فقد أقدم العرب، خلافاً لنصيحة لورانس على احتلال بيروت، المركـز الرئيـسي للكاثوليكيـة والثقافـة الفرنسية في الشرق، بدلا من تركها للحلفاء ليحرروها، بوصفها منطقة من المنـاطق التـي حفظـت لفرنـسا، بموجب اتفاقية "سايكس ـ بيكو". ولكن بوصول "جورج بيكو" أحد أقارب واضع الاتفاقية، ليعمل مندوباً سـامياً لسوريا، سلّمت المنطقة إلى الفرنسيين بأمر من القائد العام البريطاني.

غير أن السلطات الفرنسية لم تكن لترضى بمثل هذه السهولة، فبعد أن ارغمت العرب على إخلاء بيروت، ارادت أن تحصل على المزيد.

وقد أبلغت ذلك بشكل لا لبس فيه إلى فيصل، وقد الح بعض اتباع الامير عليه بأن يقاوم، ولو استدعى الأمر بقوة السلاح، أية طلبات أخرى بقبول سيطرة فرنسا وسحب قواته من سوريا.

ولما لم يستطع أن يقرر بنفسه ماذا ينبغي عليه أن يفعل، ونظراً لأنه لم يكن متأكداً من القدر الذي يستطيع فيه الاعتماد على الدعم البريطاني في نزاع مكشوف مع فرنسا، فقد أرسل فيصل كتاباً إلى لورانس، الذي حصل بالفور على دعوة له من الحكومة البريطانية للمجيء إلى لندن لدراسة الوضع.

وفي اليوم السادس والعشرين من شهر تشرين الثاني، هبط الأمير من المدمرة البريطانية "غلوستر" في مرسيليا، وكان يرافقه نوري السعدي. وكان لورانس هناك ليقابله وهو يرتدي ثيابه العربية.

وفي الوقت ذاته كانت خطوط اللاسلكي الفرنسية منهمكة بين باريس وجدة والقاهرة ودمشق، وقدم احتجاج رسمي للشريف حسين جاء فيه أن الحكومة الفرنسية لم تبلغ كما ينبغي بمهمة فيصل، وهو خطأ كبير ما دام الأمير لم يتلق أوامر من والده، وهو على كل حال ذاهب إلى لندن وليس إلى باريس، ثم استدعي عاثر الحظ "بريموند" من إحدى القيادات في الجبهة الغربية، وطلب إليه أن يسافر حالاً لمقابلة فيصل، لكي يعرض عليه ضيافة فرنسا.

أما بالنسبة إلى لورانس فقد كانت الأوامر المعطاة إلى "بريموند" تقضي بأن يحييه إذا ما جاء مرتدياً زيه العسكري برتبة كولونيل وألا "يقبله إذا كان يرتدي الثياب العربية!".

وقد أطاع الرجل أوامر حكومته وتعليماتها المشددة، لأنه لما رأى لورانس يدخل ملتفاً بعباءته البيضاء المذهبة إلى جانب فيصل، لم يسعه إلاّ أن يعرب للأمير عن رأي حكومته. ولشد ما كانت دهشته عندما طلب فيصل إلى لورانس أن يعود إلى لندن، بينما تابع جولته هو في فرنسا برفقة "بريموند" تلك الجولة التي انتهت به إلى باريس حيّث استقبله الرئيس "بونيكار" استقبالا رسمياً، وحيث أقيمت حفلة عشاء على شرفه في وزارة الخارجية. وبعد أسبوعين من وصوله إلى فرنسا سافر إلى مدينة "بولون" ليجد لورانس مرة أخرى في استقباله على سلم الباخرة التي كان من المقرر أن تنقله إلى انكلترا.

وقد تبع ذلك جولة في انكلترا برفقة لورانس الذي كان ما يزال مخلصاً للأمير، ثم زيارات رسمية وحفلات استقبال بحضور الملك جورج الخامس، كان فيها لورانس يرتدي أيضاً الملابس العربية.

الأمر الذي أثار حفيظة المسؤولين. وأخيراً سلسلة من الاجتماعات في وزارة الخارجية لدراسة مطالبه في سوريا، وللتحضير من أجل مؤتمر الصلح الذي كان على وشك أن يفتتح في باريس.

ويبدو إخلاص لورانس لفيصل في هذه الفترة بعد كل ما لقيه من إهانات أمراً غريباً، وقد يتساءل المرء لماذا كان عليه أن يهتم بهذا الأمير؟ ولماذا واصل مساعيه من أجل تدعيم فيصل بعد أن أصبح من الواضح أن قضية الهاشميين قد مزقتها أحقاد مؤسفة ومؤامرات خسيسة، ولم يعد بمقدورها أن تحقق لهم الاستقلال؟ ولنعترف بأن الحكومة البريطانية كانت تحب خطته لا يجاد تسوية عربية، ولكن... مع كل يوم يمر، كان الفرنسيون يزدادون

إصراراً على الاستيلاء على سوريا، وكانت وجهة النظر الفرنسية تطالب بدفع تعويضات وجوائز لما قاسته في الشرق وللخسائر التي تكبدتها فرنسا في الجبهة الغربية.

وكان من المستحيل تقريباً، أن يقبل البريطانيون، نظراً لضعف العرب وتفرقهم، خطة لورانس، ومنع فرنسا من الحصول على أكثر من بيروت وشريط من الشاطئ.

فما الذي دفع لورانس إذن بمثل هذه الحماسة؟ لا شك في أن الدافع هو حبه لسورية البلد الأول الذي أحبه بين جميع البلدان العربية، والتي كان يسميها "حديقة الأشجار الفاتنة"، والمكان الذي تعرف فيه أول ما تعرف على جمال الصحراء، وغسل فيه روحه بطهارتها اللامتناهية، والمكان الذي وطد فيه دعائم صداقات مع رجال مثل الشيخ حموده، وحيث وجد روحاً صافية لدى شباب العرب وخاصة الشاب المدعو أحمد.

لقد كانت سورية هي التي قاتل من أجلها. وكان دائماً يدعو إلى الحرية والاستقلال لسوريا. وكانت دمشق تراوده في الأحلام، منذ ذلك اليوم، قبل ثلاث سنوات، عندما قبل في غمرة الجو المشحون المكان الذي كان فيصل يتخذه مقر قيادة له في "الحمراء".

وقد تدفن اطماعه الشخصية، كما أن خدماته للأمير قد لا يكافأ عليها، وأحلامه بايجاد بلاد عربية موحدة قد تنقل إلى كابوس، فتتحول البلاد العربية إلى بلاد تحت الانتداب أو تحت الحماية أو حتى مستعمرات - ومع ذلك كان يشعر بأنه يجب أن يواصل النضال من أجل سورية وانقاذها من قبضة الفرنسيين. وقد تمكن لورانس بفضل إحدى مصائب التاريخ، أن ينفذ فيصل، ولكنه لم يستطع ان ينقذ سورية.

الفصل الثامن والعشرون

فوضى في المؤتمر

دخل فيصل ولورانس في مشاكل قبل أن يفتتح مؤتمر الصلح في باريس في شهر كانون الثاني سنة ١٩١٩، مع الفرنسيين ومع الشريف حسين. فقد رفض الفرنسيون في بادئ الأمر أن يقروا بأن الأمير هو ممثل لدولة لا يعترفون هم بقيامها، وكانوا مصممين على استخدام كل وسيلة وضغط للتأكد من أنها لن تقوم لها قائمة.

وكذلك رفض الشريف حسين الذي كان يحسد ابنه، في بداية المؤتمر، الاعتراف بأنه ابنه هو الممثل للقضية العربية، وكذلك بأنه سيد لدولة عربية، له فيها مطالب، واتهم ابنه فيصل بأنه قد اغتصب عرشها على حساب شقيقه عبد الله.

ولم يكن غير البريطانيين يؤيدون الأمير، وقد استطاعوا في النهاية إقناع "كليمنصو" رئيس وزراء فرنسا، الذي كان يدعى "النمر" وكذلك الشريف من سحب اعتراضاتهما.

ولم يكن فألاً حسناً للعرب، أن يجلس الأمير فيصل النحيل البنية ومعه لورانس على مائدة المؤتمر، وعلى المقاعد المذهبة الرائعة في صالون قصر "دي لاهورلو" في "الكوال دورسيه".

فقد جلس الأمير منتصب الظهر، وحيداً، وسط ممثلي الدول الذين كانوا سيقررون مصير أمته ومستقبل قضيته. ولقد اعتبره الفرنسيون معادياً لهم، وأحس الأميركيون، ممثلين بالرئيس ويلسون بعطف بالغ على هذا

الممثل لشعب اضطهد طويلاً. وقد أخذ مؤلف النقاط الأربع عشرة، وواضع أسس مبادئ تقرير المـصير فكـرة رومانتيكية عن الأمير ومنجزاته.

أما الوفد البريطاني برئاسة المستر "لويد جورج" فقد وجد نفسه متأثراً جـداً بتـضارب الـولاء الـذي وجـد البريطانيون انفسهم محاطين به.

وكانت حيرة الحكومة البريطانية ممثلة في الفوضى المباشرة وتناقض المعاهدات والتعهدات والالتزامات التـي كانت بريطانيا وكل الممثلين في المؤتمر يواجهونها.

فهناك أولاً تعهدات بريطانيا للشريف حسين التي قطعتها له سنة ١٩١٥ والتي تلتزم فيها بريطانيـا بـالاعتراف باستقلال العرب، إذا ثار الحسين على الأتراك. وهناك ثانياً إتفاقية "سايكس ـ بيكو" المعقودة سـنة ١٩١٦ والتـي تقضي بإقامة دول للعرب في سوريا وبلاد الرافدين، مع منح فرنسا وبريطانيا وروسيا، مناطق نفوذ.

وقد خسرت روسيا حقها هذا فيما يتعلق بالموضوع، لأنها أعلنت ثورة في بلادهـا، ووقعـت معاهـدة صـلح منفردة مع المانيا، ولكن لم تكن هناك أية بادرة توحي بأن الفرنسيين على استعداد للتخلي عن حصتهم.

أما مطالبة فرنسا بسوريا فتستند إلى أسباب استعمارية من جهة، وأسباب خاصة بفرنسا من جهة أخـرى، علـى اعتبار أن الفرنسيين هم حماة الكثلكة، والذين يتبعون هذا الدين في العالم العربي.

ولم يكن بمقدور أية حكومة فرنسية أن تتخلى عن هذا الادعاء، دون أن تعرض نفسها لهزيمة سياسية منكـرة. وهناك ثالثاً وعد بلفور لسنة ١٩١٧ الذي يعد بمنح اليهود وطناً قومياً في فلسطين بعد الحرب.

ورابعاً ـ كان هنالك وعد المندوب السامي البريطاني في القاهرة الذي قطعه في شهر حزيـران سـنة ١٩١٨، والذي جاء فيه أن المناطق العربية التي يحررها ـ سكانها بعمليات حربية ستمنح الاستقلال.

وهناك خامساً البيان الانكلو ـ فرنسي الصادر في شهر تشرين الثاني سنة ١٩١٨ بعد سـقوط دمـشق والـذي وعد العرب في سوريا وبلاد الرافدين "بالعطف على إقامتهم حكومات مستقلة وطنية وضمان كيانهـا الطبيعـي دون أي تدخل ولنشاء حكومات يختارها الشعب بنفسه".

وفوق هذا كله، وهو الأهم، كانت هنالك النقاط الأربع عشرة التي وضعها الرئيس "ويلسون" والتي جـاء فيهـا أن أسس المستقبل في المعاهدات يجب أن تقوم على حق تقرير المصير للشعوب، وهو وعد أعطى العرب آمـالاً كبيرة، حتى لكأنه القصد الواضح من ذلك الوعد.

ولعل سائلاً يقول، كيف أمكن لكل هذه الفوضى والمتناقضات أن تدخل فـي علاقـات بريطانيـا وحكومـات الحلفاء؟ وهل كان لكل واحد من اولئك الساسة وجهان، حتى أنهم لم يهتموا إلاّ بما هو ملائم عند اغـداقهم تلـك الوعود؟ وهل عرضوا على العرب شيئاً لكي يجروهم إلى الحرب، ثم وافقوا علـى نقـيض ذلـك الـشيء مـع الفرنسيين، لكي يجعلوهم يواصلون الحرب بعد أن بدت نذر التفكك تهدد بخروج فرنسا من الحرب؟.

كلا، إن هذه الإجابات بسيطة وأجوبة سطحية، أما الحقيقة الفعلية، كما يراها الجانب البريطاني، فهي أنه كانـت هنالك ثلاث سياسات بريطانية مختلفة تنفذ في الشرق الأوسط، دون أن تجري أية محاولة لتنسق هـذه الـسياسات، وبدون أية معرفة حقيقية من جانب واضعي تلك السياسات بما كان يفعله غيرهم أو يعدوه به.

وقد أوضح ذلك السير "رونالد ستورز" في كتابه "الشرقيات" فقد كانت وزارة الخارجية في لندن تكرس جهـدها لتسكين قابليات فرنسا على التأثر، والموافقة على مطالبها، وكان المستر آرثر بلفور وزيـراً لخارجيـة بريطانيـا وقتذاك، وقد خضع لضغط صهيوني شديد من قبل الدكتور حاييم وايزمان بالنسبة إلى مستقبل فلسطين.

ولذا كانت وزارة الخارجية مسؤولة عن معاهدة "سايكس ـ بيكو" ووعد بلفـور. ومـن ناحيـة أخـرى كـان المندوب السامي البريطاني في مصر ـ يعمل بصلاحيات واسعة تتعدى صلاحيات الحكومـة المـستقلة، وكـان وقتئذ تواقاً لمساعدة القائد البريطاني العام على التخلص من الأتراك بأسرع ما يمكن ـ فهو يبذل الوعود للعـرب بمنحهم الاستقلال مقابل تعاونهم مع بريطانيا لتدمير الإمبراطورية العثمانية.

ثم وفي خضم هذين الخطين المتناقضين للسياسة، كانت هنالك حكومة الهند، وهي تمثـل مـستعمرة بريطانيـة مستقلة ذاتياً، وكانت لها مطامعها في بلاد الرافدين، على اعتبار أنها نقطة اتصال حيويـة فـي خطـوط دفـاع الإمبراطورية الممتدة من بريطانيا، عبر جبل طارق، مالطا ومصر حتى الهند والشرق الأقصى.

كانت مطالب نيودلهي تلقى تأييداً كبيراً في مدينة لندن حيّث كانت نظرات الطمع متحولة إلى الموصـل، لمـا كان يتوقع أن يوجد فيها من بترول، وما ستدره من واردات ضخمة.

إلى هذا القدر كتب عن خرق بريطانيا لتعهداتها للعرب وقيل عن انسحاب لورانس بعد الحـرب مـن ميـدان الشؤون العامة، وقد أرجع السبب في ذلك إلى ما نسب إلى بريطانيا من ازدواج في السياسة، وهذا أمر لا يمكـن استكناهه بمجرد لمحة خاطفة، لما يتضمنه من حقائق تحتاج إلى تبيان وشرح.

وتبدأ القصة في شهر نيسان سنة ١٩١٤، عندما زار الامير عبد الله القاهرة لإجراء محادثـات مـع اللـورد، "كتشنر"، المندوب السامي البريطاني في مصر آنذاك. وكانت الحكومة التركية في الآستانة قد أخذت تـشك فـي اسرة الشريف وكل أعمالها، وقد ازداد هذا الشك عندما علمت بزيارة الأمير، فأرسلت مبعوثـاً إلـى "كتـشنر" تطلب إليه عدم استقبال الأمير عبد الله.

وقد وافق المندوب السامي على الطب، ولكنه أمر "ستورز"، وكان يومئذ سكرتير المندوب السامي، بأن يقابـل عبد الله ويعرف منه ما يريد. وكان جواب عبد الله "البنادق" للدفاع ضد الأتراك، وقد أجاب "سـتورز" بوضـوح بأن مثل هذا الطلب لا يمكن إجابته من قبل حكومة على علاقة ودية مع تركيا. وعلـى الـرغم مـن أن سـحب الحرب كانت تتجمع في الأفق، وعلى الرغم من أن الاضطرابات قد أخـذت تـذر قرنـاه بـين شـريف مكـة والأتراك، فقد كانت هنالك حالة سلام ما تزال قائمة، ولا تستطيع بريطانيا أن تزج بنفسها في الخلافـات الداخليـة للامبراطورية العثمانية.

ولم يقل أي من الطرفين شيئاً أكثر من ذلك، حتى اندلعت نيران الحرب في شهر آب من السنة ذاتهـا، وعندئـذ بدأت حملات الدعاية الألمانية تستهدف جر تركيا والعرب إلى خوض غمار الحرب ضد بريطانيا وفرنسا.

وقد وصف الحلفاء بأنهم أعداء الإيمان، وأن الألمان هم الأوروبيون الوحيدون الذين يدافعون عـن الإسـلام. ولما كان الأتراك متألمين جداً من بريطانيا، لانها حلت محلهم في مصر، غدوا فريسة سهلة للدعايـة، وخاصـة عندما أصيب الحلفاء بنكسة في أول الأمر، مما جعل الأتراك يعتقدون بامكان إحراز نـصر علـى البريطـانيين

الذين كانوا يحتلون شريطاً رفيعاً من صحراء سيناء، وكذلك صلى المسلمون لقيصر ألمانيا في مـسجد دمـشق، ودعوه باسم "محمد وليام" أو "الحاج غليوم".

وكان واضحاً أن الأمر غدا مسألة اسابيع قبل أن تقع تركيا بأسرها في المصيدة، وتنضم إلى ألمانيا فيما دعـوه بالجهاد أو (الحرب المقدسة) التي كانت برلين تنادي لها.

فاذا أخذنا ذلك بعين الاعتبار أن اللورد "كتشنر" قد أصبح وزير الدولة لشؤون الحرب في الوزارة البريطانيـة، فقد أصدر تعليماته إلى "ستورز" في ايلول سنة ١٩١٤ من مقره في لندن بأن يبعث برسول إلى عبد الله، ليعـرف ما إذا كان الشريف حسين سيقف مع أو ضد بريطانيا، إذا ما خدعت تركيا ووقفت في الحرب إلى جانب ألمانيا.

وقد جاء الجواب مشجعا، وهو أن حسيناً وأولاده وشعبه سيقفون إلى جانب بريطانيا، ولنهم في كل الاحـوال لا يعتقدون بأن المانيا ستربح الحرب. وقد أبلغ اللورد "كيتشنر" بجواب الشريف حسين في الحـادي والثلاثـين مـن شهر تشرين الاول، مقروناً بشرط هو "إذا ساعد العرب بريطانيا في هذه الحرب، فعلى بريطانيا أن تضمن عـدم وقوع أي تدخل في شؤون شبه الجزيرة العربية، وأن تقدم للعرب كل مساعدة ممكنة ضد أي عدوان أجنبي".

وفي الثلاثين من تشرين الثاني سنة ١٩١٤، دخلت تركيا الحرب ضد الحلفاء، وبعد عشرة أيام أرسـل الحـسين رسالة إلى القاهرة يجدد فيها صداقته لبريطانيا، ولكنه أضاف يقول بأنه لم يقطع علاقاته بالأتراك بعد، وإن كـان يترقب مبرراً لقطعها.

ولم يقل أي من الطرفين كلمة أخرى، حتى نيسان سنة ١٩١٥، عندما اعلن الحاكم العام للـسودان أن بريطانيـا ستضمن عند الوصول إلى تسوية سلمية، نيل شبه الجزيرة العربية والاماكن المقدسة الإسلامية، اسـتقلالها، فـي ظل حكومة ذات سيادة.

وكان هذا الإعلان حذراً من ناحية الإشارة، أية اشارة إلى الحدود. وبعد ثلاثة أشهر، أي في حزيـران، سـعى شريف مكة لطعن حلفائه البريطانيين، فقد اقترح على السير "هنري ما كمـاهون" الـذي خلـف "كيتـشنر" فـي القاهرة، أن تعترف بريطانيا بحق جميع المناطق العربية في جنوب غرب آسيا بالاستقلال، باسـتثناء عـدن، كمـا يجب عليها أن تعترف بمطالبته بالخلافة التي ستجعله "بابا" الإسلام، بالإضافة إلى انه ملك العرب.

وكان رد "ماكماهون" غامضاً قصداً وجاء فيه أنه يرفض أن يلزم الحكومة البريطانية بتحرير منـاطق، الـدفاع عنها محكم، وخاصة تلك التي في غربي سوريا ودلتا بلاد الرافدين، ورجاه أن يـسمح لـه بالـسؤال عـن بقيـة طلباته الأخرى التي قدمها في اقتراحه.

وبعد حوالي سنة، وفي شهر أيار سنة ١٩١٦، أنذر الشريف حسين بمحاباة تركيا لمحـاولات الألمـان الـزج بالحجاز في الحرب، ومحاولة إنشاء محطة لا سلكية في منطقة البحر الأحمر، للاتصال بـالقوات الألمانيـة فـي شرقي إفريقيا، فبعث برسالة إلى القاهرة يطلب فيها إلى "ستورز" أن يحضر على جناح الـسرعة إلـى الحجـاز لمقابلة عبد الله.

وأضاف إلى ذلك قوله ان الحركة ستبدأ حالما يصل فيصل ـ وكان آنذاك محتجزاً في دمـشق ـ إلـى مكـة. وقد وصل "ستورز" إلى خارج الحدود الاقليمية المقابلة لمدينة جدة في الخامس من حزيران، حيّث اجتمـع مـع ابن الشريف، الذي ابلغه بأن الاضطرابات قد بدأت في ذلك اليوم بالذات بهجوم شنه كل من فيصل وعلـي فـي

المدينة المنورة، وقال له إن مكة ستهاجم في اليوم التاسع من حزيران، ولم تبحث في هذا الاجتماع، أية مواضيع سياسية أكثر من هذين الموضوعين، ولم يتقدم عبد الله بمزيد من الطلبات، سوى طلبه النقود والسلاح.

وكان فيصل وعلي قد صدا عن المدينة، ولكن بعد محاصرة مكة بأربعة أيام، استسلمت في الثالث عشر من حزيران، واستسلمت جدة بعدها بثلاثة أيام، وبعد ذلك، أصيبت الثورة بنكسة، نتيجة للنقص في التعاون بين بريطانيا والشريف، لولا ذلك الاندفاع والتشجيع اللذين شرع لورانس بتقديمهما بعد أن عين نفسه مبعوثاً خاصاً لدى فيصل.

وفي الوقت ذاته - كما يخبرنا ستورز في شرقياته - فان اللجنة البريطانية العليا، كانت تجهل أن مفاوضات معاهدة "سايكس - بيكو" قد تمخضت عن اتفاق على التقسيم الثلاثي للمناطق العربية في الامبراطورية العثمانية، بين بريطانيا وفرنسا وروسيا وإعطاء كل منها منطقة نفوذ، وكانت تلك الاتفاقية قد أبقيت سرية حتى فضح أمرها البولشوفيك بعد ثورة سنة ١٩١٧.

وفي الوقت ذاته، كانت حكومة الهند على وفاق مع ابن سعود، زعيم المذهب الوهابي الاسلامي المتطرف، والعدو الألد للاسرة الهاشمية، كما كانت منهمكة بوضع الخطط لاستعمار بلاد الرافدين، حالما يتم طرد الاتراك منها.

ولو أن أيا من هاتين السياستين المتناقضتين قد ابلغتا "ما كماهون" في الوقت الذي كان فيه قادراً - وهو الرجل الحازم - لكان من الممكن أن يوضح للشريف حسين أن بريطانيا لن تدعم أياً من مطالبه بصدد استقلال العرب، أو لربما أصر - تحت تهديده بالاستقالة - على ضرورة عدم إعطاء تعهدات متناقضة أو أية التزامات يخالف بعضها بعضاً من قبل بريطانيا لأي فريق ثالث.

ولكنه، كما حدث، بقي في الظلام بسبب الفشل في تنسق السياسة بين لندن والقاهرة ونيودلهي، وعندما فضحت هذه التناقضات أخيراً، أزيح من منصبه، ليتولى منصباً يقوم عن طريقه بمزيد من تهدئة خواطر العرب.

وليس هناك من شك في أن العرب يعتقدون، ويشاركهم الاعتقاد لورانس، بأنهم قد تعرضوا لخيانة البريطانيين، وبدون إيضاح من لندن، التي كانت في حالة من الفوضى فيما يتعلق بسياستها إزاء الشرق الأوسط التي كانت سائدة آنذاك.

لم يكن المندوب السامي مطلعاً على مجريات الأمور، ولم يكن بمقدوره إلاّ أن يقول بشيء من الغموض أي المناطق لن تنال استقلالها، الأمر الذي ترك العرب بحق في حيرة، وفسروها على أن كلا لمناطق، وليست مناطق معينة - كلها باستثناء غربي سوريا ودلتا بلاد الرافدين - ستنال استقلالها، كما وعد بذلك اللورد "كيتسشنر" وكما جاء في بيان حاكم السودان العام.

ولما تبع ذلك بيان القاهرة الصادر في حزيران سنة ١٩١٨، والبيان الانكلو - فرنسي، الذي صدر في تشرين الثاني التالي، كان العرب بطبيعة الحال قد اقتنعوا بأن البريطانيين سيؤيدونهم، مهما حاول الفرنسيون فرض حكمهم على البلاد العربية المتحررة.

كان هذا هو اعتقاد فيصل بكل تأكيد عندما التأم مؤتمر الصلح. وعند افتتاحه قـدم طلبـا يؤكـد فيـه مطالبـه باستقلال جميع البلدان العربية في آسيا: الحجاز، نجد، شرقي الأردن، فلسطين، سـوريا، بـلاد الرافـدين، علـى أساس أن هذه المناطق غير منفصلة من الناحيتين الجغرافية والقومية، ولم يثر أية عراقيل بشأن وعد بلفـور، بـل أكد أن الأمر يعود إلى هجرة اليهود إلى فلسطين، وإن كان قد عارض في إقامة دولة يهودية علـى ذات الأرض التي لا يمكن فصلها عن بقية العالم العربي.

وقد قال في رسالة إلى القاضي اليكس فرانكفورتر جاء فيها: "إن الغرب واليهود أولاد عم من ناحية الجـنس، وقد تعرضوا لاضطهاد متماثل... ومن حسن الحظ أنهم قادرون على القيام بالخطوة الأولى نحو بلـوغ أهـدافهم الوطنية معاً".

وكانت هذه الرسالة مبعوثة من باريس بتاريخ آذار سنة ١٩١٩. وقد أضاف إلى ذلك قوله: "إننا نتمنـى لليهـود كل ترحيب قلبي في بلادنا ... إن هناك متسعاً في سوريا لنا ولهم".

وقد يشك المرء في أن هذا الكلام، صادر عن لورانس أكثر منه عن فيصل، وكان لورانس يقدر تقديراً كبيـراً "حاييم وايزمان"، منذ أن التقيا في فلسطين بعد سقوط القدس، ليبحث مع الأمير المقترحات الـصهيونية الخاصـة بتوطين اليهود في الديار المقدسة، وكان على الدوام يعطف على الجنس السامي مـن اليهـود والعـرب، علـى اعتبار انه جنس يشكل وحدة كاملة.

وفي الوقت ذاته، كان لورانس وفيصل يعتقدان آنذاك بأن مثل هذا التأييد الأجوف للصهيونية يعتبر مـن حـسن السياسة على أساس أن هذا التأييد سيدعم أكثر فأكثر القضية العربية بين الوفود الأميركيـة والبريطانيـة، وذلـك عن طريق إظهار أن دولة عربية مستقلة لن تتعارض مع مصالح اليهود ومطالبهم.

كما فسراها لنفسيهما من وعد بلفور. ومن سوء حظهما، وحظ التاريخ، أن إذعانهما في فلسطين، لم يكن كافيـاً لتأمين الاستقلال للعرب، لأنه فشل في الحد من مطالب فرنسا في سوريا، وما كانت الهند مصممة عليه وتـأمين مصالح الغرب البترولية في بلاد الرافدين.

الفصل التاسع والعشرون

مأساة سوريا

في السادس من شباط سنة ١٩١٩ مثل فيصل أمام لجنة العشرة ليدافع عن قضيته، وكان لورانس معـه بـصفة مستشار ومترجم، وقدم الامير معظم مساهمة العرب في هزيمة الأتراك، وكان يغالي في بعض الأحيان مغـالاة كبيرة في عدد المقاتلين العرب الذين اشتركوا في الحرب، وفي عدد الإصابات التـي أصـابتهم، ولكنـه كـان مكشوفا في ذلك.

وعلى الرغم من أنه قد ولد ونشأ وسط مؤامرات ودسائس الشرق، إلاّ أنه لم يكن من المهارة والعـزم بمقـدار الدبلوماسيين الغربيين الذين قد قرروا الإطاحة به. وبينما كان البريطانيون يؤيدونه اسميا فـي مطالبتـه بـسوريا وضرورة استقلالها، فقد كانوا يعرفون أنهم لا يستطيعون على المدى البعيد اللجوء إلى الاسـتيلاء علـى بـلاد الرافدين، ومنع الفرنسيين من أخذ سوريا.

وثمة تعقيد آخر يكمن في الموضوع، وهو أنه بموجب تقسيم بلاد العرب الذي اتفق عليه في معاهدة "سـايكس ـ بيكو" بأن آبار النفط في الموصل كانت تقع في المكان الذي أعطي للفرنسيين ليكون منطقة نفوذ لهم يديرونـه كيف شاؤوا.

وكما كان متوقعاً، فقد قام "كليمنصو" بالقاء هذه الورقة الرابحة، لتطلق يده في سوريا، وبينما كان فيصل يـدافع الدفاع الأول أمام "صانعي السلام!" كانت القوات البريطانية تخلي غربي سوريا للقوات الفرنسية، وكـان أقـصى ما يمكن انقاذه من الحطام لا يعدو داخل سوريا وربما دمشق.

وقررت بريطانيا أن تتفق على هذا، عندما اقترب المؤتمر من ربيع سنة ١٩١٩، فراحت توقـع كـل ضـغط ممكن على فرنسا لكي توافق هي الأخرى، غير أن جميع تلك المحاولات ذهبت سـدى، فقـد كـان "كليمنـصو" يعرف قوة مركزه، ولذلك أصر بعناد على تقسيم سوريا إلى منطقتين، القسم الساحلي ليصبح مـستعمرة فرنـسية والقسم الداخلي محمية فرنسية.

وقد ناضل لورانس يائساً لإحباط هذه الخطة، مستعملاً كل قوة يمكن أن يتصورها العقـل، حتـى لقـد انتهـز فرصة مقابلة خاصة له مع الملك جورج الخامس، تلك المقابلة التي كان من المقرر أن يمنح فيها وسـام ربطـة الساق، وحاول أن يثير العطف على قضية فيصل. ورفض لورانس قبول أية مكافأة من ملكه وسيد الـبلاد الـذي جعل منهم جزءاً من خيانة بلاده للعرب، وهكذا غادر القصر غاضباً.

وعاد لورانس إلى باريس وتوجه مع فيصل لزيارة الكولونيل "هوس" يد الرئيس ويلسون اليمنى، لحثه علـى أن تتدخل الحكومة الأميركية وتنشئ انتدلباً على سوريا، ولكن هذه المحاولة لم تفلح، فقـد ارتـدت إهانـة لـورانس للملك ارتداداً فظيعاً عليه، مثيرة السخط أكثر مما هي مثيرة للعطف في بريطانيا.

والأدهى من ذلك أن أقصى ما يمكن للوفد الأميركي أن يلزم به نفسه هو أن يقترح إيفـاد لجنـة تحقيـق مـن الحلفاء إلى سوريا، وكان لهذا الاقتراح نظراً لافتقاره إلى تأييد بريطانيا ومعارضة فرنسا العنيفة له، اثـره فـي التأثير على جميع اللجان الأميركية، التي تقدمت بمقترحات لتوحيد سوريا وتنصيب فيصل ملكـاً عليهـا. وكـان نصيب كل هذه المقترحات هو التجاهل.

ثم جاءت ضربة أخرى موجهة إلى لورانس ومجهوداته، فقد شبت إضطرابات فـي بـلاد الرافـدين، عنـدما حاولت القبائل أن تقاوم الحكم البريطاني، مدفوعة من حكومة الهند. وبعـد أن أخمـدت هـذه الاضـطرابات، اكتشفت السلطات البريطانية المحلية أن مشعلي الفتنة قد مولوا الاضطرابات بأموال منحتها بريطانيا إلى شـريف مكة، وشجعت على نطاق واسع بدعاية من دمشق حيّث كان الأمير زيد الذكي، إلاّ أنه لـيس بالرجـل الناضـج، ينوب عن فيصل، والذي وجد نفسه ليس بأصلح في السيطرة على العناصر المتطرفة في بلاده، مـن شـقيقه فـي معالجة ما يسمون أنفسهم بالحلفاء في باريس.

وليس بالامكان أن يحدث كل هذا في لحظة أسوأ من تلك اللحظة بالنسبة إلى فيصل، فقد كان أولئك المتنفـذون في وزارة الخارجية البريطانية، وعلى رأسهم اللورد "كورزون" ممكن كانوا يدافعون عن المـصالح البريطانيـة على حساب العرب، في وضع يمكنهم من المناقشة والمجادلة والادعاء بأن الإخلاص للشريف وقـضية العـرب لن يدمر التحالف الانكلو ـ فرنسي فحسب، بل وسيمكن انتصار الوطنيين العرب الذين يعارضـون فـي النفـوذ

الأوربي والغربي ومصالح الغرب في جميع أرجاء الجزيرة العربية، ومنذ ذلك الوقت أصبح موضـوع خـذلان الأمير موضوع وقت.

وفي أيار سنة ١٩١٩، وقبل أن يتم تقرير أي شيء بالنسبة لمصير سوريا، عاد فيـصل إلـى دمـشق ليقابـل بالهتافات من اشياعه والعبوس من الفرنسيين، ولم يقابل لورانس بأية هتافات عندما عاد إلى موطن طفولتـه فـي اكسفورد. وكان والده قد توفي مؤخراً، ووجد أن اثنين من أشقائه قد قتلا في الحرب، وكانت أمـه تعـد نفـسها للسفر إلى الصين مع أخيه الأصغر "بوب" في بعثة طبية.

وعلى الرغم من أن ما كتبه ونشره يروي الشيء القليل عن حالته النفسية في ذلك الحين، إلاّ أنه مـن الواضـح ـ من سلوكه ـ أن فشله في باريس كان يأتي على رأس ما يعانيه من آلام نفسية، وعـذاب جـسماني، ومـرارة فشله في تحقيق أطماعه التي يكرس لها سني الحرب.

حتى ليمكن القول بأن ذلك الفشل قد أوصله إلى الإنهيار الكلي، فكان يجلس ساعات طـوالاً دون أن يتحـرك، وفي نفس الإتجاه، وعلى وجهه تعبير العذاب لا يتغير.

وبعد فترة لم يعد بمقدوره أن يتحمل ذلك أكثر مما تحمله، فقرر أن يسافر إلى مصر ليجمع أوراقه وغير ذلـك مما تركه هناك في غمرة إسراعه بالانسحاب من دمشق.

وكانت الطائرة التي سافر عليها نوعاً من قاذفات القنابل، ولكنها في حاجة إلى كثير مـن الإصـلاح، ولـذلك اضطرت للهبوط هبوطاً اجبارياً في إيطاليا، وقتل في ذلك الحادث الملاحان اللذان كانا فيها.

وعلى الرغم من أن جراحه كان تشتمل على كسر في الضلع وآخر في عظم الترقوة، إلاّ أنـه اسـتقل طـائرة أخرى وواصل رحلته إلى القاهرة، حيّث قابله موظف بريطاني يعمل وفقاً لتعليمات وزارة الخارجيـة، فـسأله أن يقدم له تأكيدات بأنه لن يسافر إلى سوريا ويحدث مشاكل هناك للفرنسيين.

وكانت أخبار رحلته قد بلغت مسامع المسؤولين في الحكومة الفرنسية، الذين على ما يبـدو، حملـوا تهديداتـه التي أطلقها في باريس على محمل الجد، بينما كان هو يمزح. وأحد هذه التهديدات قاله مباشرة إلـى "كليمنـصو" والمارشال "فوش" وهو قوله إنه سيحمل السلاح ضد فرنسا، ولن يتركها تستولي على سوريا.

وبعد أسابيع قليلة عاد لورانس إلى باريس ليقوم بمحاولة أخيرة لانقاذ سوريا التي يحبها مـن سـيطرة فرنـسا. ولكن مجهوداته باءت بالفشل مرة أخرى، فعاد إلى لندن ليدافع عن سـوريا أمـام "لويـد جـورج" والـوزارة البريطانية، ولكنه أبلغ بكل برود أن يصالح الحكومة الفرنسية، وقد عملت بريطانيا كل مـا بوسـعها لـه، وهـي ليست مستعدة لاغضاب أفضل اصدقائها في اوروبا من أجل العرش الذي يريد إيجاده.

وكانت الحكومة البريطانية توشك أن تتلقى وثيقة الانتداب على بلاد الرافدين وامتياز التنقيب عن البتـرول فـي الموصل، وفي مقابل ذلك كان يتحتم عليها أن توافق على منح فرنسا وثيقة الانتداب على سوريا كلها.

هذا وقد استثني لورانس، أو لعل الأصح أنه استبعد، عن المناقشات التي دارت مع الأمير بموجـب تعليمـات رئيس وزراء بريطانيا الخاصة، ولربما كان ذلك أفضل بالنسبة له، وعلى الأقل لأنه انقذه مـن أن يـرى إهانـة فيصل الأخيرة، ولكنه ثار وبعث برسالة إلى جريدة "التايمس" اللندنية كـشف فيهـا النقـاب عـن جميـع نقـاط المناقشات التي حاول عبثاً إقناع مؤتمر باريس بها طوال الأشهر التي انقضت على انعقاده.

وخرج عن تقاليد الرجل البريطاني عندما ربط وسام "كويكس دي كوري" الفرنسي إلى طوق كلب من طـراز "هوغارث" وعرض الكلب في شوارع اكسفورد.

❀❀❀❀❀❀

وتصالح فيصل مع "كليمنصو" ثم عاد إلى دمشق بشروط جعلت منه شخصاً هو دون رئيس ولايـة اقطاعيـة. والحقيقة أنه ما كان ليسمح له بالعودة إلى سوريا على الإطلاق، لـولا أن الـسلطات الفرنـسية المحليـة كانـت مشغولة آنذاك بقمع محاولة قامت بها بعض الوحدات التركية، ممن لم تحل بعد، لإعادة الحكـم العثمـاني إلـى مناطق الحدود في سوريا الشمالية. وبينما كانت هذه السلطات منهمكة في تلك العمليات، اقترح المـسيو "جـورج بيكو" على الحكومة، بأنه لكي تضمن أقل المشاكل مع العرب، فلا بأس من اختيـار أهـون الـشرين والـسماح لفيصل بالعودة إلى دمشق، على أساس أنه اقدر من يستطيع كبح جماح المتطرفين، وقال: إنه كلما قلت مـشاكلنا مع العرب كلنا أسرع في قمع الاضطرابات.

وقد لعب فيصل لمدة أشهر دوره بكرامة وتحفظ، ثم وفي شهر آذار سنة ١٩٢٠ نفذ صـبر العـرب وفقـدوا أعصابهم، فقد كانت سوريا وبلاد الرافدين، أو العراق، كما كانت ستسمى من جديد، قد حررتا من الأتراك قبـل ثمانية عشر شهراً، ومع ذلك لم تكن هنالك في الأفق أية بارقة توحي بأن العرب سينالون أي استقلال حقيقي.

وكانوا ما يزالون دون ملك في بلادهم، كما أن "محرريهم" يفرضون عليهم سـلطاتهم بطريقـة لا تقـل عنفـاً وجرحاً للكرامة العربية عن تلك التي كانت الإمبراطورية التركية تتبعها. ولذا فقد اجتمع مـؤتمر عربـي فـي دمشق، وقرر العمل على تأكيد حقوق العرب، وأعلن تعيين فيصل ملكاً على سوريا وشقيقه عبد الله ملكـاً علـى العراق.

واحتجت فرنسا بشدة على هذا الإعلان واعتبرته تحدياً، ودعت بريطانيا لتشترك معها فـي إبطـال الإعـلان، وابدى "كرزون" استعداد الفوري لتأييد فرنسا، وشجبت الدولتان معاً ذلك القرار الذي اتخـذه المـؤتمر، وأمـر فيصل بشكل حازم، أن يحضر مؤتمر "سان ريمو" حيّث تسوى جميع هذه المشاكل من قبل فرنسا وبريطانيا.

وانعقد المؤتمر في الشهر التالي، ولم يتردد في منح فرنسا حق الانتداب على سوريا، وبريطانيا حق الانتـداب على العراق وفلسطين، وتخلت فرنسا عن مطالبتها في حقول زيت الموصل، فالحقت المنطقة بمنطقـة الانتـداب البريطاني.

وهكذا انتصرت فرنسا، وأصبحت أيام فيصل معدودة، ولم يكن ينقص السلطات الفرنسية فـي بيـروت غيـر الذريعة للإطاحة به. ولم يطل الامر بالمسيو "جورج بيكو" ليجد تلك الذريعة، فقد جوبهت بريطانيـا فـي أوائـل شهر تموز بنشوب اضطرابات جديدة بين القبائل في وادي الفرات، فكانت تلك إشارة إلى المتطرفين في سوريا.

وكانت خطوط السكة الحديدية الفرنسية، بين حلب والقوات الفرنسية المرابطة في سوريا الشمالية قد أصـبحت مهددة، وقد أرسل الجنرال "غورو" القائد الفرنسي العام، والقائد العالم السابق في السودان، والذي عرف بقـسوته في معالجة مثل هذه الامور، أرسل إنذاراً فظاً إلى فيصل طلب فيه ضمان حرية استعمال تلك الخطوط. ونظـراً لما كانت فرنسا تبيته من تصميم، فقد أمر "غورو" القوات الفرنسية بالزحف على دمشق.

وقد تردد الأمير في بادئ الأمر اعتقاداً منه بأن البريطانيين، وقبل كل شيء صـديقه "اللنبـي"، لـن يـسمحوا للفرنسيين بالتمادي في هذه المعاملة مع حلفائهم العرب. ولكن القرار لم يعد بيد "اللنبي".

وكان من الضروري سؤال لندن عن التعليمات الواجب اتباعها. وفي الوقت ا لذي وصل فيه نداء فيصل إلـى القاهرة، كانت لندن في ذلك الوقت مضطربة جداً ومهتمة بأحداث العراق، وكان الآلاف من الجنود البريطـانيين يشتركون في عمليات القمع، كما أن تكاليف تهدئة البلاد بلغت أكثر من ٣٠,٠٠٠,٠٠٠ جنيها سنوياً، ولذلك فقـد تساءلوا في "الوايت هول: كيف يمكن لبريطانيا أن تتخذ أشد إجراء لمعالجـة تمـرد يـؤثر علـى مـصالحها، ومعارضة فرنسا في اتخاذ إجراءات مماثلة لتؤمن مركزها؟ وبالاضافة إلى ذلك، ألم يثبت في المـرة الأخيـرة، عندما نشبت الاضطرابات في العراق بأنها قد شجعت من دمشق ومولت من مكة؟.

وابلغ "اللنبي" بألا يتدخل وأن يدع فيصل يخوض معركته وحده. وقد وقعت مهمة إبلاغ هـذه الأنبـاء القاسـية للأمير على سئ الحظ "كيرك برايد" الذي قال بأن فيصل قد تصرف كالطفل عندما تلقى جواب بريطانيـا ، ففـي غمرة تأمله من هذه الأخبار، نسي كل كبريائه له، وراح يبكي ويلعن حظه العاثر وخيانة حلفائه لقضيته.

ولما استرد وعيه، قام الأمير بمحاولة أخيرة للتفاوض مع الفرنسيين. فبعث ببرقية إلى الجنرال "غـورو" طلـب إليه فيها وقف زحف القوات الفرنسية على دمشق تجنباً لسفك الدماء، ولدراسة المطالب الفرنسية في فـسحة مـن الوقت.

ولكنه لم يتلق جواباً على هذه الرسالة واستمر الزحف الفرنسي. وبعد يومين سلم تحـت شـروط، فقـد بعـث ببرقية أخرى قال فيها إنه لن يقاتل، ولنه قبل الإنذار الفرنسي بحـذافيره، ولـم يطلـب إلاّ أن يتراجـع الجـيش الفرنسي عن المواقع التي احتلها مؤخراً. غير أن الفرنسيين كانوا قد امتلأوا غيظاً، ولم يعد هناك ما يوقفهم عـن احتلال دمشق، وطرد فيصل من سوريا. ان تلغراف الاستسلام قد "ضـاع" ليتـيح ضـياعه الفرصـة للقـوات الفرنسية كي تصل إلى العاصمة السورية، وتهزم القوات الأمير التي تقدمت لمواجهتها.

ثم .. وفي السابع والعشرين من تموز تلقى الأمير رسالة فظة، تطلب منه أن يتخلى عن مركـزه، ولـم يجـئ فيها أي ذكر لقبوله إنذار "غورو"، وابلغته بأن ثمة قطاراً سينقله صباح اليوم التالي إلى فلسطين.

وانتشرت أخبار قرب مغادرة فيصل للبلاد حول دمشق انتشار النار في غابة، ونجـم عـن ذلـك اضـطرابات ومظاهرات، اخترقت شوارع دمشق، لأن الذي خاطر بحياته من أجل ملكه أثناء الاحتلال التركي، ثم أنقـذه مـن محاولة الانقلاب التي قام بها عبد القادر، لن يقبل منه أن يسلم نفسه ولا شعبه إلـى أطمـاع اسـتعمارية وعـدو غاصب.

وقد قام الدمشقيون بمحاولة يائسة أخيرة، فتجمعوا بأعداد كبيرة لسدّ الطريق أمام فيصل ومنعه مـن الخـروج من المدينة، ولكن فيصلاً لم يكن يرغب في المقاومة فأمر قواته النظامية بقيادة نوري السعيد أن تشق له طريقـاً بالقوة خلال الجماهير التي كانت ترفع عقائرها بالاحتجاج.

وبعد أيام قليلة وصل القدس، منتصب القامة، ولكنه حزين الملامح، يرد دموعـه التـي كانـت علـى وشـك الانحدار من مقلتيه، وسمح له باللجوء، تحت الحماية البريطانية.

فاذا كان ما أصاب فيصل في سوريا من إذلال يمكن اعتباره بالشئ القليل، إلاّ أن ما أصاب والده مـن سـوء حظ لم يكن يتوقعه، كان أكثر بكثير من نصيب فيصل، فقد انتخب فيصل ليكون ملكاً على العراق بعد سـنة مـن

طرده من سوريا، أما والده، فقد خلع بعد أربع سنوات وفقد عرش الحجاز ونفي، دون تعـويض مـن أي نـوع كان.

وكان الشريف العجوز قد تكدر كثيراً لتسليم ابنه بالشروط الفرنسية، بعد عودته إلى سوريا من مؤتمر الـصلح، كما أنه قد جرح لخيانة الحلفاء له ونكثهم وعودهم وتخلفهم عن تنفيذ تعهداتهم له.

ولذلك فقد قرر أن يقوم بمحاولة أخيرة ليؤكد استقلاله وسلطانه في العالم الاسلامي. فأعلن بأنه الخليفة و"ملـك الأراضي العربية". ولكنه لم يرتكب أكثر من هذا الإجراء حماقة، إذ أن عدوه القديم، ابن سعود كان منـذ مـدة يتطلع إلى الحجاز بنظرات طموح معتبراً نفسه واتباعه من الوهابيين، الحرس الوحيدين للأمـاكن المقدسـة فـي مكة والمدينة.

وهكذا فقد أعطاه إعلان حسين هذا عذراً ليقوم بحملة عنف ودعاية، واخيراً إعلان الحرب ضد حكم الـشريف، الذي انتهى باتحاد الحجاز ونجد في مملكة واحدة وهي المملكة العربية السعودية، الأمر الذي خلق عداء سـعودياً ـ هاشمياً ما يزال قائما حتى هذا اليوم.

وفي شهر تموز سنة ١٩٢١، وأثناء انعقاد مؤتمر القاهرة، أرسل لورانس إلى جدة ليحـاول إقنـاع الـشريف بالاعتدال في مطالبه والتوقف عن تحريض جيرانه، وخول صلاحياته التفاوض لعقد معاهـدة لوضـع الحجـاز تحت الحماية البريطانية، إذا ما استطاع الشريف أن يتبنى سياسة المصالحة.

غير أن الشريف لم يكن من السهولة بحيث يشترى بأي عرض بريطـاني، وبعـد سلـسلة مـن الاجتماعـات العاصفة، توقفت المفاوضات، وتوجه الشريف إلى مكة حيّث حجز نفسه هناك، تاركاً لورانس ولا سـبيل أمامـه غير العودة إلى القاهرة.

وارتكب الشريف خطأ آخر عندما أمر ابنه عبد الله بقيادة حملة من أربعة آلاف رجل، يتوجه بهـا إلـى نجـد ليؤكد نفوذ خليفة مكة الجديد. وسرعان ما اشتبكت قوات عبد الله مع الوهابيين، فأبيد معظمها في مذبحة بـشعة، ونجا عبد الله نفسه من الموت أو الأسر بأعجوبة.

لقد كان الشريف طموحاً أكثر مما يجب، كما أن ابن سعود كان مصمماً على إلاّ يقف حتى يطهر الحجاز مـن الهاشميين، وكل الذين اساؤوا إلى سمعة شبه الجزيرة العربية بتحالفهم مع "الكفرة".

وفي سنة ١٩٢٤ خلع حسين وحمل إلى قبرص، تاركاً ابنه سئ الحظ علياً ليدافع عن جدة، آخر معقـل حـصين في وجه الوهابيين المنتصرين. وعلى الرغم من أن بريطانيا كانت ممولة سخية للشريف.

فقد رفضت أن تشترك في النزاع مع ابن سعود. ولذلك فإنه ما إن انتهت الذخيرة حتى انتهت الحرب، وسـلمت جدة وهرب علي إلى العراق، حيّث قدم له شقيقه فيصل بيتاً يعيش فيه طوال حياته في المنفى.

ولقد جر الشريف العجوز المصاعب على نفسه، وهناك قلائل بكوا على هزيمته النهائية، فقـد سـمح لـشكوكه الخاصة، أو لشكوك اولئك الذين يحيطون به، بأن تسيطر على أعماله، تلك الأعمال التي كثيراً ما كانت خاطئة.

لقد رفض أن يساعد ابنه عندما كان يحمل عبء الثورة العربية على كتفيه الضعيفتين، بـل لقـد تـآمر ضـد فيصل، وحرض جنوده على التمرد في أحرج اللحظات، وكذلك فقد نسف نفوذه في مؤتمر الصلح.

وأخيراً، قام عندما كان فيصل يحاول أن يعيش على السراب والنتائج غير المؤكدة لمجهوداته الخاصة في باريس، قام بالتخلي عنه وأعلن استقلاله، بوصفه الخليفة، وملك شبه الجزيرة العربية، الأمر الذي أثار ضده زعيماً آخر من زعماء شبه الجزيرة العربية، بينما كان ابنه الذي يأمل في مساعدته يجلس على عرش مملكة أخرى.

وثمة عمل آخر قام به الشريف حسين يبعث على الدهشة، إذ أنه بعد وصوله إلى قبرص منح من قبل الحكومة البريطانية وسام الصليب الكبير لنوط ربط الساق، وهو نفس الوسام الذي رفضه لورانس من مليكه احتجاجاً على خيانة بريطانيا لتعهداتها للشريف.

والغريب أن الشريف قبل الوسام من يد "رونالد ستورز" الذي كان يشغل عندئذ منصب حاكم جزيرة قبرص، والذي كان خادماً للورانس طوال الثورة العربية، والمحرض الرئيسي لبريطانيا على التخلي عن تعهداتها بالنسبة للحركة العربية.

الفصل التاسع والعشرون

عودة إلى النور

بعد أن تداعت كل أحلام لورانس، وأحس بالتنكر لكل ما حارب من أجله، من الجائز أن يكون الشيء الذي يريده أكثر من أي شيء آخر، هو أن يعود للاختفاء عن الناس ونسيان الماضي.

وصحيح أنه كان يستمتع بنظرات الحسد والإعجاب، التي كانت تلاحقه وهو يرافق فيصلاً إلى مؤتمر باريس وأثناء تجواله اليومي معه، وكان يرتدي ملابس بيضاء مذهبة كتلك التي يلبسها امراء مكة، إلاّ أنه كان يفعل ذلك خصيصاً ليلفت انظار الحاسدين والمعجبين بين الجموع، كما أنه كان يسر عندما يعرف بأنهم يتحدثون عنه على اعتبار أنه "الملك غير المتوج" لشبه الجزيرة العربية.

غير أن استمتاعه ذاك لم يكن كله بدافع من زهوه، ولطالما كان يسخر من اولئك المعجبين به، ويصفهم بأنهم مجانين أو مخدوعون بمظهره السحري.

وكذلك فإنه عندما كان يسخط على أولئك الذين ينظرون إليه بعين الحسد، كان لا يستطيع إلاّ أن يحتقر نفسه. ولكنه كان يرد نظراتهم بمثلها لينتزع منهم كلمات الاطراء والثناء.

وأما مهمته في شبه الجزيرة العربية فقد انتهت إلى فشل وخيانة وكارثة، ومهما كان "الرجل، الذي يعترف بأنه يتمتع، فأن "المظهر العبقري" الذي كان يظهر به لم يكن ليساوي شيئاً لبلاده، ولا له شخصياً.

يومذاك بدأ يكتب مذكراته الخاصة عن الثورة العربية والدور الذي لعبه بها. وقد نشرت المسودة الأولى من كتابه "أعمدة الحكمة السبعة" أثناء الجو المحموم الذي كان يسود مؤتمر الصلح، وكان يأمل عند عودته إلى لندن في نهاية سنة ١٩١٩ أن يتمكن من الحصول على قليل من الهدوء والسلام لينهي هذا العمل الكبير.

ولكن الأمور لم تجل على هذا المنوال، وكان السبب في ذلك صحفياً اميركياً يدعى "لويل توماس"، أو الرجل الذي قدر أن يكون الشخص الذي يريد أن يجعل من لورانس اسطورة في كل البلاد الناطقة باللغة الانكليزية.

فقد أرسل "توماس" من أميركا في سنة ١٩١٧، كمراسل حربي، من قبل جماعة من مؤيـدي الحلفـاء، ممـن يرغبون في الحصول على مادة دعائية دسمة لنشرها في الصحافة الاميركية، بقصد تشجيع أميركا علـى دخـول الحرب ضد الألمان.

ولما وصل إلى فرنسا لم يجد أي شيء سوى بحور من الطين ومناظر المذابح، وهذه لا تكفـي للمهمـة التـي أوفد من أجلها.

وقد نصحه بعضهم بأن يجرب الشرق الأوسط، حيّث سيكون من الممكن مع قيام الثورة العربية وبلـوغ حملـة "اللنبي" القمة، أن يجد ميادين أكثر لنجاح مهمته.

ووصل "توماس" إلى فلسطين، وعلى الأثر قدم إلى لورانس بوساطة "رونالد ستورز" ثم حاكم القـدس. وكـان هذا ما يريده بالضبط، وهل أفضل من أن يقابل بطلاً بريطانياً خيالياً يعمل في الصحراء!.

وقد ترك "توماس" خيالاته تجري بسرعة متأثراً من بضع مقابلات مع لورانس وزيـارة إلـى العقبـة لرؤيـة معسكر فيصل. وكان لورانس يعجب من المهمة التي يقوم بها "توماس" ويعجب بصورته وهو يرتـدي الملابـس العربية. ولذلك راح يملأ أذنيه المتشوقتين بتفاصيل براقة عن دوره في الثورة وعن اخلاق وطبائع العرب.

وقبل "توماس" كل ذلك، وبعد زيارة قصيرة إلى البتراء، عاد إلى الولايات المتحـدة ليكتـب مقالاتـه، ثـم ... وعندما انتهت الحرب، قرر أن يجمع كل ما كتبه، وأن ينظم سلسلة من المحاضرات في نيويورك، وغيرهـا مـن بلدان الولايات المتحدة.

وكانت تلك المحاضرات مصورة، يعرض خلالها صوراً في الفانوس السحري وافلام سينمائية وكانت بعنـوان "مع اللنبي في فلسطين ولورانس في شبه الجزيرة العربية".

وبطبيعة الحال برز لورانس كبطل صليبي ذي أخلاق رفيعة وشجاع وشريف.

ومنذ أول محاضرة القاها "توماس" في ـ ماديسون سكوير غاردن ـ لاقى نجاحاً كبيراً، وبـدأ اسـم لـورانس يلمع على صفحات الجرائد الأميركية.

وكان ذلك العصر عصراً لا يحب المزاح، كما أن أهله كانوا يفضلون في أبطالهم الاستقامة ولمعـان الاسـم، دون أن يكون معقدين أو يناقض الواحد منهم نفسه.

وقد حضر إحدى محاضراته الأولى رئيس فرقة موسيقية بريطاني يـدعى "بيرسـي بورتـون" فاسـتغرب أن يعرف الجمهور الأميركي عن بطل بريطاني، ما لم تغن له اناشيد المدح في بلاده بالذات.

فعرض على "توماس" أن يعرض أعماله في لندن، بحيث تعرف بريطانيا أيضاً عظمة واحد من ابنائهـا. وقـد أجاب "توماس" مازحاً بأنه على استعداد للشخوص إلى لندن، إذا ضمن "بورتـون" لـه تخـصيص دار الاوبـرا الملكية مكاناً لمحاضراته، واذا جعل ملك انكلترا يحضر تلك المحاضرات. وبعد شهر أبرق "بورتون" من لنـدن يقول، بأن الطلبين قد أجيبا واتخذت الترتيبات بشأنهما.

وأخذ توماس يعرض صوره بالفانوس السحري من شهر أيلول سنة ١٩١٩ حتى بداية سنة ١٩٢٠ ، في اوبـرا "كوفينت غاردن" وقاعة "البرت" أمام نظارة بلغ عددهم أكثر من مليون، بينهم وزراء، وجنـرالات، واميـرالات، وسفراء، وزعماء ورؤساء المجتمع في بريطانيا.

وطلب منه الملك جورج عرضاً خاصاً. ومن لندن سافر "توماس" إلى الكومنولـث البريطـاني، حيّـث تـابع محاضراته المذهلة، واستمرت جولته أربعة أعوام. أما بالنسبة إلى لورانس فقد أنقلب بين ليلـة وضـحاها إلـى شخص ينشد وده، على اعتبار أنه بطل وأسطورة، أسطورة خلقها ذلك الرجل الذي اعترف فيما بعد مـن تلقـاء نفسه، بأنه كان في كثير من الحالات مخدوعاً بالبطل الذي صنعه.

وقد أثار هذا الثناء المفاجئ شعوراً مختلطاً عند لورانس، ولم يستطع أن يقاوم الاغـراء الـذي كـان يتملكـه للذهاب بنفسه ورؤية الدعاية التي تجري له، فتوجه وجلس في ظلال القاعة، بينما كـان "لويـل تومـاس" يقـدم محاضرته المصورة.

وقد ذكر "توماس" أن لورانس قد قام بخمس أو ست زيارات من هذا القبيل، ومع ذلك فـإن لـورانس بعـد أن حضر المحاضرة الأولى كتب إلى الصحفي الأميركي يقول: "لقد حضرت عرضك ليله أمس، إنني أشـكر الله ن النور قد انطفأ".

وبد أيام قليلة، أخبرنا "توماس" بأن لورانس قد توجه لمقابلته، ورجاه بأن يعود إلى أميركـا وأن يتوقـف عـن إطلاع الجمهور على ما فعله في البلاد العربية، وقال إنه أصبح عرضة للملاحقة من قبل الـصحف والناشـرين وجامعي التواقيع، ومن قبل سيدات يبغين الزواج منه، واللواتي كن، كما قال، "أشد هولاً عليه من جـيش تركـي باكمله".

وعلى كل فإن لورانس قد أبدى عدم ارتياح لأن يصبح، كنتيجة لمحاضرات "توماس" أكثر الناس فـي بريطانيـا عرضة للمصورين والرسامين في ذلك العصر. وعلى العكس من ذلك، فإنه قلمـا زار الأروقـة التـي كانـت تعرض صورة فيها، وقلما أحب الوقوف أمام الرسامين، ولكنه وجد متعة فائقة في الملاحظة الفجائية التي اولـوه إياها أناس مشهورون مثل اللورد "كورزون" فانتهزوا كل فرصة لتشجيع الادباء من امثال "جورج برنـارد شـو" و"أي. م. فورستر" و"توماس هاردي" و"إدوارد غارنيت" وكذلك مشاهير الفنانين من أمثـال "أوغـسطس جـون" و"اريك كنيتغون" على الكتابة عنه أو رسم الصور له.

لقد كان لورانس محباً للشهرة، ولكنه ك ان لسبب ما يخشاها، وكما قال "لويل تومـاس" بعـد وفـاة لـورانس مستشهداً بمثل تركي يقول: "إنه يملك عبقرية تؤهله للعودة إلى النور". ولقد ذاعت شـهرة لـورانس، وأعمالـه البطولية، في مختلف انحاء العالم، وأصبحت له سمعة يحسد عليها، حتى أصـبح يقـارن بكـل مـن الاسـكندر ونابليون، وقال كثيرون إنه وحده هو الذي قضى على الامبراطورية العثمانية.

وأخيراً، فإن هناك شيئاً واحداً مؤكداً، وهو أن تحوله إلى أسطورة قد أرضى شخصيته أو ذاتيته، ولكنه لم يعـد إليه احترامه لنفسه، وكذلك فقد أرضى زهوه وكبرياءه، ولكنه تركه أكثر يأساً وحاجة إلى نـسيان تلـك الأشـباح التي كانت تلاحقه من صحراء شبه الجزيرة العربية.

الفصل الثلاثون

كفارة في شبه الجزيرة العربية

تدهورت الأمور في صيف سنة ١٩٢٠ من سئ إلى أسوأ بالنسبة للعرب، وخاصة بالنسبة لفيصل، ولما بدأ لورانس في تأليف كتابه، رد كل شئ، مصحوباً بنقد شديد، ومرارة بالغة إلى الفرنسيين، وأولئك البريطانيين الذين كانوا يتولون السلطة، واتهمهم بخيانة اصدقائه العرب.

وكان لورانس خلال الاشهر القليلة الماضية يعيش في أوكسفورد، حيّث قدم له أحد أصدقاء الدراسة مكاناً هادئاً يأوي إليه ويبتعد عن إزعاج الصحافة، وحيث يخلو إلى ذكرياته. ولكن عندما ذهب فيصل إلى المنفى، خرج لورانس من المكان الذي كان يختبئ فيه، مستخدماً مركزه الجديد إلى اقصى حدود الاستخدام.

وراح يقرع أبواب كبار المسؤولين في "الوايت هول" ابتداء من "لويد جورج" فنازلاً. وقد قوبلت كل محاولاته تقريباً بالتجاهل التام، غير أن هناك استثناء واحداً يجب أن نحسب له حساباً، ممثلاً في شخص "وينستون تشرشل" الذي كان على وشك أن يصبح وزيراً للمستعمرات، وكان قد قابل لورانس في باريس فآمن به.

وفهم "تشرشل" أكثر من أي عضو في الوزارة البريطانية الأسباب التي تكمن وراء التوتر البالغ الذي كان يسود يومئذ منطقة الشرق الأوسط. فقد كان "المكتب العربي" في القاهرة يبذر الثورة والقومية العربية ضد الأتراك والبريطانيين فأخذ يحص ثمار ما بذر في العراق.

ولم تكن بريطانيا تتوقع من العرب ان يختاروا بين نوع من الحكم الأجنبي ونوع آخر. وأن يقبلوا بكل هدوء الاستسلام لبريطانيا (أو لفرنسا) بدلاً من الأتراك، وخاصة بعد أن اضطرمت نيران الحماسة في صدورهم إثر الدعوة التي انتشرت آنذاك (بلاد العرب للعرب). لقد كان كل شيء يخالف هذا الواقع، كما أظهر التاريخ خلال النضال المتواصل للمسلمين ضد الأوروبيين الغزاة.

وفي الوقت ذاته، ومن أجل تهدئة الضغط الصهيوني، وعدت بريطانيا اليهود بمنحهم وطناً قومياً في فلسطين، وعلى الرغم من أن "تشرشل" نفسه كان يعطف على الصهيونية، إلاّ أنه فهم أنه في سبيل تحقيق هذه السياسة دون التعرض للقتال مع العرب، يقتضي اتباع سياسة دقيقة حذرة.

وكان "كورزون" الذي كانت إدارته آنذاك جزءاً من وزارة الهند التي كانت مسؤولة عن كل هذه المشاكل، ليس بالرجل الكفء، لحل مثل هذه المشكلة.

وبوصفه استعمارياً من المدرسة القديمة، فقد نظر إلى القومية العربية بذات النظرة التي تميزت بها السياسة الفرنسية: "أعطهم إنشاً وسيأخذون ميلا"، ولقد كان مثل هذا الرأي في العراق يكلف دافع الضرائب البريطاني سنوياً، ثلاثة اضعاف ما كان يدفعه في سبيل تدمير الامبراطورية العثمانية، واذا لم ينقلب الأمر، فانه ضمين بخلق كراهية للبريطانيين قد لا يمكنه إزالة أثرها.

وقد أقنع "تشرشل" لويد جورج بتعيينه وزيراً للمستعمرات، وذلك في سبيل نقل المسؤولية بالنسبة للشرق الأوسط إلى إدارة جديدة في وزارة المستعمرات يكون فيها موظفون خبراء مثل "كلايتون" و"يونغ" و"مينرتزهاغن" مساعد اللنبي السابق في فلسطين.

وكذلك فإنه أقنع لورانس بأنه يوجه طاقاته واحتجاجاته إلى طرق إيجابية، عن طريق الحاقه بـالوزارة بمنـصب مستشار لشؤون فلسطين.

وقد رفض لورانس في بداية الامر هذا المنصب، إلاّ إذا أكد له بأن تعهدات بريطانيا للعـرب سـتنفذ، وبعـد مساومات، سمحت له بصلاحيات واسعة في منصبه، قبل الوظيفة.

هذا ويعتقد "ج. ب. فيلارز" بأن وصول فيصل إلى لندن في نهاية سنة ١٩٢٠ ربما كان له اثـره فـي إسـراع لورانس باتخاذ قراره، لأنه كان يشعر بالنسبة لفيصل بتبكيت الضمير.

وكانت أولى إجراءات "تشرشل" الدعوة إلى مؤتمر في القاهرة يعقد في آذار سنة ١٩٢١، وقـد حـضر هـذا المؤتمر حاكم العراق الجديد السير "بيرسي كوكس" و"كلايتون" و"كورنواليس" (وهو عضو سـابق فـي المكتـب العربي، أصبح فيما بعد سفيراً لبريطانيا في بغداد) و"يونغ" واللورد "ترنشارد"، مؤسـس سـلاح الجـو الملكـي، و"غرترودبيل" المستشرقة المشهورة" و"جعفر باشا" رئيس أركان حرب فيصل السابق، و"لورانس".

وكان الهدف الرئيسي للمؤتمر هو البحث في أنجح السبل لإقرار السلام في العراق. وكان لابد من منح الحـاكم في بغداد بعض إجراءات الحكم الذاتي، وفي الوقت ذاته خلق محطة في سلسلة الدفاع الأمبراطورية، والمحافظة على الإشراف على تلك المناطق التي تأخذ بريطانيا منها ما تحتاجه من بترول.

وكانت هناك مشكلة "شرق الأردن" التي يجب أن تبحث بعناية، وشرق الأردن هي المنطقة الـصحراوية التـي تقع إلى الشرق من فلسطين، والتي كانت مسرحاً للثوار العرب.

هذا وقد أضيفت ترتيبات أخرى بالنسبة لجارات فلسطين الأكثر أهميـة، والتـي تـدخل فـي نطـاق النفـوذ البريطاني.

وقد وصلت أنباء في شهر كانون الثاني سنة ١٩٢١ إلى الادارة البريطانية في فلسطين تفيد بأن الأمير عبـد الله قد استقال من منصبه كوزير لخارجية والده في الحجاز، وترأس قوة من ألفي محارب، واتجه بهم إلـى دمـشق لطرد الفرنسيين والاستيلاء على سوريا وجعلها مملكة خاصة له.

ولكي يصل إلى هدفه كان عليه أن يمر بشرقي الأردن. واسرع "كيركبرايد" الذي كان يحكـم تلـك المنطقـة يطلب التعليمات من رؤسائه في القدس، وسأل عما إذا كان عليه أن يقاوم تقدم قوات الأمير، واذا كـان الجـواب نعم، فليكن معلوماً بأن لديه قوة لا تعدو خمسين شرطياً، واذا كان الجواب لا، فهل يرحب بالأمير فـي المنطقـة الخاضعة للنفوذ البريطاني؟.

وكان جواب القدس غير مشجع، إذ جاء فيه أن الأمير على ما يبدو، لن يقوم بمثل هذه المحاولة لغزو سوريا.

ولما كانت قوات الأمير في معان، أي على مسيرة يوم واحد من عمان، فقد قرر "كيركبرايد" أن ينفذ القـانون بنفسه، وأن يمنح عبد الله معاملة دبلوماسية. وخرج لملاقات الأميـر، ولمـا التقيـا، رحـب بـه باسـم الإدارة البريطانية.

وسر عبد الله من هذا اللقاء ولم يستغربه، ودعا إلى وقف الزحف على سوريا. ولما انعقـد مـؤتمر القـاهرة، أعلن نفسه أميراً على شرقي الأردن، وكان من أسهل الأمور بالنسبة إلى "تشرشل" ومستشاريه، أن يقبـل بحقيقـة

الأمر الواقع هذه، ولكنهم وضعوا شرطين اثنين فقط، الأول يقضي بأن يعترف الأمير بالانتداب البريطاني على جميع فلسطين غربي الأردن، والثاني، هو أن يتخلى عن اطماعه ونياته في غزو سوريا.

وقبل عبد الله الشرطين دون تردد، وهكذا سويت مشكلة شرقي الأردن بسهولة، وكانت أول منحة تعطى للعرب.

أما بالنسبة للعراق، فقد حبذ المؤتمر إقامة مملكة دستورية فيها وعلى عرشها الأمير فيصل بعد تنصيبه ملكاً، وكان فيصل آنذاك في لندن، وبعد ليلة من النقاش الحاد في منزل اللورد "وينترتون" اقتنع فيصل بضرورة قبول العرش، واشترط الانكليز لذلك إجراء استفتاء، وقد حمل لورانس الامير على قبول هذا الشرط.

وفي شهر حزيران وصل فيصل إلى العراق، بعد أن حصل على أغلبية ساحقة من أصوات السكان الذين اختاروه ملكاً، وأصبح السير "بيرسي كوكس" بناء على رغبته وامتثالاً لقرارات مؤتمر القاهرة، مستشاراً بدلاً من حاكم عام، مهمته أن يمهد الطريق لفيصل وييسر له نقل السلطات من البريطانيين إلى العرب.

وغادر الجيش البريطاني العراق، وظلت وحدة من سلاح الجو الملكي ترابط في وادي الفرات كدليل على وجود بريطانيا في العراق، وهو إجراء لم يعترض عليه إلاّ إثر ثورة سنة ١٩٥٨ وعلى أساس وضع القاعدة هناك.

ويعود الفضل في تسوية مشكلة العراق وتعويض فيصل على ما لحقه به من إهانة في سوريا إلى المجهود المشترك الذي قام به كل من تشرشل ولورانس، وكان ذلك على أي حال تحقيقاً للهدف الذي يسعيان إليه، وهو إيجاد عرش لفيصل.

وعلى كل، فقد صور الحل تصويراً دقيقاً للجهود التي كانا يسعيان لتنفيذها، وتتلخص في الحصول على عرش لفيصل والسيطرة على القوات العربية، ووضع جيش يتضمن قوات من سلاح الجو.

وكانت كل الدلائل تشير إلى أن فيصل يحيط مصالح بريطانيا، وينصب نفسه حارساً لها.

وعلى الرغم من أن الأمور كانت تجري على هذا المنوال، وتكلف الكثير من كبرياء بريطانيا، يجب ألا نستغرب كثيراً أن نعرف مما كتبه لورانس نفسه، أنه يعتبر مقررات مؤتمر القاهرة بصدد العراق وشرقي الأردن كتنكر قام من بريطانيا لوعودها للعرب.

وكان الطلب قد قدم في معروض مؤرخ في الثامن عشر من شهر تشرين الثاني سنة ١٩٢٢ لمختصر كتاب "أعمدة الحكمة السبعة" الصادر عن أكسفورد، من وضع "إدورد غارنيت" ولكن هذا المختصر لم ينشر أبداً. وفيما يلي ما قاله لورانس نفسه عن هذا الموضوع:

"لتخذ الكتاب لنفسه تاريخاً سنة ١٩١٩، أي عندما كانت العناصر القوية في الحكومة البريطانية تسعى لتجنب التزاماتها وتعهداتها زمن الحرب للعرب، ولكن ذلك العهد انتهى في آذار سنة ١٩٢١ عندما تولى المستر "وينستون تشرشل" مسؤولية الإشراف على منطقة الشرق الأوسط، فقد راح يعمل بشرف من أجل تنفيذ الوعود التي قطعناها، سواء أكانت وعوداً كتابية أم شفهية. ولقد أتم جميع تعهدات ما كماهون "التي كانت تدعى بالمعاهدة التي وضعها شخص لم يرها".

تلك المعاهدة الخاصة بفلسطين وشرقي الأردن وشبه الجزيرة العربية. أما بالنسبة لبلاد الرافدين فقد ذهب إلـى أبعد من نصوص تلك المعاهدة. معطياً العرب القسم الأكبر ومحتفظا لنا ـ البريطانيين بالقسم الأصغر، بل واقل مما قدر السيد " هنري ما كماهون" نفسه.

أما شؤون فرنسا في سوريا فلم يكن قادراً على التدخل فيها، الامر الذي جعل شـريف مكـة يـشتكي مـن ان التسوية التي تمت لا تتفق واتفاقية بريطانيا وفرنسا سنة ١٩١٦، أو ، بالنسبة لوعدنا لهم"

وقد عمل لورانس تأكيداً آخر مماثلاً في أواخر مسودات كتابه "أعمدة الحكمة السبعة" وإن كان قد إدعى هنـاك بأن بريطانيا قد خرجت من المعركة نظيفة اليدين. وكذلك أبلغ لورانس كاتب تاريخ حياته "روبرت غريغز".

... "بأن اتفاقية القاهرة يجب ان ينظر إليها نظرة تفوق نظرتنا للحرب التي خضناها".

ومن المستحيل القول إلى أي مدى تنعكس هذه التأكيدات التي تمخضت عن نتائج باهرة لأعماله فـي مـؤتمر القاهرة، أو مدى ما يمكن أن تعطيه من عذر للتهرب من المسؤوليات الأخرى في شبه الجزيرة العربية.

ويعتقد "ليدل هارت" بأن لورانس يؤمن بأن مهمته قد انتهت وتعهداته قد نفذت، غير ان في هـذا القـول شـيئاً قليلاً مما يمكن الأخذ به.

وهناك سبب واحد لهذا الرأي هو أن التسوية رغم انها قد عوضت على فيصل عن خـسارته فـي سـوريا، إلاّ أنها حتى تلك المرحلة لم تفعل شيئاً، ولم يكن بمقدورها ان تفعل شيئاً للتعويض عن سوريا في خسارتها لفيصل.

والواقع ان تفاؤل لورانس بأن تشرشل وسياسته المتحررة بالنسبة للعراق ستنعكس فـي المـستقبل علـى بقيـة المناطق العربية قد ثبت مع الايام انه في غير محله. إذ أن سورية لم تنل استقلالها إلاّ بعد خمس وعشرين سنة.

واذا ما اخذنا بعين الاعتبار ما ابداه لورانس من احتجاجات في لندن وباريس ودمشق، نستطيع أن نعـرف بـأن سوريا كانت بالنسبة له اهم من بقية البلدان العربية مجتمعة.

ولو أن فعلاً شعر بالامتنان لنتائج مؤتمر القاهرة فلماذا لم ينقع بقبول منصب كبير الممثلـين البريطـانيين فـي شرق الأردن، ذلك المنصب الذي عينه فيه تشرشل صيف سنة ١٩٢١ ؟.

وصحيح أنه لم يكن على وفاق مع عبد الله، وربما كان يشعر بميل أقل للتدخل في منـع اعوانـه مـن اثـارة الاضطرابات في جبل الدروز في سوريا!... وفي المناوشات المتكررة بين القوات الفرنسية والقـوات العربيـة التابعة لعبد الله، والتي كانت تحصل عندما تسلم منصبه. كان شعوره ـ وهذا لا شك فيه ـ مع العرب.

غير أنه يستفاد من مذكرات تشرشل نفسه ان لورانس قد استعمل قوة خارقة مع اعدائه القدماء فـسرح عـدداً من الضباط، واستخدم القوة، وأخيراً استطاع ان يستعيد الهدوء التام. (وهناك كثير من الكتاب الفرنسيين يـدعون بأن لورانس قد خلق لفرنسا مشاكل في سوريا أكثر من المشاكل التي حاول منعها فـي ذلـك الوقـت، غيـر ان قراءة التاريخ توضح للجميع بأنه كانت هنالك مشاكل كافية تحتدم في سورية كنتيجـة لمعالجـة فرنـسا لقـضايا العرب دون ان تطلب النصح من الخارج).

ومع ذلك فقد شعر لورانس بأنه لا يستطيع البقاء في شبه الجزيرة العربية مدة أطول. وبعد شـهرين، أي بعـد أن أتم سنة من الخدمة مع تشرشل في وزارة المستعمرات، طلب أن يسرح. وقد حاول تـشرشل، كمـا حـاول اللنبي في دمشق ان يضغط عليه ليبقى، وتمكن من اقناع لورانس بالبقاء في الخدمة خمسة أشهر أخرى... غيـر

أنه في شهر تموز تلقى برقية مفادها ان مستشاره الشاب لا يستطيع البقاء في منصبه أكثر مما بقي. وقـد علـق تشرشل على رفقته القصيرة مع لورانس بقوله "انه حيوان رائع، ولكنه لا يستطيع العيش في الاسر".

وعلق في مناسبة أخرى بقوله "الغريب أنه كان قادراً على دفن شخصيته من أجل تحقيق إرادته ودفع مـا لديـه من معلومات إلى الجمهور البسيط". ورغم ذلك فان لورانس قد التحق بسلاح الجو الملكي بعد ذلـك بأقـل مـن شهرين كطيار من الدرجة الثانية! وتطوع مختاراً معرضاً نفسه للاسر ومغيّراً اسمه المشهور، ودافناً شخـصيته في أحط مهاوي الجيش البريطاني.

الفصل الحادي والثلاثون

اعمدة الحكمة السبعة

يمكن اعتبار قصة لورانس الكلاسيكية "أعمدة الحكمة السبعة" كتاباً قائماً في حد ذاته، فقـد بـدأ كتابتـه أثنـاء مؤتمر الصلح في باريس، وذلك في أوائل سنة ١٩١٩. وقد انتهى من كتابته في تشرين الثاني مـن العـام ذاتـه، ولكنه أضاع أربعة أخماس المسودات اثناء تغييره القطار في محطة "ريدينغ" وهو في طريقه إلـى منزلـه مـن لندن إلى أوكسفورد.

ولكن لورانس لم يتأثر بهذه الكارثة، بل عمد إلى كتابة مذكراته من جديد فحبس نفسه في غرفة في بيـت أحـد أصدقائه في شارع "بوسطن" بمدينة "وستمنستر" وبنشاط يفوق نشاط البشر استطاع ان يفرغ من كتابـة المـسودة في نهاية سنة ١٩٢٠.

وقد أخذ منه هذا العمل مجهوداً جباراً، إذ كرس نفسه لعمله ليل نهار - وفي إحدى المناسبات انقطـع لعملـه مدة ثمان واربعين ساعة متواصلة يعيش احلامه أثناء الحرب من جديد، والكوابيس التي مرت فـي حياتـه وهـو في الصحراء، وأقدامه بنفسه على تدمير شخصيته، ومساوماته بين اسياده الانكليز واصدقائه العرب. واثناء ذلـك الوقت كان يعيش على مخزونه من اعصابه القوية لا يكاد يأكل شيئاً، ولا يكاد يرى أحداً.

وفي الوقت الذي فرغ فيه من عمله كان في منتهى الاعياء.

ويقول "ليدل هارت" من خلال مطالعاته الشخصية للورانس، أنه "كان من الافـضل بالنـسبة للـورانس تـأليف كتابه أعمدة الحكمة السبعة أكثر مما احرزه من نجاحات اثناء الحرب، تلك النجاحات التي كادت أن توصله إلـى القمة".

وفيما يتعلق بنشر الكتاب، كتب إلى ادوار غارنت من قاعدة سلاح الجو الملكي في "أو كسبريدج" يقول.. "لقـد قررت بالأمس أثناء حضوري قداساً في الكنيسة إلاّ أنشر شيئاً، ولكنني اليوم أشعر بميل إلى النـشر، فهـل أنـا مختل الشعور أو مجرد أحمق؟".

ولعل تردده في نشر كتابه لا يعود فقط إلى خوفه من ألا يلاقي الكتاب تحبيـذا، أو يـصادف نقـداً شـديداً أو يراجع مراجعة قاسية، بل يمكن رد تردده في نشر كتابه إلى شيء شخصي جداً... كتلك الفـصول التـي يبحـث فيها عن نفسه.

فقد اكتشف ان الحقيقة هي "انه لا يحب ذاته التي يراها ويسمعها". لقد كان الأمر مختلفاً تماماً بـين أن يكتـب لبضعة أشخاص كل ما فعله أو شاهده أو شعره اثناء حرب الصحراء، وبالدقة التي يتمكن بها من تذكر الاحـداث كما جرت تماماً، وبين أن ينشر ذلك للعالم، ويقف أمام البشرية عارياً محدقاً في كل من حوله.

ولما طلب إلى لورانس أن يعيد تنقيح الكتاب، بحيث يحذف منه تلك الفصول التي يتحدث فيهـا عـن شخـصه، ادى بأنه لا يملك الوقت الكافي من جهة، ولا يحب أن ينشر شيئاً ناقصاً من جهة أخرى، وخاصة عـن التجـارب التي مر بها.

والظاهر أن لورانس قد اقتنع وقبل أن ينشر كتابه، وتوصل إلى اتفاقية مع "جوناثـان كـاب" علـى ان ينـشر مختصراً كان قد أعده له ، " أدوار غارنت" ولكن الاتفاقية وصلته في بداية سنة ١٩٢٣ أو حوالي ذلـك التـاريخ، عندما اكتشفت الصحف أن الكولونيل "جون هام روز" من سلاح الجـو الملكـي، لـيس إلاّ الكولونيـل "ت. أي. لورانس" الذي أدت ثوريته إلى طرده من الخدمة.

ولما كتب إلى "برنارد شو" بعد ذلك بوقت قصير قال لورانس "إنه عندما اطلقت علي الرصاصة الأولـى مـن "الديلي اكسبرس"، القيت (أو بالأحرى) رفضت لتمام توقيع الاتفاقية التي اعدها "كاب" من أجل نـشر الملخـص". وقال لورانس في مذكراته إن "كاب" قد احتدم غيظاً. ومضى لورانس يقول:

"بعد مرور لحظة شعرت بالأسف لأنني الغيت الاتفاقية، وأخذت أفكر في نشر الكتاب، ليس بـشكل مختـصر، بل القصة كاملة، وعلى هذا الاساس كتبت إلى "كاب" أسأله عن إمكانية ضمانه لألفين من النسخ فـي اشـتراكات خاصة... "وقد دهش "كاب" للوهلة الأولى... ولكنه لم يلبث أن نهض للمهمة... فكتب اتفاقية جميلة ... وارسـلها إلي لأوقعها.

وفي ذلك اليوم بالذات تلقيت أمر صرفي من خدمة سلاح الجو الملكي، ولذلك، فقد الغيت الاتفاقية أيضاً".

ويبدو ان بذور المدح التي بذرها "شو" كان لها بعض التأثير في إقناع لورانس بأنه قد أنجز كتاباً رائعـاً. وفـي شهر حزيران سنة ١٩٢٣ كتب إلى صديقه القديم "هو غرث" ... يقول "عندما التحقت بسلاح الجو الملكي كنـت أعتقد بأن كتابي عن الثورة العربية ردئ للغاية".

ولكن "شو" استطاع منذ ذلك الوقت ان يغير رأيه تدريجاً حتى أقنعه بأنه كتاب ممتاز. ثم هنالـك مطمـح كـان يعتمل في صدر لورانس بشكل دائم عبر عنه بقوله: وكان يردد هذا القول "إن همي أن أؤلـف كتابـاً ممتـازاً". ولكنه في بعض الاحيان كان يأخذ وجهة النظر المخالفة، فقد كتب إلى "ادوار غارنت" واصفاً كتابه "بأنه مهزلـة لا تستحق أن تقرأ، فاذا ما أردت ان ترى بعينيك كيف تشوه الافكار الجميلة والمادة الرائعـة فـارجع إلـى أيـة صفحة من صفحات الكتاب.

انني لا أعتقد بأن هنالك أي ناشر في "فليت ستريت" يرضى حتى بأن يحرق الكتاب، فكيف بحق الـسماء تعتقـد بأني قد جئت بعمل ممتاز؟".

وعلى الرغم من هذا التردد الواضح في موقف لورانس الخاص بنشر كتابه أو عدم نشره ـ إلاّ اننـا لا نعلـم وليس من الواضح لماذا لجأ لورانس في النهاية إلى نشر كتابه ـ فقد قيل بأنه أقدم علـى ذلـك عنـدما طلبـت

"كرترود بل" ان تستعير نسخة من نمسخ اوكسفورد، ورفض طلبها لأن جميع النسخ كانت قد اعيـرت، فقـررت الحصول على نسخة أخرى مطبوعة من بعض اصدقائها.

والذي يبدو اقرب إلى الواقع إلى لورانس كان محيراً بين رغبته في ان يرى نفسه كمؤلف، وخوفه مـن النقـد الذي قد يمزق مجهوده بدداً. ومهما كان السبب فانه لورانس قرر اتخاذ حل وسط وهو ان ينشر مائة نسخة علـى ان تباع الواحدة منها بمبلغ ثلاثين جنيهاً، ولكن الناشر طلب منه ان يضمن الكتاب أرقى أنواع الفنون المـصورة لأحسن الرسامين بما فيهم "اغسطس جون" و"اريك كننغتون".

وكان لورانس قد طلب منهما ان يرسما له صوراً مختلفة، وكذلك صوراً لفيصل واللنبي واكثـر مـن عـشر شخصيات من البريطانيين والعرب الذين لهم علاقة بالثورة العربية.

ومرة أخرى عاد لورانس إلى العمل لينقح ويعيد كتابة مؤلفه حاذفاً منه بعض الاشارات المعينـة إلـى كبـار الضباط البريطانيين .

ـ الذين: ـ ابلغ ـ كننغتون ـ مازحاً ـ "بأنهم سيقيمون عليه ما لا يقل عن سبع وعشرين قضية قـذف وشـتم فيما لو نشر كل ما يعرفه عن اعمالهم.

وكذلك فان بعض الفصول المعينة التي ظهرت في طبعة اكسفورد قد اعاد كتابتهـا أو اهملهـا كليـاً بحيـث اختصر النص الكامل إلى حوالي خمسة عشر في المائة.

ولكن لورانس طوال حياته لم يقتنع أبداً بقراره إلاّ ينشر النص الكامل لكتاب اعمدة الحكمـة الـسبعة، وتـرك الأمر لشقيقه الاصغر "ارنولد لورانس" بوصفه وريثاً له في الميدان الادبي. وقد اصدر مؤلفه الممتاز وعرضـه للجمهور بعد وفاة لورانس، وكان ذلك في سنة ١٩٣٥.

وقد استغرق العمل في تنقيح الكتاب حتى سنة ١٩٢٥، وفي السنة التي تلت كانت نسخ المشتركين فـي كتـاب اعمدة الحكمة السبعة قد ظهرت في الاسواق، وكان نجاحها يفوق الاحلام "أو مخاوف مؤلفه".

فقد كان الطلب عليه كبيراً، ولكن ما كان موجوداً منه كان قليلاً. حتى لقد بيعت النسخة الواحدة الاصلية بمبلـغ ثلاثين جنيهاً.

والذي اشتراها اعاد بيعها مقابل خمسة أو ستة آلاف جنيه، وكان الناس ينشرون فـي أعمـدة الاعلانـات فـي الصحف يعرضون مبلغ خمسة جنيهات في الاسبوع مقابل استعارة نسخة من الكتاب.

ولكن لياً من هذه الارباح لم تدخل جيب المؤلف أو جيب الناشر "جوناثان كاب" وبالعكس فقد اثبتت الارقـام ان الكتاب، رغم الاقبال الشديد على شرائه قد خسر خسارة فادحة.

وقد حاول "جوناثان" من اجل التعويض عن هذه الخسارة، اقناع لورانس بأن ينـشر نـسخة ملخـصة علـى ان تسمى "ثورة في الصحراء" شريطة ان يحذف كل الاشياء الشخصية والتحاليل النفسية.

وقد اشترط لورانس شرطاً واحداً هو ألا ينشر الكتاب إلاّ بعد مغادرته البلاد ووافق "كاب". وفي شـهر كـانون الثاني سنة ١٩٢٦ غادر لورانس البلاد ليلتحق بقاعدة لسلاح الجو الملكي في الهند، وبعد اسابيع قليلة مـن ذلـك كان كتاب "ثورة في الصحراء" قد وصل إلى باعة الكتب.

وكان نجاح الكتاب نجاحاً فورياً وغطت أرباحه لا مجرد الخسارة التي نجمت عن كتاب أعمدة الحكمة الـسبعة فحسب، بل وتركت ربحاً صافياً مقداره خمسة عشر الف جنيه.

ولما كان لورانس صورة طبق الاصل عن الرجل الذي لم يفهم ولم يهتم بالمال، فقد اقدم على سـحب الكتـاب من التوزيع ورفض ان يستفيد من أفضل كتاب كتب بدماء البريطانيين والعـرب، وزاد علـى ذلـك فخـصص حصته من الارباح لصالح المشاريع الخيرية.

إن هذه القصة حول إصدار ومولد كتاب اعمدة الحكمة السبعة لتدل على طبيعة لورانس، تلـك الطبيعـة التـي تدل عليها كل اعماله.

واذا ما شئنا ان نتبسط في الموضوع فإننا نقول ـ إن جميع تناقضاته الشخصية وكل آماله ومخاوفه وتـصميمه وارادته وشذوذه العقلي ـ كل ذلك قد اجتمع ليكون شخصيته غير العادية، فقد كانت هنالك اولا للثورة العارمـة الناجمة عن تأليف الكتاب بغض النظر عما سيكلفه من مجهود عقلي وجسماني ... وبالاضافة إلـى ذلـك كانـت هنالك رغبة الموزعين في الحصول على مطبوعة من الدرجة الأولى، واشـترطوا لـذلك شـروطاً مـن حيّـث التأليف والصور، ثم، وبعد ان انتهى العمل في الكتاب جاء الخوف القاتل من تقديم انتاجه للجمهور، على الـرغم من ان النقاد ذوي الخبرة مثل "برنارد شو" و"غارنت" قد اكدوا له أن كتابه سيلاقي نجاحاً باهراً. واخيراً وعنـدما تحقق النجاح جاءت الخسارة من جراء نشره.

❀❀❀

ان لكل كتاب انتقاداته، ولكل مؤلف عثراته، ولكن ما الذي يمكننا ان نقوله اكثر مما قلناه عـن كتـاب اعمـدة الحكمة السبعة.

وقد قال "ج. ب . فيلارز" عنه بأنه "كتاب كان وسيبقى قمة للكتب والادب الكلاسيكي".

وبالاضافة إلى ذلك، كما اوضح "فيلارز"، فإن لورانس في كتابته لمذكراته قد خلق نوعاً جديداً مـن الكتـاب، واثبت انه يجاري "مالرو" و"كريسار" و"بول سارتر".

ان القراء في يومنا هذا قد اعتادوا قراءة كتب تحتوي على أخبار العنف والفظائع والخيانة وكـل مـا يتعلـق بالحرب.

ولكن لورانس عندما كتب أعمدة الحكمة السبعة كان يعرف بأنه يشق طريقاً جديداً. وكان غير مقتنع بـضرورة رفع الستار ولو جزئياً عن ابطاله الحقيقيين، أو أن يعرضهم إلى أنظار الناس.

فقد ازاح ذلك جانباً واكتفى بأن يكشف شخصيته وحده، والحقيقة الناصعة عن حملـة الـصحراء كمـا رآهـا وعاشها، ولم يوفر نفسه ولا من كان معه اثناء الحملة من النقد عندما سرد الحقائق كما هي.

وطبيعي ان الاشخاص الذين حطوا من قدره، مثل "رتشارد الدنغتون" قد وجدوا في وسط التناقـضات الـواردة في النص والخلاصة التي توصل إليها لورانس شخصياً دليلاً على ان القصة بأكملها ليست إلاّ مجرد كذب.

والواقع ان لورانس يجب ان يتحمل قسطاً من اللوم لهذا السبب، ذلك لانه كان يبدو من كتابه قـد وضـع عـدة متناقضات وتأكيدات فيما يتعلق بمحتويات الكتاب. ففي المقدمة الأولى التي كتبها لمذكراته ـ كشف النقاب عـن ذلك في كتاب آخر نشره شقيقه "ارنولد" تحت رعاية الجمعية الشرقية حيّث قال: "يبدو لي من ناحية تاريخيـة أنـه من الضروري ان اقدم القصة بشكل ربما لم يكن بمقدور من كان في جيش فيصل أن يدون ملاحظاتـه ويكتبهـا

في الوقت الذي جرت فيه الاحداث بدقة مثلي... إن كل الذي كنا نأمله قد جربناه"، ولكنه قـد انتهـى بملاحظـة متناقضة حيّث قال: "لقد بدأت كتابة مذكراتي لأكشف القناع عن حقيقة القصص والاشياء، ولأقنع العرب القلائـل الذين يعرفون مثلما اعرف.

وفي هذا الكتاب أيضاً عنيت للمرة الأخيرة ان أسجل حكمي الخاص على ما يجب أن يقال". وقال مرة أخـرى إلى الكولونيل "مينيرتز هاغن" وهو ضابط سابق من ضباط الجنرال اللنبي. "إن كتابه قد بنـي علـى الأكاذيـب"، ولكن نظراً لأنه أصبح بطلاً اسطورياً فقد كان من الضروري أن يعيش هذه الاسطورة.

وعلى الرغم من كل ذلك فان أية رواية من هذه الروايات لا ترتبط ارتباطاً وثيقاً بالثورة العربية. فقد تقبل كـل من اللنبي، وكلايتون، وستورز، ونيوكامب، وجويس، وادوناي، كتابه دون ان يعترضوا عليه، وهذا ممـا يعطـي الكتاب ثقة لا يستطيع رجل مثل "الدينغتون" ان ينال منها بشكل من الإشكال.

وليس هنالك من شك في أن لورانس قد أهمل ذكر حقائق معينة واشياء حصلت، ولكنها لـم تكـن متفقـة مـع الخلاصة التي استنتجها. وهنالك سبب واحد لذلك، فقد اختصر الحديث عن البريطانيين، واختـصره أكثـر عـن الفرنسيين وعن دور كل منهم في كسب الحرب ضد تركيا وفي نجاح الثورة العربية.

وكنتيجة لتحامله على الفرنسيين، فإن القارئ غير الفطن انما يترك ليحمل انطباعـاً بـأن العـرب قـد تلقـوا مساعدات قليلة من الحلفاء إذا ما استثنينا كمية من الذهب وبعض الاسلحة التي قدمت لهم بناء على طلـب مـن لورانس.

وكذلك فإن فشله في تحليل الالتزامات البريطانية السياسية والوعود إلى الشريف حـسين أوحـى بـأن الـشيء الكثير قد عرض، ولكن الشيء الكثير قد انكر! وأن القضية بالنسبة للعرب كانت على هذا النحو.

ومن الانصاف القول بأن الضرورة كانت تحتم على لورانس ان يذكر تلك الحقائق حتى ولو كان غيـر مـدرك عند كتابته لهذا الكتاب، بأنه كان مقدراً له أن يصبح كتاباً كلاسيكياً.

غير أن لورانس كان يكتب بشكل موضوعي عن الثورة العربية وعن "أنا فـي تلـك الثـورة". ولـيس بـشكل إيجابي عن حملة الشرق الاوسط ككل. لقد كان يحفظ سجلاً للاحداث ولكنه كان أيضاً يدافع عن قضية.

ولعل ملاحظته إلى "مينرتز هاغن" كان المقصود بها ان يعرب عن الثورة العميقة التي كانت تحتدم فـي نفـسه على نعته بالباطل.

بينما كان كل ما شعر به أثناء حملة الصحراء شعوراً مزيفاً. ولعل هذا التفسير أقرب إلى الصحة مـن القـول بأنه قد ملأ كتابه بالاكاذيب والقصص الخيالية عن بطولاته. أما بالنسبة للمتناقضات التي وردت فـي خلاصـته، فهي أبعد من أن تظهر لورانس بمظهر الكاذب، ولعلها أقرب إلى اظهاره بمظهر الشخص الـذي يعبـر عـن الحقيقة كما هي.

ولقد كان في الواقع مصمماً على ان يسرد افكاره وملاحظاته تماماً كما حدثت في حينها مع غض النظر عـن المدى الذي تتغير به في فصول قليلة لاحقة.

وانه لمن الافضل أن يسجل المرء الحقيقة كما رآها في سنوات الحرب من ان يحذف أو يعدل من تلك الحقيقـة حتى تصبح مناسبة مع مرور الوقت.

وفضلاً عن ذلك فان لورانس نفسه كان مجموعة من المتناقضات، كما أن حياته كانت تتسم بهذا الطابع، فلماذا يقال إذن بأنه كاذب؟... وان مذكراته قد كشفت عن طبيعة نفسه!.

كما قال "ج. ب. فيلارز".

إن كتاب لورانس قد اظهره بأنه كان حريصاً على الدفاع عن قضيته. وعلى أن يظهر الحقائق مهما دقت في ذلك التاريخ الواسع الذي قدر له ان يساهم بكتابه. وصحيح أن قارئ كتاب "أعمدة الحكمة السبعة" سيجد مادة تختلف في طرازها عن الريبورتاجات العادية أو الرسائل العادية عن الحرب، فهو في بعض الاماكن يأتي على صور رائعة حتى ليبدو بأنها قد صنعت بيد مثال ماهر، وبعد جمل قليلة نجده قد شوه تلك الصور الرائعة بما كان يحشده من سخرية.

وكذلك فان هناك صفحات من كتابه لا يمكن ان توصف من حيّث البساطة في اللغة، والتفهم التام، والأسى العميق التي تظهره لانسان يصور مشاعره في ظروف مؤلمة للغاية، ولكن الحقيقة هي ان لورانس كان بامكانه ـ وقد فعل ـ ان يكتب عن ذكرياته في الحرب بهذا الاسلوب، غير ان ذلك لا يعني أن لورانس كان يملك الشجاعة والتفهم لينظر بعمق إلى قلوب زملائه في الحرب، وان يكتب كل شيء رآه.

وفي معرض كتابته المسودة الثانية اعترف لورانس بقوله "لقد عملت نحاتاً مرة واحدة في حياتي، وذلك لأعرب عن ذاتي بشكل خيالي". ومما لا شك فيه انه كان يعني بذلك كتابة "أعمدة الحكمة السبعة".

وكما كتب "ونستون تشرشل" في تعليقه الخاص على هذا الكتاب الكلاسيكي باللغة الانكليزية. "ليس هنالك في هذا الكتاب من أثر بالغ... كل ما فيه مبالغ فيه، وشخصي، وقد كتب في ظروف لا يستطيع الإنسان ـ كما يبدو ـ أن يعيشها. ولكن لورانس كان على كل حال رجلاً!.

الفصل الثاني والثلاثون

تجريد من الرتب العسكرية

قبل انخراطه في سلاح الجو الملكي، اتخذ لورانس اسماً مزوراً له "جون هرم روس" وعلى الرغم من أن تغيير الاسم هذا لم يؤثر قانونياً كما أثر انتحاله لاسم شو فيما بعد، إلاّ أنه قد ساعده في تأدية غرضين مزدوجين: الاول .. احداث انقطاع تام عن ماضيه بوصفه الكولونيل لورانس، والثاني إحلاله في مرتبة من الخمول كانت ضرورية له في وظيفته التي ـ كما اثبتت الاحداث فيما بعد ـ لا تقبل فكرة انضمام رجل اسطوري إلى صفوفها.

وبالاضافة إلى رغبته في نسيان الحرب، فإن مؤتمر القاهرة كان في رأي لورانس الخاتمة لأعماله في منطقة الشرق الاوسط.

فقد تم تعيين فيصل في العراق، وعبد الله في شرق الاردن. وعلى الرغم من أن اصدقاء عبد الله قد فشلوا في مشاركة لورانس رأيه في مقررات مؤتمر القاهرة وانتقدوه انتقاداً جارحاً، ووصفوا تلك المقررات بأنها نسف لحريات العرب، على الرغم من ذلك فقد كان لورانس غير مستعد للبقاء والمجادلة معهم.

ثم إن الواقع كان يشير إلى أنه ليس ثمة شيء يستطيع أن يفعله بالنسبة إلى سـورية، حيّـث كـان الفرنـسيون يتمركزون هناك، وليس في نيتهم أن يتركوها نتيجة للهيجان أو السخط اللذين كانا يسودان عمان.

أما بالنسبة للشريف حسين فقد كان يحث الخطى نحو نهايته المحتومة، ولم يكن هنالـك مـن أحـد يـستطيع ان يوقفه. ولما عرف لورانس الدرس المرير الذي يقول بأن الملوك ـ الذين يـصنعون ملوكـاً ـ يزاحـون مـن الطريق حالما تنتهي مهمتهم، لما عرف لورانس ذلك، أدرك أنه ليس أمامه أي شيء يفعله في الـبلاد العربيـة، وقد عرض عليه تشرشل منصب حاكم، ولكنه رفض.

ولسنا ندري أكان شعوره بأن العرب يجب ان يمضوا قدماً في تعلم كيف يحكمون انفسهم بأنفسهم، لسنا نـدري أكان ذلك الشعور خيراً أم شراً، فقد كان عقله المضطرب يضج بأفكار لبسط، ومشغول بمهمة أكثر بناءً.

ولقد أدى به الاجهاد الفكري في الاشهر الستة الماضية إلى حافة الانهيار العصبي حتى انـه لـم يـستطع أن يسترد قدرته على التفكير إلاّ بعد أن قطع كلياً جميع علاقاته بالماضي.

وكان كثيراً ما يتكلم عن امكانيات التوظف في إحدى الدوائر، بل لقد درس الموضوع مـع "ليوبولـد إمـري" صديق تشرشل وأحد أعضاء مجلس العموم من حزب المحافظين، وسأله عما إذا كان من الممكن أن يعـين فـي وظيفة حارس شواطئ أو "حارس منارة".

وكان في الوقت ذاته يناقش موضوع سلامة عقله بالنسبة لاصدقائه، فقد كتب على سبيل المثـال إلـى "ليونـل كورتس" يقول: "انني أفكر أحياناً كم أنا مجنون، وما إذا كان مستشفى المجـانين سـيكون لـي المقـر المثـالي (والرحيم بي)". كما أن أجاب ضابط التجنيد عندما سأله عن السبب الذي يحدوه لأن يلتحق بسلاح الجـو الملكـي بقوله: "أعتقد بأنني سأصاب بانهيار عصبي عقلي".

وقال بعض المراقبين بأن السبب الرئيسي لالتحاقه بسلاح الجو الملكي هو الحصول على السمعة السيئة، وأنـه بانتحاله اسماً مزوراً ولحاطة نفسه بهالة من الغموض يستطيع أن يلفت إليه انتباه الصحف أكثر مما يـستطيع لـو استمر في العيش باسمه الحقيقي أو بقبوله منصباً رفيعاً وراء البحار خدمة لبلاده.

غير أن هذه النظرية لا تبدو معقولة، فهو لم يخفي شخصيته عن جميع اصدقائه، فقد كان "شو" و"غارنت" بـين الذين يعرفون السر، السر الذي كان غامضاً بالنسبة للعالم الخارجي، وهنالك قليل من الشك في ان لـورانس قـد حزن حزناً شديداً عندما استدعاه أحد الضباط في قاعدة "أوكسبريدج" وطرده من سلاح الجـو الملكـي، عنـدما نشرت الصحف، القصة كاملة تحت عناوين بارزة.

هذا وقد أعطى لورانس نفسه ثلاثة أسباب لانخراطه في سلاح الجو الملكي، الاول الأمان، والثاني الهرب مـن المسؤولية، والثالث اذلال النفس. وقد كتب إلى صديقه القديم "هو غرت" جواباً عن سـؤاله عـن سـبب التحاقـه بسلاح الجو الملكي فقال: "ان الامان كان رائدي بالدرجة الأولى، ففي التحاقي بهذا السلاح ضمانة سبع سـنوات، إذ لم يعد لدي العقل الذي يستطيع ان يفكر، لا بد أن تدرك أنني قد انتهيت مـن قـصة لـورانس الاسـتطرادية، ولنني لم أعد أحب ما كانت تصفه الشائعات في من كان يسمى لورانس...

ثم ان الحياة السياسية تتغير وتتغير كثيراً. وقد قال إلى "ليونل كورتس"... "أنت تعرف بأنني قد التحقت بـسلاح الجو الملكي لا جعل من نفسي انساناً عاطلاً عن العمل".

وقد أجاب أولئك الذين حدثوه امثال "يانغ" عشية التحاقه بسلاح الجو الملكي عن ضرورة مطالبته بالتعويض فقال: "انه لا يفكر كثيراً في أن يصبح من الضباط أو حتى الجنود التابعين لسلاح الجو الملكي".

ولم يكن هنالك من شيء يستطيع ان يقنعه بأن يصبح مجرد متعهد لتوريد المؤن ممتثلاً لأوامر السلاح الجوي السخيفة.

وكان عليه ان يختار بين اثنتين، القمة حيّث يستطيع أن يثبت ان الاوامر الحمقى لا تجدى فتيلاً، أو الحضيض حيّث يفرض عليه الطاعة وأن يغمض عينيه عن حماقات رؤسائه. ونظراً لأنه قد تحمل الكثير من المسؤوليات "ورفض السلطة" فقد آثر الحضيض.

وفي الثلاثين من شهر آب سنة ١٩٢٢، دخل (جون هوم روس) مكتب التجنيد لسلاح الجو الملكي في شارع (هنريتا) بلندن بعد أن أمضى مدة ساعتين يقطع الشارع جيئة وذهاباً قبل ان يستقر على رأي، ويرتجف كورقة في مهب الريح خشية من الاستقبال الذي ينتظره وراء الأبواب.

حيّث يجتمع عدد من الشباب كلهم يريدون خدمة انكلترا عن طريق سلاح الجو. ولم يمض طويل وقت حتى تأكدت مخاوفه، إذ أن أوراق الهوية التي قدمها إلى الضابط المسؤول كانت مزورة، وتشير إلى ان صاحبها لا بد وان يكون من اصحاب السوابق، وقد ازداد هذا الشك بعد ان ذهب إلى الفحص الطبي، فقد كان ظهره يحمل علامات جراح عميقة، وقد حاول ان يخدع الطبيب بالقول بأنه قد جرح نفسه بسلك شائك.

ولكن ذلك لم يعد عليه بفائدة من أي نوع كان، فقد أبلغ بأنه غير مرغوب فيه. ولكن بعد أن حصل على التدخل الشخصي من مارشال الجو "لورد ترتشراد" وافقت وزارة الطيران على ادخال لورانس كضابط تحت اسم روس، ومن ثم شق طريقه إلى التدريب في قاعدة "أوكسبريدج".

ولقد كان عقد خدمته عقداً غير عادي، فقد أبلغه "ترتشارد" بأن هذا العقد يمكن ان يلغى بعد شهر من إبلاغ أي من الطرفين رغبته في إنهائه. وعلى الرغم من ان اللورد "ترتشارد" قد أخذ بأقوال لورانس التي جاء فيها "إن غزو الفضاء يبدو لي هو المهمة الرئيسية لعصرنا الحاضر"، إلاّ أنه اقتنع بصعوبة تامة بأن يصبح طرفاً في هذا المشروع غير العادي، فقد كان يخشى من أنه إذا ما اكتشفت حقيقة هوية لورانس فسيكون ذلك وبالاً عليه أمام رؤسائه، وأمراً مشيناً بالنسبة لمركزه.

ولقد كانت تجارب لورانس الأولى في "أوكسبريدج" خلافاً لما كان يأمل، إذ أنه خلال الحرب قد وجد زمالة مع الجنود العاديين كانت اسهل بكثير من أي شيء عرفه بالنسبة لمن هم في رتبته أو أعلى منه رتبة.

وكان يأمل ان يكتشف هذه الزمالة في سلاح الجو الملكي، ولكنه بدلا من ذلك وجد نفسه كسمكة في حوض لا ماء فيه، ومحاطاً بفريق من الجنود الذين يتميزون بالوقاحة، والذين كانت لغتهم وعاداتهم من الامور التي لم يستطع أن يفهمها ولا ان يستسيغها.

وكذلك فقد راح يتلقى الأوامر من صف الضباط الذين كانت طريقتهم في حفظ النظام تعكس ما كانوا يعانونه من نقص... كانوا يشعرون بأن أي شخص آخر هو أقل منهم مرتبة، وخصوصاً المتطوعين الجدد.

ولذلك فان الأمر بالنسبة إلى لورانس كان ما يمكن أن يبدو لرجل مثقف يسعى إلى السلام وينشد الراحة بعيداً عن العالم المضطرب الخارجي بما يحويه من ضجيج وقلة أدب، وخاصة ما يراه في غرفة النوم الذي كان بمثابة كابوس ثقيل.

وبعد شهرين من مكوثه في قاعدة "أوكسبريدج". أرسل لورانس إلى قاعدة سلاح الجو الملكي في "فارنبوغ" وهي مركز للتدريب على الطيران والتصوير. وعلى الرغم من أنه لم يسمح له بالطيران، إلاّ أنه وجد هناك عملاً ملائماً. فراح يشغل نفسه بدراسة محركات الطائرات أو بمختبرات التصوير.

ولكنه ما إن بدأ يجد نفسه الجديدة ويفقد ظل "لورانس اللغز" حتى افتضح أمره للصحف. ففي السابع والعشرين من شهر كانون الثاني سنة ١٩٢٢ كانت الصفحات الاولى والوسطى من جريدة الديلي اكسبرس تعلن للعالم أن الرجل الشهير والاسطوري الكولونيل لورانس هو الآن في سلك سلاح الجو الملكي مجنداً تحت اسم "روس".

وعلى الفور اصبح معسكر فارنبورغ محاطاً بالكثير من المخبرين الصحفيين والمصورين الذين راحوا يطلبون مقابلة لورانس والتقاط الصور له.

وقد اعتبرت قيادة سلاح الطيران الملكي ان الاستجابة لطلباتهم غير ممكنة أبداً. وبعد شهر طرد من الخدمة وفقاً للاتفاقية التي وضعها "ترنشارد".

وقد ازعج لورانس أصدقاءه الذين يحتلون المراكز السامية، وترنشارد بصورة خاصة من أجل مساعدته لإعادة تعيينه في سلاح الجو الملكي.

على الرغم من ان سجل خدمته كان خالياً من العلامات السوداء فانه بتصرفه الاحمق عن طريق تغيير اسمه لم يستطع ان يقنع رؤساءه في "اوكسبريدج" بقبوله في سلاح الجو الملكي.

وكان أخر شيء يمكن ان يلجأ إليه اللورد ترنشارد هو ان يعيد النظر في الطلب الذي قدمه لورانس إذا ما حصل على شهادة حسن سلوك بعد خدمة فترة من الزمن في الجيش وإلا فإنه يستطع ان يحصل على تعويض من سلاح الجو الملكي في الحال.

وركب لورانس رأسه ورفض التعويض، وفي أوائل شهر اذار سنة ١٩٢٣ التحق بسلاح الدبابات بعد ان غير اسمه للمرة الثانية إلى "ت. إي. شو".

وقد ارسل إلى معسكر للتدريب على الدبابات في "بونينغتون" التي تقع في "دورست".

وبعد أن أكمل تدريبه انتدب ليعمل اميناً للمخازن، حيّث كانت مهمته تنحصر في رسم العلامات واصلاح ملابس الجيش.

ولقد كان للهدوء النسبي الذي يسود جو مهمته هذه الاثر الأكبر في إتاحة الفرصة له ليكرس نفسه للكتابة. وفي هذا المكان بالذات انهى تنقيح نسخة اكسفورد من كتاب "اعمدة الحكمة السبعة". وكذلك قام، من أجل الحصول على مزيد من المال، بترجمة قصتين من الفرنسية إلى الانكليزية لحساب "جوناثان كاب"

واستطاع لورانس أيضاً في هذا المكان أن يرضي نزعة أخرى من نزعاته، ألا وهي السرعة، إذ تمكن عن طريق الاتصال الشخصي بالمستر "جورج بروغ" صانع الدراجة المعروف باسمه من الحصول على دراجة بسعر مخفض وأقساط سنوية.

ومنذ ذلك الوقت فصاعداً اصبحت دراجات "بروغ" هي الوسيلة الوحيدة لتنقلاته على الأرض، واستبعد التنقـل بالسيارات على اعتبار ان هذا التنقل "سئ لا يليق بالبشر إلاّ في الطقس الممطر".

وعندما كان يزور بعض اصدقائه القدامى مثل برنارد شو وكلنغتون وتوماس هـاردي. كـان يقطـع مـسافة تتراوح بين اربعمائة وخمسمائة ميل في الاسبوع على الدراجة بسرعة تتراوح بين ٨٠ و١٠٠ ميل فـي الـساعة مهما كانت الوجهة التي يسير إليها.

وخلافاً لذلك فقد وجد إلى جانب معسكر بونينغتون البيت الوحيد الذي امتلكه في حياته، وهو عبارة عـن كـوخ متداع يسمى "كلاودز هيل"، وقد أعاد بناءه واثثه بسرير وثلاثة كراس ومائة كتاب وحـاك ليرضـي ميلـه إلـى الموسيقى.

وقد أصبح هذا الكوخ موضع اهتمامه الرئيسي خارج ميدان عمله، ولقد كان يصف كل تغيير يحدثه في الكـوخ بكل رسالة من الرسائل التي يبعث بها إلى أمه. ومنذ ذلك التاريخ فصاعداً اصبح الكوخ مقـر رئاسـته الـدائم، والمكان الذي يدعو إليه اصدقاءه للترفيه، وكان ذلك الترفيه بالنسبة إليه ثقافياً أكثر منه مضيعة للوقت.

وبالنظر لحساسيته في الشم، وخاصة رائحة الاكل كان دائماً يأكل من القدر مباشرة، ويقدم الطعام بهذا الـشكل لضيوفه، وذلك توفيراً لغسل الاطباق. وكان الشاي هو الشاي الوحيد الذي يسمح بتقديمه.

وتقول المسن "اريك كننغتون" ان طريقته في غسل الاقداح بعد شرب الشاي غريبة الشكل، فقد كان يلجـأ إلـى وضع الاقداح في ممر الحديقة ثم يسكب ماءً مغلياً على الدرج بحيث يسيل من قدح إلى آخر.

وبعد خدمته في سلاح الدبابات ابلغ لورانس اللورد "ترنشارد" أنه حسب رأيه فقد نفذ شرطه الخـاص بإعادتـه إلى سلاح الجو الملكي. وعلى الرغم من الهدوء النسبي والحياة الهانئة التي كان يعيشها في "بونينغتـون" إلاّ أنـه لم يكن سعيداً.

وكان على الدوام يفكر بالعودة للخدمة في السلاح الذي اختاره. وقد وجد صعوبة فائقة في ان يبقى بين رجـال يصغرونه، كثيراً، ولكنهم أقوى منه جسمياً. وكانت التمرينات الرياضية جزءاً من التدريبات اليومية، ولذلك فقـد كان يخشى دائماً أن يقصر من مجاراة زملائه.

والحقيقة ان "ترنشارد" قد وقف ضد عودة لورانس إلى سلاح الجو الملكي حتى بعد سنة قضاها فـي الجـيش، ففي شهر أيار سنة ١٩٢٥، أوضح له بجلاء في جواب ارسله إليه رداً على طلب تقدم به بـأن طلبـه مرفـوض جملة وتفصيلاً.

وكانت آمال لورانس قد قويت في السابق عندما تقدم بطلبه إلـى وزيـر العمـل لـشؤون الطيـران اللـورد "طومسون" بأنه يرغب في كتابة تاريخ لسلاح الجو الملكي، فوافق.

غير أن لورانس اشترط ان يعاد إلى ذلك السلاح، إذا ما اراد لهذا العمل ان يتم، ولكـن اللـورد "طومـسون" رفض هذا الشرط ومن ثم سحب لورانس اقتراحه.

وعندئذ جرّب لورانس وسيلة أخرى، فقد كان مجتمعاً في المدة الأخيرة بـ "جون بوشان" المؤلـف المـشهور والقصصي المعروف، والذي أصبح فيما بعد اللورد "تويدز موير"، والحاكم العام لكندا.

وكان "بوشان" على صداقة وطيدة مع "ستانلي بالدوين" الذي كان قد أعيد انتخابه رئيساً للـوزراء بعـد هزيمـة حكومة حزب العمال في انتخابات سنة ١٩٢٤، وكذلك كان صديقاً للمستر "غارنت".

وقد كتب لورانس إلى "بوشان" يطلب منه أن يتوسط له. وفي نفس الوقت كتب إلـى "غارنـت" قـائلاً: "لـست ادري ما قيمة حياتي على الارض، ولذلك قررت أن أنهي هذه الحياة، ولكن على طريقتي الـساخرة المعتـادة... انني عازم على انهاء الكتاب واعادة طبعه وتصفية حساباتي مع "كاب" قبل ان ... أرسل اليـك مـذكراتي عـن حياتي في سلاح الجو الملكي".

وقد أفلح هذا التهديد البسيط بالانتحار، فأسرع غارنت وكتب إلى "بوشان" و"شو" اللذين طلبا إلـى "بولـدوين" ان يتدخل لدى سلطات سلاح الجو الملكي، ولو لمجرد تفادي فضيحة محلية.

وعمل بولدوين بسرعة، وخلال اسبوع كان "ترنشارد" يستدعي لورانس ليبلغه بأنه يستطيع الآن ان يعـود إلـى سلاح الجو الملكي. وفي السادس عشر من تموز سنة ١٩٢٥. وافق ترنشارد رسمياً على نقـل الجنـدي "ت. إي. شو" إلى سلاح الجو الملكي.

الفصل الثالث والثلاثون

نهاية لورانس

بعد ثمانية عشر شهراً في كلية "كارنويل" للضباط، حيّث عمل كمساعد طيّار، وفي أثناء فراغه كتـب ملخـص كتابه "ثورة في الصحراء" وبعدئذ نقل لورانس إلى الهند، وذلك في شهر كانون الاول سنة ١٩٢٦.

وبناء على طلبه، ولم يكن غير سعيد في "كارنويل" بل على العكس، فان رسائله كانت تتحدث بأنه وجـد وطنـاً جديداً إثر عودته إلى سلاح الجو الملكي، ولكنه لم يشأ ان يكون موجوداً عند صدور كتابه "ثورة في الـصحراء" كي يتجنب المزيد من الدعاية بالنسبة لهذا الموضوع.

ومهما يكن من أمر فإن المشاكل قد لاحقته في الهند، إذ ان المسؤولين الهنود كانوا ينظرون بنوع مـن عـدم الرضى لوجود رجل بينهم يعرفون بأنه قد فعل الشيء الكثير من أجل تحطيم الامبراطورية العثمانيـة، وبالتـالي تدمير مصالحهم في بلاد الرافدين، أثناء وبعد الحرب.

وعلى هذا الاساس فقد أمر لورانس بأن يلازم الثكنات خلال اقامته في كراتشي، وهي القاعـدة الاولـى التـي عمل فيها، وذلك لتجنيبه مصاعب لا ضرورة لها.

وبعد اكثر من شهر من إقامة إجبارية في كراتشي دون ان تكون له أية سلوى غير إنهاء "مخترعاتـه"، طلـب أن يعين في وظيفة خارج البلاد. وكان صديقه القديم منذ أيام الحرب العالمية مارشال الجـو "سـالموند" عندئـذ، مسؤولاً عن سلاح الجو الملكي في الهند، وقد احب ان يسدي خدمة إلى لورانس، فوافق على نقلـه إلـى قاعـدة لسلاح الجو الملكي تدعى "ميرانشاه" على الحدود الشمالية الغربية، وكانت هذه القاعدة تضم فرقـة مـن الجنـود مؤلفة من ستة وعشرين جندياً وخمسة ضباط وبضع مئات من الهنود، وهي مبنية من الطوب والتراب ومـسيجة بالأسلاك الشائكة، وتقع عند سفح تلة صخورها زرقاء اللون، واطرافها حادة كاسنان المدى. وكانت هذه القاعـدة كذلك تبعد مسافة عشرة أميال عن الحدود الافغانية.

أما بالنسبة للطقس فيها فقد كان جافاً وصحياً على عكس كراتشي، غير ان هذا النقل أثبت فيما بعد أنـه النهايـة بالنسبة إلى لورانس، إذ لم يمض عليه أكثر من شهر هناك، وعلى الرغم من الاحتياطات الـشديدة، حتـى غـدا وجوده في تلك البقعة المتنازع عليها من الممتلكات البريطانية معروفاً بالنسبة للصحف الأميركيـة التـي كانـت تبحث منذ مدة عن قصة مثيرة حول عودته السريعة إلى الشرق.

وقد بدأت الصحف السوفييتية في حملة لتهامات تقول بأن لـورانس يتجـسس علـى افغانـستان، وان الـوزير البريطاني في "كابول" طلب إرجاعه إلى انكلترا وكانت العلاقات بين الحكومة الهنديـة وأفغانـستان آنـذاك فـي اقصى درجات الحساسية، واستمرار وجود لورانس على الحدود الافغانية قد يجر إلى وقوع حوادث مؤسفة.

وعاد في أوائل سنة ١٩٢٩ ليواجه وابلاً من التعليقات والاتهامات في بريطانيا. ومن سوء حظـه أنـه قبـل أن يسحب من قاعدة "ميرانشاه" وقعت ثورة في افغانستان، وتمخضت عن خلع الملك، وقد اصبح الساسة العمـاليون كما أصبحت الصحف اليسارية في بريطانيا على اقتناع تام بأن لورانس ـ الذي طالما كانوا يشكون في أنه أخـذ افراد مكتب الاستخبارات، ولكنه متنكر تحت رداء جندي طيار ـ هو الذي نظم الثورة في افغانستان بتحـريض من الحكومة الهندية.

وقد قدمت أسئلة في البرلمان حول هذا الموضوع، وفي أثناء مظاهرة قام بها جماعـة مـن الـشيوعيين فـي "تاورهيل" أحرق المتظاهرون دمية تمثل لورانس.

وقد قرر لورانس إثر عودته أن يضع حداً للدعاية الفارغة التي تثار حوله، وتوجه رأساً إلـى مجلـس العـوم حيّث قابل الزعيمين المعروفين المستر "جيمس ماكستون" والمستر "ارنست تورتـل" وكلاهمـا مـن الاعـضاء المستقلين في حزب العمال.

ونجح في إقناعهما بأنه لم يكن يتجسس لحساب أية حكومة وانه لا علاقة له إطلاقاً بالثورة الأفغانيـة، وانتهـى الحادث عند هذا الحد.

وبعد ذلك وجد لورانس قبلته في سلاح الجو الملكي حيّث جدد اتفاقية الخدمة لخمس سنوات أخـرى تبـدأ مـن سنة ١٩٣٠. ونظراً لأن "ترنشارد" كان متضايقاً جداً من وجوده، فقد اقترح إعطاءه وظيفة في أبعد مكـان عـن لندن.

واقترح لذلك سكوتلندا، غير ان لورانس قدر بأن سكوتلندا مكان بارد ورطب، فاعترض على الاقتـراح، ولـم يكن له من محيص إلاّ أن يقبل الاقتراح التالي وهو نقله إلى "كات ووتر" في "بليموث ساوند" ـ التي سميت فيمـا بعد "مونت باتن".

وهناك اتخذ له صديقين جديدين: الاول الضابط المسؤول عنه قائد الجناح "سيدني سميث" الـذي كـان ذكـاؤه وإنسانيته سببين جعلا منه "اللنبي صغيراً" بالنسبة إلى لورانس، أما الثاني فقد كانت الليدي آستور عـضو مجلـس البرلمان عن "بليموث"، والتي كان بيتها يوفر لها صحبة الكثير من الشخصيات المرموقة من مختلـف البلـدان، حيّث كانوا يتبادلون الأحاديث حول السياسة والفنون، الأمر الذي زوده بدوافع مثيرة كلما احتاج إلى مثـل هـذه الدوافع.

وكان يغيظ الليدي "آستور" دون شفقة أو رحمة عندما يعلق بقوله: "إن "كات ووتر" لا بد وان تكون قد سـميت بعد ولادتها". وخلال هذه الفترة قسم لورانس وقته إلى قسمين الاول للمساعدة في تنظيم سباق "شـنايدر تروفـي" للطائرات البحرية، وتطوير الزوارق البخارية من أجل استعماله في حوادث الانقاذ.

أما الثاني فقد بدأ بشكل عفوي إذ كان في أحد الايام يمر في بليموث ساوند في لنش تابع لسلاح الجـو الملكـي عندما تحطمت إحدى الطائرات التابعة لقاعدته وسقطت في البحر، فاسرع لورانس للإنقاذ، ولكنه فـشل فـي أن يصل إلى مكان الحادث في الوقت المناسب، لكي يبقى الطائرة عائمة أو ينقذ ملاحيها المحاصرين داخلها.

ولقد كان لهذه التجربة تأثير كبير على نفسه استمر طويلاً، فصمم على ان يخترع قارباً يكـون مـن الـسرعة بحيث يمكن استعماله يف حوادث الانقاذ في المستقبل عندما تنحطم طائرات أخـرى، علـى أن يكـون مجهـزاً باختراع يمنع الطائرة من الغرق لفترة تسمح لملاحيها بالنجاة.

وكان فن الانقاذ البحري عندئذ فناً مجهولاً، ولكن بمساعدة وتشجيع "سيدني سـميث" كـرس لـورانس نفـسه لتصميم وتجربة القوارب البخارية لهذا الغرض، وبعد مفاوضات كثيرة من وزارة الطيـران اسـتطاعت فكـرة لورانس ان تنجح.

ومنذ ذلك الوقت وحتى نهاية خدمته في سلاح الجو الملكي سنة ١٩٣٥، كرس معظم وقتـه لتجربـة وتـصميم وصناعة هذه القوارب السريعة، ولعل من الانصاف القول بأن الكثيرين من الطيارين مدينون بحياتهم لما قام بـه لورانس في هذا الميدان.

وفي صيف سنة ١٩٢٩ عادت حكومة العمال مرة أخرى إلى الحكم في بريطانيا، وأصبح اللـورد "طومـسون" مرة أخرى وزير الدولة لشؤون الطيران.

ولما كان مغتاظاً لرفض لورانس كتابة تاريخ سلاح الجو الملكي دون شروط، وانه لـم يخـف سـراً بالنـسبة للحقيقة، وهي أنه يتحين الفرص لطرد الطيار "شو" وإبعاده عن سلاح الجو الملكي.

وقد حانت المناسبة عندما كان الجنرال "بالبو" مارشال الجو الايطالي ضيف شرف في أحد سباقات سلاح الجـو الملكي، وشوهد وهو يتحدث إلى لورانس، رافعاً الكلفة على اعتبار أنه صديق قديم.

وبعد ذلك شوهد آخرون من الشخصيات السياسية المشهورة من حزب المحافظين يتحدثون مع لورانس.

وبناء على أمر من "طومسون" أبلغ لورانس إنذاراً بصرفه من الخدمة، ولما توسط له بعـض اصـدقائه مـن البارزين، استدعي لمقابلة "ترنشارد" الذي قال له إنه يستطيع ان يبقى في سلاح الجو الملكي إذا ما تـصرف فـي المستقبل كأي طيار عادي يخضع للواجبات الروتينية ومتخلياً عن اتصالاته مع الشخصيات المشهورة من حـزب المعارضة مثل تشرشل واللورد "بركينهيد" و"اوستن تشمبرلين" والليدي "آستور".

ولما كان لورانس يدرك أن هذه القيود لا يمكن إلاّ أن تكون قيوداً مؤقتة، فقد وافق على هذا الـشرط، وكـرس كل أوقات فراغه لترجمة "الأودية لـ هوميروس".

التي كان أحد الناشرين الأميركيين مستر "بروس روجرز" قد طلب إليه ان يترجمها، وفي الوقت الـذي أنهـى فيه الترجمة وذلك حوالي نهاة سنة ١٩٣٠، كانت القيود التي فرضت عليه قد زالت، وأصبح بامكانـه أن يعـاود اتصالاته من جديد.

وقبل سنة من نهاية عقد خدمته سنة ١٩٣٥ بدأ لورانس يقلق على مستقبله. وفي هذا الوقت رأى عـدداً كبيـراً من أصدقائه من ايام "كارشمش" مثل الدكتور "ارنست التونيان" وفي رأي الدكتور "التونيان" أن لورانس كان فـي ذلك الوقت "يعالج من انهيار عصبي وضعف في قواه العقلية"، الأمر الذي حدا به إلى اخفاء نفسه عن الناس فـي سلاح الجو.

غير ان رسائله إلى أمه كانت تتحدث بحماسة عن نشاطه في الحياة. وقد قال فـي إحـدى رسـائله إن حياتـه النشطة قد انتهت منذ أن ترك سلاح الجو الملكي" انني صغير لكي أسعد بألا أفعل أي شيء وكبيـر حتـى أبـدأ بداية جديدة".

وكتب إلى أحد أصدقائه يقول "إنني سأشعر ككلب ضائع حالما أغادر سلاح الجو الملكي... إن الاثر الغريـب للحياة بين الملابس والعمل والزملاء والاتصال المباشر بالناس لا مثيل له في حياتي اجمالاً انني اشـعر شـعوراً عميقاً بأن حياتي من حيّث الشعور الفعلي قد انتهيت الآن."

وفي شهر آذار سنة ١٩٣٥ ودع لورانس سلاح الجو الملكي ولجأ إلى كوخه فـي "كـلاودز هيـل". غيـر أن الصحافة كانت بانتظاره هناك، فاضطر إلى سجن نفسه داخل الكوخ عدة أيام، ليهرب من اسئلة الصحافيين.

غير ان هؤلاء كانوا من التصميم على درجة كبيرة، فراحوا يلقون الحجارة على سطح الكوخ وعلـى نوافـذه لإجباره على الخروج اليهم، والإجابة على اسئلتهم والامتثال لآلات تصويرهم.

وبعد ان يئسوا انصرفوا. وتفرغ لورانس إلى ما اسماه بـ "الحياة الفارغة في هذه الجنة الأرضية". وقد كتـب إلى الليدي "آستور" يقول: "في مثل هذا الجو لن أقبل بأية وظيفة على الاطلاق، هنالك شيء ما قـد تلـف فـي ، واعتقد بأن هذا الشيء هو ارادتي".

ومع ذلك تلقى بعد خمسة أيام، أي في الثالث عشر من أيار رسالة من احد اصدقائه يدعى "هنـري وليامـسون" وكان هذا الشخص يعتقد بأن انكلترا يجب ان تسعى إلى التفاهم مع المانيا.

وقد جاء في رسالته قوله "انك انت الوحيد الذي يستطيع ان يتفاوض مع هتلر، انني اريد أن احـدثك فـي هـذا الموضوع فوراً. وقد ركب لورانس دراجته النارية، وتوجه إلى مكتب البريد حيّث أبرق إلى وليامـسون يقـول: "موعدنا مساء الخميس عند العشاء في كوخي الذي يبعد ميلاً واحداً إلى الشمال مع معسكر بوفينغتون".

واثناء عودته إلى كلاودز هيل حاول ان يتجنب صبيين كانا يمتطيان دراجتين فانقلبت دراجتـه عـن الطريـق، وبعد هذا الحادث لم يعد لورانس إلى وعيه.

وبعد ستة أيام توفي. وقد دفن في مقبرة "موريتون" التي تبعد بضعة أميال عن كوخه. وقد حـضر عـدد مـن اصدقائه بينهم تشرشل، وستورز، ونيوكامب وكلنيتغون، وقد جاؤوا ليروا هذا البطـل الانكليـزي الكبيـر فـي الأرض التي أحبها كثيراً، واعترافاً بخدماته التي اداها لبريطانيا ومساهمته في التاريخ البريطـاني وضـع تمثـال نصفي له في كاتدرائية القديس بول في لندن إلى جانب تماثيل مماثلـة لـشهيرين مـن الرجـال مثـل نلـسون وكونستابل، وهم ابطال في ميادين الحرب والفن ويمثلون عظمة بريطانيا من الناحيتين العسكرية والفنيـة، الأمـر الذي كان مجسماً في "ت. إي. لورانس".

الفصل الرابع والثلاثون

الدافع

ما الذي كان يكمن في أعماق لغز لورانس؟ وكيف يمكننا ان نفسر الاعمال وردود الفعل لهذا المخلوق الغريب الذي حوى من المتناقضات والعقد النفسية ما يكفي ألف رجل؟.

كثير من الكتاب قد حاولوا ان يعطوا الجواب على هذين السؤالين، ولكن أيا منهم لم يوفق. وكأي شخص آخر لديه الرغبة، في أن يضع استنتاجاته عن هذه الشخصية الغريبة فقد حاولت الاتصال بأصدقائه وأقربائه الذين ما يزالون في قيد الحياة.

ومرة أخرى لم اجد تفسيراً حقيقياً للسبب الذي دفعه ليعمل كل ما فعل. وقد يستطيع المرء ان يجد هنا أو هناك شيئاً من الاثر، ولكنه سرعان ما يكتشف أنه لا يؤدي إلى نتيجة، أو أن العقدة الرئيسية للقسم التالي من التفسير ضائعة وعندها يتوقف الاثر.

ويرجع قسم من السبب في هذا إلى أن لورانس كان طوال حياته ملتزماً خطة تجعله لا يعطي الجواب الواحد إلى أكثر من شخص واحد، وقد انبثقت هذه التفسيرات المتناقضة بعد وفاته من وثائقه الشخصية، ومن شهادات أصدقائه.

وكذلك كان هنالك غموض عندما يريد المرء ان يحلل شخصيته، وخاصة في نقطتين تتعلقان بحياته، وهما اولاً: ما الذي جعله يغادر دمشق؟.

ثانياً ما الذي دفعه إلى الانزواء في سلاح الطيران الملكي؟. ولنه لمن السخف القول بأن هذين السؤالين متصلان، إذ أن بينهما فارقاً كبيراً.

فالاول هو في الغالب قضية سياسية ذات حقائق معينة، وقاسية ذات شروط خاصة، والثاني ينبع من مشكلة أكبر بكثير ـ من التفاعلات الشهوانية والعقلية والروحية التي تحتدم في جسم رجل معذب ـ ولما ووجه الكتاب بهذه المشكلة المعقدة، والتي لا حل لها أحبوا ان يعطوها تفسيراً بسيطاً "سياسياً" فقالوا إن لورانس كان يتألم لخيانة بريطانيا للعرب، وذلك هو السبب ليس لمغادرته دمشق فحسب، بل ولتصميمه على ان يذيب شخصيته عن طريق التحاقه بسلاح الجو الملكي، وهذا امر ليس بالصحيح. كما تثبته التحريات عن الحقائق.

ومن المؤكد ان سبب نقمته العارمة هو شعوره بالفشل في دمشق، الأمر الذي حداه لأن يدير ظهره للانتصار الذي عمل عملاً طويلاً في سبيل تحقيقه.

فقد كان مستاء مما حصل من غدر بريطانيا، ومستاء كذلك من النزاعات والحسد والتآمر بين اصدقائه، ومستاء من خيانة الحلفاء، وكذلك كان مستاء من محاولات فيصل الحط من قدره وعدم شكرانه لجميله، مستاءً إلى درجة بلغت به حافة الانهيار العقلي التام.

وكانت الحرب العربية التي خاضها لورانس قد بدأت كوسيلة للهرب من الجو الخانق الذي كان يسود غرفة الخرائط في القيادة العامة.

ثم وبعد أن أكتشف فيصل اصبح اشتراكه في الحرب العربية حلماً يغذيه الشعور بأنه يـؤدي رسـالة هـدفها مساعدة العرب على تحرير البلاد العربية، وهو أمر يتضمن الكثير من الاطماح، ويبشر بشهرة كبيـرة وفوائـد عظمى، حتى لقد رأى لورانس نفسه رجلاً "يصنع ملكاً" وبمثابة اليد اليمنى لفيصل في سورية الحرة.

ثم حدثت نكسة وهي اكتشافه خطط بريطانيا وفرنسا فيما يتعلق باقتسام البلـدان العربيـة فيمـا بيـنهم، خلافـاً لوعودهم بمنح البلدان العربية استقلالها غير ان التوفيق ما لبث أن تتابع سـريعاً، فحـصل تقـدم فـي الحجـاز واحتلت العقبة، وأصبح لورانس بعد هذه النجاحات رجلاً اسطورياً بين القبائل العربيـة التـي كانـت صـيحات فرحها من القوة على جانب كبيرة، بحق تغطي على همسات الخيانة التي كانت تتردد في أذنيه. وكان يعتقـد بـأن العرب سينتزعون حريتهم من جميع أولئك الذين يتحدونهم، وعليهم أن يحققوا ذلك في دمشق.

وفي يوم من الايام تحول الحلم إلى كابوس، وادرك لورانس بأن الوحدة بين القبائل العربيـة التـي عمـل لهـا فيصل كثيراً ليست إلاّ ستاراً تختفي وراءه مطامع الشرف لتدس السموم وتنشر المؤامرات الرامية للقضاء عليـه شخصياً، ولذلك كان الرحيل أمله الوحيد على اعتبار أن العرب سيكونون قادرين على الدفاع عن الحريـة التـي هم في سبيل الحصول عليها من الاتراك.

ولما كان لورانس يعرف كيف أن الحلفاء يعتزمون تقسيم العالم العربي فيما بينهم، بعد هزيمة تركيا، ولما كان يعلم بأن النصر لا يمكن أن يكون بالنسبة إليه إلاّ عاراً... فقد قرر ان يغادر دمشق دون ان يتأخر دقيقة واحدة.

ولكنه اضطر إلى الرجوع إلى ميدان السياسة العربية وسياسة الحلفاء، أولا بوساطة فيـصل، وثانيـاً بوسـاطة تشرشل، وعلى الرغم من أن عودته هذه كانت أقسى بكثير من فشله في مؤتمر الصلح، كما عرفنـا ذلـك مـن مذكرات لورانس نفسه فيما بعد حيّث قال: "إن جميع الاخطاء التي وجهت للعرب فـي مـؤتمر القـاهرة سـنة ١٩٢١ قد اصلحت، وبذلك خرجت بريطانيا نظيفة اليد من الشؤون العربية".

وعلى الرغم من ذلك فاننا نراه بعد سنة من الزمن يعترف في مذكراته بأن بريطانيا قـد خادعـت فـي تنفيـذ وعودها للعرب، وبذلك وجهت إليه إهانة بالغة فانزوى هرباً من الفضائح في سلاح الجـو الملكـي تحـت اسـم مستعار. وعلى هذا الاساس لا يجوز القول بأن السبب في دخوله الجندية كان نفـس الـسبب الـذي عجـل فـي مغادرته لدمشق.

فما هو إذن الجواب على السؤال الثاني؟ ما هي القوة القاهرة التي دفعته للهرب مرة ثانية؟ أهي الدعايـة التـي تلت محاضرات "لويل توماس"؟ هذا احتمال صعب، إذ أن الحيرة التي كلفته إياها هذه الـشهرة المفاجئـة كانـت سطحية على نطاق واسع، وكان لورانس ضحية لما هو أكثر من الحيرة.

فهل كان السبب هو الجنون؟. ومرة ثانية يكون الجواب نفياً، فقد تحدث لورانس كثيـراً عـن العقلانيـة أثنـاء انخراطه في سلاح الجو الملكي، وقد قيل أيضاً الاشقاء الخمسة قد أقسموا على إلاّ يتزوجوا مطلقاً بسبب الخـوف من وجود جنون وراثي في اسرتهم.

ولكن... حتى ولو كان هذا التفسير معقولاً يظل هناك سؤال هو، ما الذي جعله يجن، ودفعه إلى هذا المـستوى المخيف من تحقير الذات؟

ولقد حاول أكثر من كاتب ان يفسر هذا اللغز بأن لورانس كان ضحية شذوذ جنسي، ولكـن أيـاً مـن هـؤلاء الكتاب لم يقدم الدليل على صحة ذلك، والواقع أن كل من عرفه معرفة جيدة قد أكد دون تردد بأن لـورانس لـم يكن مريضاً جنسياً، ومن هؤلاء "روبرت غريفز" و"الدكتور التونيان" و"كير كبرايد" والكولونيل "جويس" والمـسز "كينيتغتون" و "ديفيد غارنت" و"باسيل ليدل هارت" والمرحوم الكولونيل "نيوكامب" وقد اجمعوا علـى نفـي هـذه الشائعة.

وفضلاً عن ذلك، وربما كان هذا من أقوى الادلة، فإنه خلال انخراطه في سلك سلاح الجو الملكي والجندية لـم يكن هنالك أي دليل على انحرافه الجنسي، مع أنه قد أمضى في سلاح الجو الملكي وسلاح الـدبابات مـدة تزيـد على اثنتي عشرة سنة بين ذكور فقط. وقد أعلن "دليفيد غارنت" بصراحة أنه قد رأى مرة رسـالة موجهـة مـن لورانس إلى أحد المنحرفين جنسياً، وقد جاء فيها أنه لا مانع من ممارسة العمل الجنسي، وإن كـان يعتبـر ذلـك العمل منافياً لطبيعة البشر.

والواقع أنه استناداً إلى أفضل الروايات المتوفرة، فإننا نستطيع القول بأن الصدمة التـي نجمـت عـن إبلاغـه حقيقة مولده، كانت كافية لأن تصيبه بانهيار عصبي، إذ أنها تجاب له ولأشقائه العار، لكونهم أبناء زنـى. فمـن الطبيعي والحالة هذه أن يزهد لورانس في أي نوع من أنواع الجنس.

وهذا الدليل يكشف النقاب عن حقيقة القصة التي تقول بأن لورانس كان على علاقة غرام مع مـومس يهوديـة تدعى "سارة أرونسون"، كانت تعمل في قلم الاستخبارات البريطانية وراء خطوط الأتراك، زمن الثورة العربية.

وقد قيل إن لورانس نسي حبه هذا، وهو في "درعا" وختم بذلك مأساته. واستنتج بعضهم مـن القـصيدة التـي جعل لها لورانس عنواناً رمزيا على أنها موجهة إلى "ساره أرونسون". غير أن هذا التقدير الخيالي لا يستند إلـى حقيقة.

فبالاضافة إلى القسم الذي أداه بالابتعاد عن الزواج، دلت التحقيقات الرسمية على أن لـورانس و "سـارة" لـم يلتقيا، بل لم يكن من الممكن أن يلتقيا، لأن "سارة" كانت في فلسطين، بينما كان لورانس فـي مـصر والحجـاز وشرقي الأردن على التتابع، وقد توفيت "سارة" في أحد السجون التركية في شـهر آذار سـنة ١٩١٧، أي قبـل ثمانية أشهر من أسر لورانس وتعذيبه في درعا.

ولم يقل لورانس أبداً من هي (الرمز)، ولعل الأصح أن نقول بأنه أعطى عدة تفسيرات متناقـضة عنهـا إلـى أشخاص مختلفين.

فقال لبعضهم إن هذا الرمز يعود لشخص عزيز عليه قد توفي، وقال الآخرون بأن أحد الحـرفين يـشير إلـى أسم، بينما يشير الحرف الثاني إلى مكان.

كما أخبر "روبرت غريفز" إن (الرزم) يشير إلى الشيخ أحمد، الشاب العربي الذي تعرف عليه في سورية مـن قبل الحرب.

ولكي يزيد الامر تعقيداً فقد أدعى بأن العلاقة بينه وبين الشيخ أحمد لم تكن وثيقة، فكيـف إذن يـنظم بمدحـه قصيدة؟ ولكن الحقيقة كما تبدو هي أن (الرمز) لم يكن اسماً لعلم أو لمكان، بل لشخص خيالي، يمثـل كـل مـا أحس به لورانس وعاش فيه من عدل وجمال في البلاد العربية، وما كان يكنه لاهلها من محبـة. وهنـاك شـيء

واحد على الأقل يمكننا أن نعتبره مؤكداً، ألا وهو أن هذا اللغز لا يعطينا أي تفسير، ولا يلقي أي ضوء على اللغز الأكبر في حياة لورانس.

ونحن نعتقد جازمين بأن مفتاح هذا اللغز يمكن أن يوجد في أشياء ثلاثة مجتمعة هي: تلذذه بالألم، وخوفه من المسؤولية، وإصابته بانهيار عقلي. ومما لا شك فيه أن لورانس كان مريضاً جسمياً وعقلياً، ونستطيع أن نجد الدليل الكافي على ذلك في كتاباته الشخصية، ومذكراته، وأعماله التي قام بها أثناء وبعد الحرب العالمية الأولى.

ولنأخذ على سبيل المثال جملة وردت في كتابه "أعمدة الحكمة السبعة" إذ قال "لقد عذبت نفسي برضائي، ووجدت في هذا التعذيب راحة تقل عن الاثم الذي ارتكبه". وكتب في تعليق آخر عن تجاربه في البلاد العربية يقول: "إن العذاب كان بالنسبة لي راحة، وقد احتملته عن طيبة خاطر".

وقد أكد لفيف من أصدقائه أن لورانس كان يميل كثيراً إلى "حب الألم" حتى لقد ذهب بعضهم إلى أبعد من ذلك واكد بان هذا "الحب" كان في دمه.

وقد قال "كيركبرايد" ذات مرة: "إن لورانس يحب أن يلقي بنفسه في العمل دون رحمة، والواقع أنني لا أشك في أنه يجد لذة في التألم".

ويشارك "دايفيد غارنت" رأي "كيركبرايد" هذا. ومن المؤكد أنه قلما يوجد إنسان يلقي بنفسه في المصاعب مختاراً. ويعرضها للألم طواعية، مثل لورانس الذي ما كان ليقدم على ذلك لو لم يكن مصاباً بمرض التلذذ بالألم.

واكتشاف هذه الحقيقة، حقيقة كونه مريضاً بحب الألم يكفي أي شخص آخر، غير لورانس، لينهار روحياً. ولكننا يجب أن نذكر أن لورانس منذ علم بقصة ولادته غير الشرعية، لم يعش حياة عادية على الإطلاق، وتجنب النساء، هرباً من العار الذي لحق به وبعائلته.

غير أن هناك سبباً للاعتقاد بأن لورانس كان في اوائل حملة الصحراء يعتقد بأنه "مسيح" جديد، أرسل لينقذ العالم من الاضطهاد والعذاب، فقد كان دائم القلق حول موضوع واحد هو: لماذا أنا هنا؟ ومن أرسلني؟... لقد أرسل نفسه بنفسه، ولكن هذا ليس بالجواب الكافي.

والحقيقة هي أن لورانس كان يحب دائماً أن يقارن نفسه بالسيد المسيح، فقد كانت هناك علامة استفهام حول مولده، وكان يشن حرباً من أجل قضية كبرى، مستخدماً التبشير أكثر مما كان يستخدم القوة.

ثم إنه كان يعيش في الصحراء، وقد وعد بمملكة، وكان يلقى الاحترام والتقديس في كل مكان يذهب إليه بوصفه منقذاً ارسلته السماء. ولقد قام بما يشبه المعجزات أثناء احتلال العقبة، وأثناء الزحف على سيناء، وأثناء تصفيته للخلافات القبلية بين العرب.

وعندما أضطر إلى تجريد سيفه، كما حدث في "أبي لسان" كان يشعر بعد ذلك بالشفقة على العدو الذي قتله.

ومن المؤكد أن هذه الاستنتاجات لا ترقى إلى درجة التأكيد، ولا إلى درجة قراءة ما بين السطور، في مذاكراته الخاصة. غير أن هناك تأكيداً غريباً لهذه النظرية يمكن أن نجده في جواب بعث به لورانس إلى "كننغتون" حول أحد الرسوم التي نشرت في المطبعة الخاصة لكتابه "أعمدة الحكمة السبعة" وكان هذا الرسم بعنوان "سترلتا" ويمثل لورانس كإله يطل من فوق السحب على الأرض المضطربة التي تمثل الثورة العربية.

والواقع أن لورانس قد استغرب كثيراً عندما عرض عليه "كننغتون" هذا الرسم، وراح يؤكد بأنه لا يـستطيع أن يصدق بأن هناك انساناً ما يمكن أن يشتمل على كل هذه الخصائص التي تظهرها هذه الصورة عن نفسه.

وهنالك حقيقة معروفة أخرى، هي أنه بعد ان ترك الحرب في الصحراء عمد إلى تعذيب نفسه، وكان تفـسيره لذلك هو اعتقاده بأنه سيدعى في يوم من الايام ليلاقي عذاباً أليماً، ولنه لذلك يمرن نفسه على التعذيب كـي يغـدو قادراً على احتمال الألم مهما كان شديداً.

وكان عندما دخل درعا في تشرين الثاني سنة ١٩١٧ يعاين هذا الشعور بالذات، وعندما بدأ الاتراك يـضربونه احس بأن رسالته قد أُتمت وان عليه أن يتحمل التعذيب كما تحمله السيد المسيح.

ثم جاءت اليقظة المفاجئة التي وصفها في كتابه بقوله: ـ " انها حرارة تبعث السرور بالنفس، ومـن الارجـح القول بان الشعور الجنسي قد فقد مني". ولقد كان يعرف بأنه ليس نبياً ولا إبناً لله بل مجرد رجل يتلذذ بالعـذاب، وان هذه اللذة تفوق في قوتها الراحة النفسية وهذا يفضح نفسه بنفسه ويثير السخرية عند حاسديه.

هذا وقد شطبت هذه المتناقضات فيما يتعلق بحبه للألم من طبعة المشتركين، حيّث تكلم في تلـك الطبعـة عـن فقدانه "لحصن كرامته" في درعا، ومنذ ذلك الوقت أصبح رجلاً متقلباً، قاسياً شديداً في احكامه على نفسه وعلـى الآخرين، مهملاً في أعماله. وكما كشف النقاب في التحليل الذي كتبه بنفسه عـن شخـصه أثنـاء وجـوده فـي الصحراء وفي مذكراته، نجد أنه قد هرب فجأة من النزاع الروحي بعد أن أحس بأن الشعور الذي كـان يحـدوه للقيام بمهمته قد فقد، وان الرياح جرت بما لا تشتهي السفن.

وكان حتى ذلك الوقت يستعمل قواه الخارقة في القيادة، حتى أنه بنفسه في خضم العالم العربـي بـشكل يفـوق احتمال البشر، فكره نفسه للخيانة التي عرف أنها قد حصلت، ومع ذلك ظل يجاهد في سبيل كسب قضيته ورفـع روحه المعنوية.

ثم جاء اليوم الذي اكتشف فيه ان هذا الطموح ليس إلاّ مجرد خيال وان حلمه في السلطة قـد انتهـى، وهدفـه النبيل قد تحول إلى هدف ليس وراءه سوى القتل. وأثناء ما كان يعيش في كابوس دمـوي جاءتـه لطمـة علـى وجهه انهت ذلك الكابوس... ولما صفا عقله من حب سفك الدماء أدرك بأنه قد انتهى، وأنه يعيش على ما تبقـى من عقله وجسده، ولم يعد يستطيع أن يفكر إلاّ في الهرب من المسؤوليات، والتهرب من الزعامة التي كان يحتـل مركزها.

وكما كتب الدكتور "التونيان" واصفاً اجتماعه مرة أخرى مع لورانس بعد الحرب إذ قال: "لقد وجدت رجلاً ... أصيب في بصيرته ولا يهتم بمنجزاته الماضية وانما في احتمالات غير جائزة إلاّ إذا ارادها هو ان تجوز".

ولقد أصبحت مشكلة لورانس أكثر تعقيداً، لأنه لم يكن قادراً البتة على التحدث عنها لأي كان، ولو أنـه عـاش حتى هذا اليوم وهذا العصر لتحتم عليه أن يكون بحاجة إلى علاج عقلي.

ولكن ما دام مثل هذا العلاج لم يكن متوفراً يف عهده ذاك فقد لجأ إلى معالجة نفسه بنفسه، وذلك عـن طريـق انخراطه في سلك سلاح الجو الملكي حيّث كان يأمل أن يستعيد كرامته وراحته النفسية التي فقد الكثير منها فـي الصحراء.

وكان يأمل كذلك في أن يجد هناك آمالا جديدة، وينسى الكابوس الذي عاشه في سني مسؤولياته.

غير أن هذه الحياة في الجندية، وعلى الأقل في البداية، كانت محزنة، فبدلا من الجنود البسطاء الـذين عـرفهم في الحرب، وجد نفسه بين رجال لم يستطع أن يفهمهم، وضباط لم يقدر أن يحترمهم.

ومع ذلك لم يكن بمستطاعه ان يتراجع لأنه أقسم على أن ينسى تاريخه في البلاد العربية. وحتى عنـدما أُلقـي به إلى الخارج كان يعرف بأن عليه أن يعود إلى سلاح الجو الملكي مرة أخرى ليجد فيه العلاج.

وكانت مسألة الشرف بالنسبة إليه ذات أهمية كبرى. وفضلا عن ذلك فإن حبه للتألم كـان يبعـث فـي نفـسه سروراً من جراء المعاملة القاسية التي كان يلقاها. فما الذي يستطيع المرء إذن أن يـستنتجه مـن نهايـة هـذه القصة؟.. هل كان علاجاً ناجعاً أم أنه ترك سلاح الجو الملكي وهو ما يزال رجلا مهيض الجناح؟... أما القـول بأنه قد شفي تماماً بما فيه الكفاية ليتمكن من استعادة الحياة من جديد وممارسة مسؤولياته فـأمر مـشكوك فيـه كثيراً.

فقد أراد أن يعرف الجميع بأنه سيعود، ولكنه مخاوفه من مغادرة "الدير" ومواجهة العالم واعتقاده بأن حياته قـد انتهت فعلا، لهي أسباب لا تؤهل رجلا لتحمل المسؤوليات أو شطر من المسؤوليات في شؤون دولة.

(انتهت)